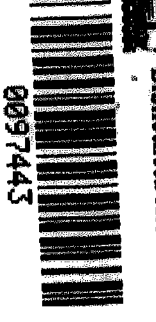


التفكير المستقيم و التفكير الأعوج

تأليف : روبرت هـ. ثاولس
ترجمة : حسن سعيد الكرمي
مراجعة : صدقي عبد الله حطاب



بة شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت





سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

التفكير المستقيم و التفكير الأعوج

تأليف : روبرت هـ. ثاولس
ترجمة : حسن سعيد الكرمي
مراجعة : صدقي عبد الله حطاب

٢٠ - رمضان / شوال ١٣٩٩ هـ - اغسطس (آب) ١٩٧٩ م

المراسلات
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب/٢٣٩٩٦ الكويت

التفكير المستقيم و التفكير الأعوج

العنوان الاصلي للكتاب :
Straight and Crooked Thinking
by: Robert H. Thouless,
Pan Books, London, 1974

مقدمة المترجم

كتاب « التفكير المستقيم والتفكير الاعوج » كتاب مشهور ومؤلفه مشهور .. ولعل الطبعات العديدة التي مر فيها هذا الكتاب دليل على هذه الشهرة .

والشكر يهدى للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت الموقرة لانه اهتدى الى هذا الكتاب واوصى بترجمته الى اللغة العربية حتى لا تفوت الفائدة منه وحتى لا يحرم القراء العرب من التعرف لهذه الناحية الثقافية .

ولعل هذا الكتاب هو الوحيد من نوعه من بين الكتب العديدة التي ترجمت الى اللغة العربية . وليست ترجمة الكتاب بالامر الهين ، اذا قيست بترجمة الروايات والقصص والتواريخ والمذكرات وما الى ذلك . والصعوبة في الترجمة هنا هي في ايجاد العبارة الملائمة للغة العربية من جهة وللقراء العرب من جهة ثانية . فان اللغة العربية قد ابتعدت زمنا طويلا عن معالجة القضايا التفكيرية المنطقية حتى فقدت المفردات المناسبة لها في الاستعمال . ثم ان القراء العرب لم يعهدوا من قبل في العصور الاخيرة التصدي لفهم أمور الفكر والمنطق باللغة العربية . ولذلك ليس من السهل فهم الكتاب الا ببذل الجهد وإعمال الفكر عند القراءة .

وقد حاولت في ترجمتي لهذا الكتاب أن افهم القارىء ما يريد المؤلف أن يقوله ، وذلك بلغة سهلة ما امكن ذلك مع المحافظة على

الاصل . وقد اضطررت احيانا في نيل هذه الغاية الى زيادة عبارة هنا وهناك لزيادة المعنى وضوحا لا غير .

فاذا وكنت قد رفقت في هذه المهمة ، فالتوفيق من عند الله .

لندن في : ١٩٧٦/١٢/١

حسن سـعيد الكرمي

مقدمة المؤلف

على المؤلف لأي كتاب عن هذا الموضوع أن يختار بين ان تكون امثلته التي يضربها على التفكير الاعوج منتقاة من مسائل يدور حولها الجدل كالقضايا السياسية وبين أن تكون منتقاة من المصادر المالوفة المنتمية الى مجال الحياة اليومية ، والتي ترضى عنها الكتب الاكاديمية . وفي اتخاذ الطريقة الثانية فوائد عديدة ، اهمها جميعا أن الشاهد أو المثال على الحجة الخاطئة اذا اتخذ من موضوع الاشتراكية او نزع السلاح مثلا فانه قد يؤدي الى صرف ذهن القارىء وانتباهه عن طبيعة الحجة الى النظر في مدى صحة العبارة . ولهذا فانه من المتعذر على وجه الاطلاق ان يتخلى المرء عن استعمال الأمثلة العادية المألوفة . ومع ذلك فقد اتخذت امثلتي وشواهدي بقدر الامكان في المواضع المناسبة من قضايا خلافية جارية بين الناس في حياتهم اليومية ومن حجج ومجادلات تستعمل بالفعل في الدفاع عن هذه القضايا . وقد يسيء هذا الاختيار الى بعض القراء الذين يرون انني وضعت موضع السخرية حججا يتخذونها هم للدفاع عن مواقف اثيرة عندهم . فاذا كان الامر كذلك فباستطاعة هؤلاء القراء أن يستعيضوا عن هذه الشواهد والامثلة على التفكير الاعوج بشواهد وامثلة على التفكير الاعوج لدى خصومهم .

وليس من الضروري لكاتب يكتب عن التفكير الاعوج بأن يدعي لنفسه زورا بانه هو نفسه مثال التفكير المستقيم . اذ لا يمكننا أن نفهم التفكير الاعوج الا اذا راقبناه نحن في تفكيرنا خاصة وفي كتابات الاخرين وخطبهم . ولهذا فقد قل أن حاولت انا الظهور بنزاهة مصطنعة عند الحكم على المشكلات المختلف عليها ، ولا أحسب أن القارىء سيحتاج الى قدر كبير من النظر الثاقب حتى يستنتج بقدر معقول من الترجيح حقيقة معتقداتي في هذا الباب . فاذا استنتج ذلك فباستطاعته حينئذ أن يدخل في حسابه دون حرج ما يكون قد ترتب عليها من مظاهر التحيز عندي .. ولكن يجب أن لا يستنتج من مهاجمتي لحجة ما أو لطريقة ما في التفكير أنني بالضرورة غير موافق على استنتاجاتها فقد يرتكز الاستنتاج السليم على حجة باطلة .



الفصل الاول

طرق مختلفة في استخدام اللغة

حينما كتبت الصيغة الاولى من كتابي هذا اطلقت عليه اسم : « التفكير المستقيم والتفكير الاعوج » ، وكان في الامكان بدلا من ذلك أن أطلق عليه اسم « المخاطبة Communication المستقيمة والمخاطبة العوجاء » . فالمخاطبة ذات صلة وثيقة بالتفكير وما هما الا طريقتان في استخدام اللغة ، وقد قيل : « الانسان حيوان ناطق ، وهو أن لم يجد من يحدثه تحدث الى نفسه » . وما نسميه « بالمخاطبة » هو المحادثة مع الاخرين اما ما نسميه « بالتفكير » فهو محادثة المرء مع نفسه . ومع ذلك فان محادثة المرء مع نفسه ليست شاملة للتفكير بأجمعه ، ولكنها ذلك الجزء من التفكير الذي يجري فيه استعمال اللغة ، وهو الجزء الذي يهمنا في بحثنا هذا . ولا يخفى أن المخاطبة والتفكير عملان مختلفان ، ولكنهما مع ذلك مرتبطان ارتباطا وثيقا ، فالتفكير الاعوج يؤدي الى المخاطبة العوجاء ، والعكس في ذلك صحيح .

ومن الوسائل التي تثير الخلط في التفكير او في المخاطبة وجود خلط اخر لا يعرف المرء فيه على وجه واضح ما الذي يفعله حينما يقوم بعملية تفكيرية أو عملية للمخاطبة . والواقع أننا نستطيع استخدام اللغة بعدة طرق متباينة :

١ ـ اعطاء معلومات عن واقعة كأن نقول : « الكنغر حيوان يوجد في اوستراليا » .

٢ ـ الاستفهام عن واقعة ، كأن نسأل : « هل يوجد كنغر في غينيا الجديدة ؟ » .

٣ ـ الدلالة على موقف انفعالي كأنه نقول : « العناكب حيوانات تنفر منها النفس » .

٣ ـ الدلالة على موقف انفعالي كأن نقول : « العناكب حيوانات حيوانات لها جراب تحمل صغارها فيه » .

٥ ـ الاستفهام عن كيفية استخدام كلمة معينة ، كأن نسأل : « ما هي الدابة ذات الحافر ؟ » .

٦ ـ الطلب الى احدهم القيام بعمل ما ، كأن نقول : « أرجوك ، ناولني الحليب » .

هذه الطرق هي على ما يظن أهم الطرق التي تستعمل فيها اللغة ، ولكن ثمة طرقا عديدة أخرى ، منها على سبيل المثال :

٧ ـ نظم الشعر .

٨ ـ القاء النكتة .

٩ ـ المخاصمة .

١٠ ـ فض الخصومة والشجار .

١١ ـ الاعراب عن التحية والسلام .

هذه الطرق جميعها هي التي عبر عنها العالم اللغوي « فتجنشتاين » (١) "Wittgenstein" باسم « الالعاب اللغوية » . ولعله يكون من الاوضح على الفهم تسميتها بالطرق المختلفة في الاستعمال اللغوي . فمن الاسباب التي ينشأ عنها التفكير الأعوج او المخاطبة العوجاء ، الخلط بين هذه الطرق المختلفة في استعمال

---

١ ـ فتجنشتاين (١٨٨٩ ـ ١٩٥١) ولد في النمسا وعاش في انجلترا ، وقد كان رائدا في الفلسفة اللغوية . (ص . ح)

اللغة . ومن ذلك نوع من الخلط معقد الى حد ما ، سنبحث فيه في الفصل الخامس ، وهو الذي يخلط فيه المتكلم بين الطريقة الاولى والطريقة الرابعة في استخدام اللغة أي بين التعبير عن امر واقع والتعبير عن كيفية استعمال الكلمات .

ومن انواع الخلط هذا نوع بسيط واسع الشيوع جدا ، هو الخلط بين الطريقة الاولى والطريقة الثالثة في استعمال اللغة ، اي بين التعبير عن أمر واقع والدلالة على موقف انفعالي . فاذا قال احدهم : « دغيم كلب » فانه بذلك لم يقل شيئا سوى أنه عبر عن امر واقع ، وهو بهذا قد استعمل الطريقة الاولى من بين الطرق التي ذكرناها آنفا في الاستعمال اللغوي ..

ولنفرض ان أحد أجداد الكلب (دغيم) هذا كان كلبا من كلاب الغنم وأن اخر من الاجداد كان كلب صيد صغيرا زغاريا ايرلنديا ، وان ثالثا كان كلبا لصيد الثعالب وأن جدا رابعا كان كلبا درواسيا . ان هذه الوقائع يمكن الاعراب عنها بقولنا عن الكلب (دغيم) أنه كلب مولد أو من نسل مختلط . عندئذ يظل كلامنا ملتزما الطريقة الاولى وهي طريقة التعبير عن أمر واقع . ولكن لو فرضنا أن أحدا وصف الكلب (دغيما) بأنه « نغل » فان الامر يزداد تعقيدا . فهنا كلمة تعني المعنى نفسه الذي تعنيه عبارة « كلب من نسل مختلط » ، ولكنها في الوقت نفسه قد بعثت في نفس السامعين لها شعورا بالاستنكار والنفور نحو الكلب الذي استعملت بحقه هذه الكلمة . فهي تجمع بين الطريقة الاولى والطريقة الثالثة في الاستعمال اللغوي في القائمة سابقة الذكر . فاستعمال هذه الكلمة يتعدى الوصف الواقعي المجرد لان موقف الاشمئزاز والنفور الذي توحي به الكلمة يتعلق بالمتكلمين في حكمهم على الموضوع ولا يتعلق بالكلب الذي هو مدار الكلام . وهكذا فان الكلب مختلط النسب قد يكون في راي صاحبه كلبا « كريم المحتد ومختلط النسب » ، ولكنه في راي جاره « نغل » .

وشبيه بذلك أن الشخص ذا الجلد الاسود قد يشار اليه واقعيا بقولنا عنه أنه « رجل اسود » او قد يشار اليه على وجه الاحتقار والاستهجان الانفعالي بقولنا انه « زنجي » او « عبد » . وهناك كلمات أخرى تعبر عن احتقار افراد اجناس اخرى ، مثل كلمة « خوزي » أو « دخيل » أو « لقيط » ولا يمكن تقبل استخدام هذه الكلمات في اي حديث معقول .

فمتى أدركنا هذا الفرق القائم بين استعمال الكلمات استعمالا واقعيا واستعمالها استعمالا انفعاليا لاحظنا ان الكلمات ، التي تنطوي على ايحاء شديد نوعا ما بوجود مواقف انفعالية ، شائعة جدا ، وهي تستعمل في مناقشة مشكلات متنازع عليها كمشكلات السياسة والاخلاق والدين . وهذا الوضع هو سبب من الاسباب التي تجعل الناس ، مهما طال جدالهم ومباحثاتهم حول هذه المشكلات ، لا يقتربون كثيرا من الوصول الى حلول معقولة لها .

ومن الاقوال المعروفة كثيرا بين الناس قولهم بأن كلمة « ثابت » يمكن تقليبها أو تصريفها على الوجه التالي : أنا ثابت (على رأيي) ، أنت عنيد في ثباتك على قولك ، هو كالتيس في عناده في رأيه . وهذا مثال بسيط على المعنى الذي قصدنا اليه . فهذه التعبيرات الثلاثة : ثابت ، عنيد ، عنيد كالتيس ، لها معنى واقعي واحد هو تمسك المرء بمسلكه وامتناعه عن التأثر بآراء الاخرين . ولكن هذه التعبيرات لها معان انفعالية . فلفظ « ثابت » له معناه الانفعالي الذي يوحي بالاستحسان الشديد ، ولفظ «عنيد» معناه شيء من الاستهجان ، ولفظ « عنيد كالتيس » معناه الاستهجان الشديد (١) . فاذا أردنا أن نجد معنى يكون محايدا

---

١ ـ ولكن علي بن الجهم رأى في ذلك خصلة تمتدح حيث يقول :

انت كالكلب في حفاظك للود   وكالتيس في قراع الخطوب

(ص.ح)

من الوجهة الانفعالية ويؤدي المعنى ذاتـه من غـير أعراب عـن الاستحسان او الاستهجان كان من الجائز ان نقول « فلان ليس بالسهل التأثير فيه » .

ويمكن التعبير عن ذلك على نحو اخر . فعبارة « انا ثابت » تعادل قولنا : « انا ليس بالسهل التأثير علي وهذا شيء مستحب » . وعبارة « انت عنيد » هي مثل قولنا : « انت ليس بالسهل التأثير عليك وهذا شيء مكروه الى حد ما » . اما عبارة : « هـو عنيد كالتيس » فمعناه هو « ليس بالسهل التأثير عليه وهذا شيء مكروه جدا » . ونحن في محادثاتنا العادية لا نصرح بأن الشيء الذي يدور الكلام عنه هو في رأينا شيء حسن او رديء ، بل نلجأ للاعراب عن راي من هذا النوع الى استعمال تعبيرات الوجه أو الايماءات أو نبرة الصوت . اما في الكتابة فلا يكون لدينا شيء من وسائط التعبير الانفعالي هذه ، ومع ذلك نصل الى ذلك مع تجنب استخـدام تعبيرات مثل هذا حسن وهذا رديء ، عن طريق اختيار كلمات تنطوي في معانيها على حكم بالاستحسان او الاستهجان ، مثل كلمة « ثابت » وكلمة « عنيد » وهكذا .

وهذه الكلمات مفيدة ولا شك ، ولكنها مصدر خطر يتعرض له التفكير المعقول ومن ذلك مثلا اننا في أيام الحرب يكون تفكيرنا تحت سيطرة اتجاهاتنا الانفعالية ، من استحسان تجاه قواتنا المحاربة وتجاه اهدافنا من الحرب ، واستنكار تجاه قوات العدو واهدافه من الحرب . وعندئذ نكون اميل الى استعمال اللغة الانفعالية . فقد تتكلم عن « الروح الطيبة » لدى جنودنا ، ولكن نتكلم عن « العقلية » الخاصة بجنود العدو ، أو عن « بطولـة » جنودنا ولكن عن « تهور » جنود العدو . ولكن متى حل السلام وعدنا بالذاكرة الى الوقائع ونظرنا اليها نظرة مجردة من الهوى فلا بد لنا من أن ندرك ان كلمة « الروح » وكلمة « العقلية » لهما معنى واحد في واقع الامر ، غير ان كلمة « الروح » يرافقها معنى

انفعالي من الاستحسان في حين أن كلمة « العقلية » يرافقها معنى انفعالي من الاستنكار . ثم اننا ندرك كذلك أن الجندي الذي يتقدم في الحرب تحت وابل من نيران القنابل وخطر الموت المحتمل يقوم بعمل واحد سواء كان هو احد جنودنا أو أحد جنود العدو ، وأن محاولة التمييز بينهما باستعمال كلمة « التهور » للتعبير عن عمل العدو وكلمة « البطولة » للتعبير عن عمل جنودنا هي محاولة فيها تزييف للواقع عن طريق استخدام كلمتين للتمييز بطريقة انفعالية بين عملين هما في الواقع متطابقان .

وهذا النوع من التفكير في أيام الحروب يؤدي الى كثير من الضرر لانه قد يسوق الناس الرحماء الى أن يغضوا النظر عن أعمال القسوة ويتسامحوا بها . واذكر عن الشاعر الانكليزي سوينبرن Swinburne (١٨٣٧ ــ ١٩٠٩) الذي كان في الاحوال العادية من المتحررين فكريا ، انه نظم قصيدة في اثناء حرب « البوير » (١٨٩٩ ــ ١٩٠٢) في جنوب افريقيا عن ضابط عسكري بريطاني مات في هذه الحرب وكان قد لامه اللائمون على الاحوال السيئة للمعسكرات التي كانت تعتقل فيها نساء « البوير » واطفالهم ، قال فيها :

ولا نبالي أكثر مما هو يبالي بما يجرؤ الكذابون على قوله
عن تجاهل أقدس واجبات الرحمة
تجاه الجراء وامهاتها
من اعدائنا المطبوعين على القتل وسفك الدماء
والذين مع ذلك لم يحافظ عليهم احد غيرنا ولم يخف عليهم سوانا
من أن يهلكوا جوعا وذبحا .

فكلمة الجراء (وهي جمع جرو للكلب والوحش) وكلمة (امهاتها) تعنيان بوضوح (الاولاد) و (الزوجات) ولكن استعمالهما

اضاف الى كل منهما معنى مستمدا من الموقف الانفعالي الذي نقفه من اناث الوحوش وجرائها . وعبارة « المطبوعين على القتل وسفك الدماء » لا تعني في الواقع اكثر من ان اعدائنا كانوا يقتلوننا اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا (كما كنا نحن نقتلهم كلما استطعنا) . مع اضافة معنى انفعالي هو اتخاذ موقف ازاءهم مماثل للموقف الذي نتخذه عادة ضد من يقترفون جريمة القتل .

وبالطبع لم يكن الشاعر سوينبرن Swinburne قد تولى بنفسه امر معسكر لسجن نساء البوير واولادهم . ولو انه تولى هذه المهمة لابدى ولا شك مرحمة في ادارته للمعسكر ولما دار في خلده أن يرى في نزلائه جراء ولا امهاتها . ولعل الذين يستعملون اللغة هم اقل احساسا بالمسئولية المترتبة على كيفية استعمالهم للغة من الاشخاص الاخرين الذين توكل اليهم مهمة اتخاذ القرارات في تدبير الامور . ومع ذلك فان الخطر في استعمال هذا النوع من اللغة في الاتصال الفكري يكمن في انه قد يصبح مع الوقت جزءا من تفكير أولئك الذين تؤثر قراراتهم في حياة الناس الذين تتحدث عنهم هذه اللغة او في أمور معاشهم . ومن ذلك مثلا ان ضابطا في جيش الولايات المتحدة اتهم باطلاق الرصاص على النساء والاولاد وقتلهم في حرب فيتنام قال مدافعا عن عمله هذا ومبررا له . . « ولكن هؤلاء كانوا اعداء ولم يكونوا ناسا » .

وقد اشار لورينتس (١) Lorenz الى ان العدوان عند الذئاب مثلا لا يدوم بقدر ما يدوم العدوان عند الانسان . فالذئاب

---

١ ـ لورينتس (ولد في فينا عام ١٩٠٣) عالم حيوان نمساوي ومؤسس علم سلوك الحيوان ، له كتب كثيرة منها كتاب « خاتم الملك سليمان » وكتاب « في العدوان » وقد تقاسم في عام ١٩٧٣ جائزة نوبل في الفسيولوجيا أو الطب مع كارل فون فريش ونيقولاس ينبيرجن الذين اشتهرا بدراسة سلوك الحيوان . (ص.ح.)

تتقاتل بكل شراسة ، ولكن اذا تقاتل ذئبان ورأى أحدهما انـه مغلوب ولا محالة فانه يقوم في الحال باجراء حركات استرضائية وينتهي القتال . وليس من العادة أن يستمر القتال حتى الموت ولا ان يعدو الذئب المظفر على انثى الذئب المغلوب وجرائه . ولعل السبب في ذلك ان الذئب انما يقاتل فحسب ، ولا يتحدث عن قتاله فيما بعد للذئاب الاخرى ولا لنفسه ، وليس لديه لغـة مشحونة بالانفعالات يستطيع بواسطتها ان يبقي دوافعه العدوانية ناشطة فعالة حتى بعد ان يكـون السبب المـباشر للعدوان قـد انقضى .

ونستطيع ان نضرب مثلا لاستعمال اللغة في اثارة الدوافع العدوانية من خبر نشر في أوائل شهر حزيران (يونيو) سـنة ١٩٧١ عن حادثة جرت في فيتنام وقتل فيها بحسب ذلك الخبر اربع وعشرون نسمة من نساء وأولاد برصاص جنود الجيـش الامريكي . ففي أثناء ما كان احد الفنيين يحاول ابلاغ رؤسـائه بالحادث ، قيل له : « الاجنبي اجنبـي ، فاذا كان له عينـان خزراوان ، فاقتل ابن الحرام هذا ! » (والعين الخزراء تكون للصيني ولسكان اسيا الشرقية الجنوبية ومنهم الفيتناميون) . مثل هذه اللغة لا يستعملها ذئب ولا يستعملها الا الانسان . وهي ولا شك تشوه تفكيرنا عن العدو ، وقد يؤدي ذلك الى انحرافات خطيرة في السلوك . وكيف نستطيع ان نتفادى اعمـال الوحشية والفظاعة اذا كان الجنود قد دفعوا الى ان يفكروا على هـذا النحو ؟ ، لعل في الامكان عمل شيء لاقناع الجنود والمدنيين على السواء بأن يقلعوا عن التفكير بهذه الصورة .

ان أخبار الحروب والثورات مصادر غزيرة لدراسة سوء استعمال الكلمات ذات المعاني الانفعالية ، وهذا لا يجعلنا نستغرب

اذا قرأنا كتابا عن الكوميون الفرنسي (١) وفيه أن عدداً كبيرا من الجنود النظاميين قتلوا غيلة في قتـال الشوارع على يـد ثوار « الكوميون » على حين أن عدداً أكبر من هؤلاء الثوار أعدموا دون محاكمة على يد الجنود النظاميين . فاذا أردنا هنا أن نرد الامور الى تعبير عن الواقع الموضوعي وجب أن نضع كلمة (قتلوا) فقط مكان كلا العبارتين : (قتلوا غيلة) و (أعدموا دون محاكمة) .

وشبيه بذلك أن معظم صحفنا كانت في أثنـاء القتال بـين الشيوعيين الحمر والقوات البيضـاء في روسيا بعد الانقـلاب البلشفي تتعاطـف مع اعـداء البلشفية وتذكـر أخبـارا عـن « الفظائع » التي كان يرتكبها البلشفيون في مقابل أخبارها عن « الشدة الحكيمة » التي كانت تصدر عن قادة الجيوش البيضاء . وقد اظهرت التحريات والفحوص التي اجريت على تفاصيل هذه الاخبار (وهذا لا يتيسر عادة الا بعد مضي زمن طويل) أن الحقائق الموضوعية المتعلقة « بالفظائع » و « بالشدة الحكيمة » شيء واحد لا يختلف في الحالتين ، وان هذه الحقائق ليست من نوع الحقائق الموضوعية التي تثير شعورا بالرضا والاستحسان عند شخص مطبوع على الرحمة .

ونستطيع أن نلاحظ اختيارا مماثلا للكلمات في المناقشات السياسية . فاذا القى خطيب من حزبنا خطابا فصيحا متدفقا قلنا عنه انه خطاب بليغ ، أما اذا خطب خطيب من الحزب المناوىء بنفس الطريقة فانا نقول انه متفيهق ــ وهنا أيضا كلمات لها معنى موضوعي واحد ولكنهما استعملتا في معنين انفعاليين متضادين ، احـدهما يـدل علـى الاستحسان والثاني يدل عـلى الاستنكار والاستهجان . ونحن نصف اقتراحات حزب المعارضة ، وان كانت

---

١ ــ الكوميون نظام ثوري قام في باريس من اذار (مارس) الى أيار (مايو) عام ١٨٧١ . (ص.ج.)

عملية ، بأنها « شفاء من كل داء ـ في لغة المشعوذين من الاطباء » ، وهي عبارة ممعنة في معناها الانفعالي ، وتثير فينا انفعالات استهجان قوية كتلك التي نشعر بها نحو الادوية التي يصفها المشعوذون ويفرطون في ادعائهم بفوائدها الطبية . كما ان المتحدث يصف أولئك الذين يبدون تحمسا في تأييدهم لبعض الاقتراحات التي لا يقرها بأنهم « متطرفون » ، ولو أن اناسا من جماعته ابدوا من التحمس والاهتمام ما ابداه الاخرون لكانوا في رايه « اشداء في الحق » . وعلى هذا فان السياسي الذي يرغب في مهاجمة اقتراح جديد ، لا يعدم أن يجد في متناول يده حصيلة من هذه الكلمات وأمثالها ذوات المعاني الانفعالية . فهو يتحدث عن : « هذا العلاج المقترح الشافي لكل داء الذي ليس له سند الا تشدق المتطرفين » ، وبهذا يلقى الاقتراح انكارا في الحال في اذهان أغلبية الناس الذين يروق لهم أن يروا في انفسهم أناسا معتدلين يستريبون بالعلاجات التي يدعى انها شفاء من كل داء ، ولا تؤثر في نفوسهم البلاغة الجوفاء . كما نلاحظ أن الاقتراح قد استهجن دون بذل اي مجهود فكري حقيقي ، اذ لا توجد أية حجة موضوعية بالمعنى الصحيح . وكل ما هنالك هو التلاعب بألفاظ تثير الانفعالات .

وليس ميدان السياسة والحروب هو الميدان الوحيد الذي تستخدم فيه مثل هذه الكلمات بقصد التاثير في الآراء بصورة اسهل مما يحدث في حالة استعمال الكلمات المحتوية على تفكير حقيقي . فالتفكير في القضايا الدينية مثلا يتعقد ويصبح عسيرا في كثير من الاحيان بسبب الحاح المتجادلين في الدين على استعمال كلمات مصبوغة بالانفعالات . وهكذا يقال عن شخص يتمسك تمسكا شديدا بمجموعة محددة من المعتقدات الدينية بانه « متعصب أعمى » اذا لم يكن المرء يوافق على موقفه ، اما اذا كان يوافق عليه فانه يسميه « مؤمنا » . ومن العبارات في هذا الباب قولهم عن فلان من الناس انه « شديد التمسك بدين آبائه » او قولهم عنه

انه « مكبل باكبال عقيدة عفى عليها الزمان » ، وهما عبارتان قد يكون لهما معنى واحد في حقيقة الامر ولكن لهما معان انفعالية متعارضة . والصبغة الانفعالية التي تحملها هذه العبارات تشوش التفكير عن طريق صرف الانتباه عن محور الامر وهو أن الاساس في تمسكنا أو عدم تمسكنا بجملة من المعتقدات هو كون هذه المعتقدات صحيحة أم لا . فايمان الناس بجملة من المعتقدات في الزمن الماضي لا يعد سببا كافيا يوجب التمسك بها . وهو سبب اوهى اذا اتخذ حجة لرفض هذه المعتقدات .

وفي مجال نقد الافلام السينمائية والكتب قد نجد أيضا امثلة لتشويه التفكير الدقيق المحدد باستعمال لغة انفعالية . واذكر ان امرأة قبل عدة سنين كتبت رواية قصصية تحت عنوان « بئر العزلة The Well of Loneliness » وكان موضوع الرواية عن المساحقة بين النساء . وهو موضوع لم يكن من السهل الكلام عنه عندئذ دون حرج . فلما صدرت الرواية تصدى لمهاجمتها مهاجمة عنيفة احد المعلقين في مقالة نشرتها احدى الجرائد قال فيها « أن الدعوى الخبيثة التي يدعو فيها الكتاب الى الاعتراف بافساد العلاقة الجنسية الطبيعية والتواطؤ على هذا الافساد والحجج التي تبنى عليها هذه الدعوى ، لهي مما يزعزع الدعامة الكبرى للسلوك » . وهذه الفقرة تبعث في النفس موجة قوية من انفعالات الكراهية فتجعل الكثيرين يندون بالرواية فورا دون أن يتحققوا من الامر . ومع ذلك فان الاثر الذي حدث في النفوس قد تم التوصل اليه بمجرد استعمال كلمات اختيرت لانها ذوات صبغة انفعالية ، ونظرا الى أن الموضوع من النوع الذي يبعث في النفوس انفعالات شديدة ، فقد كان هذا أدعى الى النظر فيه بمزيد من التجرد عن الهوى والغرض . على اننا نلاحظ في مقالة الكاتب ان كلمة « دعوى » لها معنى بسيط وهو « حجة » ومعنى اضافي انفعالي اخر يوحي بالنفور والاشمئزاز من الحجة المستعملة ، وان كلمة « التواطؤ » لها معنى « التسامح » مضافا اليه معنى انفعالي اخر

يوحي بأن احتمال هذا التسامح امر مرذول ، وان استعمال كلمة « الجنسية » يعني شيئا في حياة الحب لا نوافق عليه عادة ، وان كلمة « افساد » تعني الشذوذ ، بالاضافة الى انها توحي بالاشمئزاز .. اما زعزعة « الدعامة الكبرى » فالعبارة فيهما مجازية تنطوي على احداث تغيير وتوحي الى كل انسان بالخوف ، في حين ان كلمة « السلوك » لا تعني الا السلوك الذي نوافق عليه .

وعلى هذا فاننا اذا حولنا تلك الفقرة الى صيغة من الحقائق الموضوعية (مع اغفال الصعوبات الخصوصية التي تثيرها كلمة « خبيثة » مؤقتا) فان الفقرة تصبح كما يلي : « ان الحجة التي يدلي بها الكتاب من اجل الاعترافات بالاعمال غير المعهودة والتسامح بها في حياة الحب ، والاسس التي تبنى عليها هذه الحجة من شانها ان تحدث تبديلا في مبادىء السلوك » . وهذا قول مهم جدا لو كان صحيحا غير انه لا يكفي بنفسه للتنديد بذلك الكتاب ، لان الذي لا شك فيه ان مبادىء السلوك عندنا في حاجة الى ان تتبدل من وقت لآخر . وليس في الامكان ان نقرر بذكاء ان كانت مباديء السلوك عندنا في حاجة الى تبديل ام لا في سياق هذه القضية المعينة التي نحن بصددها الا بعد ان نكون قد امعنا النظر بطريقة موضوعية في حقيقة التغييرات المعروضة علينا وفي الاسباب التي قدمت للدفاع عن ضرورة هذا التغيير . اما بحث الموضوع باستخدام كلمات مشحونة بالانفعالات فلا بد ان يؤدي في هذه الحالة وجميع الحالات الاخرى الى طمس معالم المشكلة بحيث يصبح من العسير او من المحال الوصول الى قرار معقول بشانها .

على ان كلمة « خبيثة » لها صعوبات خاصة بها . صحيح ان هذه الكلمة لها معنى انفعالي يدل على الاستهجان الشديد ، ولكننا في هذه الحالة لا نستطيع ان نؤدي عملية الاستعاضة عنها بكلمة محايدة من الوجهة الانفعالية لها نفس المعنى ، لان مثل هذه الكلمة غير موجودة في اللغة. فلو اردنا ان نعبر عن المعنى نفسه فباستطاعتنا

مثلا أن نقول عن الكتاب انه « رديء » أو « فاسد » أو « منكر » ولكن مهما كانت الكلمة التي نختارها فسيكون لها حتمـا نفس المعنى الانفعالي الاستهجاني . فهل يعني ذلك أن أمثال هذه الكلمات ليس لها محل في عمليات التفكير الدقيق لانها لا تعبر عن أمر واقع وانما تستعمل لاثارة الانفعال فحسب ؟ .

هذه مشكلة كانت ولا تزال تثير قدرا كبيرا من الجدال . فقد ارتأى عدد من الفلاسفة أن الكلمات التي من امثال « خبيث » و « رديء » و « جيد » و « جميل » و « بشع » لا تدل الا على رد الفعل الانفعالي عند المتكلم ازاء أعمال أو أشياء معينة ، وليست تعبيرا عن صفات أو خواص لتلك الاعمال أو الاشياء نفسها . ولكننا اذا شاهدنا رجلا يقوم بعمل خسيس أو أناني وقلنا عن هذا العمل انه « رديء » فاننا ولا شك نقصد ان نقول شيئا عن العمل نفسه لا أن نعبر فقط عن احساسنا وشعورنا نحوه . والدليل على ذلك اننا عندما نقول « أعتقد أن الشتم شيء رديء ، وان كنت أنا شخصيا لا أعترض عليه » ، فان هذا القول له معنى شأنه تماما شأن قولنا « تلك الصورة جميلة ولا شك ولو اني في الواقع لا احبها » وهكذا لا يبدو أن هناك أساسا كافيا للراي القائل اننا حين نصف كتابنا بأنه « خبيث » فاننا لا نقول شيئا ذا معنى عن الكتاب ذاته ، بل نتحدث عن مشاعرنا الخاصة فحسب .

ومع ذلك فاننا اذا اتفقنا على ان القول بأن الكتاب « خبيث » هو قول له معنى لا يقتصر على المعنى الانفعالي ، فيجب أن نتفق ايضا على ان معنى هذا القول ليس من المعنى البسيط الذي يكون في الكلام عن شيء خارجي واقعي كأن نقول مثلا « هذا كتـاب » . فكون الكتاب رديئا او جيدا مسالة حقيقية ولكن البت في هذه المسألة شيء عسير بصورة خاصة ، لاننا اذا حكمنا على الكتاب باحـد الوجهين فان هذا الحكم لا يكـون الا صـورة منعكسـة عـن أهوائنـا نحـن ، ولـذا فانـه يفتقـر الى الدقة العلمية .

ثم ان هـذه الكلمـات تشير في الوقـت نفسـه في النفـس انفعالات شـديـدة ، فيجـب أن لا تستعمل الا نـادرا في اي نقـاش سـليم . ذلك لان استعمال كلمـات تنطـوي على احكام خلقية في اثناء المحاجة انما هو عادة محاولة لتشويه رؤية السامعين للحقيقة عن طريق اثارة الانفعالات .

فاذا كنا نحاول تقرير امر واقع بسيط فيجب ان تحذف هذه الكلمات لانه يكون من الاسهل تقرير امر واحد في المرة الواحدة. مثال ذلك أنه لو اتهم رجل بأنم سم امراته ، فانه لا يجوز لمدعي النيابة أن يقول عنه في المحكمة « هذا الوغد الذي طارد امراته حتى اوردها القبر » . فالمسألة التي يراد بتها في المحكمة مسألة واقعية هي : هل الرجل سم امرأته بالفعل أم لا. فان كان قد سمها فعلا فهو ولا شك « وغد » ولكن القول عنه بأنه وغد لا يساعد على البت في هذه المسالة الواقعية ، بل أنه على العكس من ذلك يزيد في صعوبة التوصل الى قرار صحيح وذلك باثارة انفعالات الكراهية ضد المتهم في نفوس المحلفين . وثمة اعتراض اخر على استعمال كلمة « وغد » قبل صدور الحكم عليه استعمالا يدرجها ضمن فئة التفكيرالاعوج ، وهو انه « يصادر على المطلوب » أو « يفترض صحة الامر الذي يراد اثباته » . فالرجل لا يكون وغدا الا اذا اتضح انه مذنب ، ومع ذلك فقد استعملت الكلمة في اثناء جدال هدفه اثبات انه مذنب .

هذان الاعتراضان يمكن ابداؤهما ضد كلمة (خبيثة) في قضية ادانة الكتاب الذي أشرنا اليه آنفا . فالكلمة تبعث في النفس انفعالات قوية تجعل من العسير اتخاذ قرار عادل بشأن طابع الكتاب وهي تفترض نفس ما تحاول المقالة أثباته ، وهو أن الكتاب كتاب رديء .

ومع ذلك كله فان استعمال الكلمات ذوات الصبغة الانفعالية ليس بطبيعة الحال مما يجب استنكاره دائما . فاستعمالها يكـون ضارا دائما اذا كان الحال يقتضي ابلاغ معلومات واقعية أو تمكين

الناس من التفكير في الامر تفكيرا واضحا حتى يتسنى لهم ابداء الراي في موضوع واقعي متنازع عليه . ولكن استعمال الكلمات الانفعالية في الشعر (كما دلل على ذلك تشارلتن Charlton في كتابه The Art of Literary Study « فن دراسة الادب ») يكون في مكانه الصحيح لان اثارة الانفعالات المختلفة تؤلف في الشعر (وفي بعض انواع النثر) جزءا مهما من المقاصد التي تستعمل هذه الكلمات من اجلها .

ففي قصيدة The Eve of St. Agnes (١) للشاعر الانجليزي كيتس Keats هذه الابيات :

« واشرق البدر كاملا في ليلة من ليالي الشتاء على هذه النافذة فألقى شقرة مدماة ملتهبة على نحر (مادلين) الوضاء » .

هذه ابيات جميلة . ولننظر الان لنرى مبلغ الجمال المتاتي عن اختيار الكلمات ذوات الصبغة الانفعالية اختيارا صحيحا ومبلغ الجمال الذي يزول لو استعضنا عن هذه الكلمات بكلمات اخرى محايدة . فالكلمات هنا التي تجلب الانتباه من حيث انها كلمات انفعالية هي النافذة والحمرة ، مادلين الوضاء ، والنحر ، فكلمة نافذة Casement تعني ببساطة نوعا من انواع الشبابيك ولكن مع ايحاءات وجدانية . وكلمة شقرة مدماة تعني اللون الاحمر في اصطلاح الفروسية وتوحي بكل المعاني الرومانسية المرتبطة بالفروسية ، و (مادلين) اسم لفتاة ، ولكنه يثير في النفس انفعالات لا يثيرها اسم عادي اخر لفتاة . وكلمة (وضاءة) لا تعني فقط ان بشرتها بيضاء صافية اللون — وهو شرط ضروري لكي تظهر الوان النافذة —

---

١ — هذه قصيدة نظمها الشاعر الانجليزي جون كيتس (١٧٩٥ — ١٨٢١) في عام ١٨١٨ وفيها ياتي حبيب مادلين في الليل (في مساء عيد القديس اجنيس في ٢٠ يناير (كانون ثاني) عندما يتاح للصبايا — كما تقول الاسطورة — ان يلمحن ازواجهن المنتظرين . وما ان يلتقي العاشقان حتى يفترقا في دنيا الحب السرمدية . (ص.ح.)

ولكنها تنطوي أيضا على تفضيل انفعالي واضح للبشرة النقية البضة على البشرة الصفراء أو الارجوانية أو السوداء أو اي لون يكون عادة للبشرة . وكلمة (نحر) لها مثل هذا المعنى الانفعالي ؛ ولو أردنا أن تقدم وصفا علميا مجردا لكانت كلمة محايدة مثل « الصدر » كافيـة .

ولنحاول الان أن نصوغ هذين البيتين بالاستعاضة عن جميع الكلمات ذوات الصبغة الانفعالية بكلمات محايـدة من الناحيـة الانفعالية بقدر الامكان ولكنها تعطي المعنى الواقعي نفسه . فيمكن مثلا أن نقول على هذه الصورة .

« وطلع القمر في تمامه في احدى ليالي الشتاء على هذا الشباك فأحدث علامات حمراء على صدر « مادلين » الصافي » .

ولا ينكر أحد عند قراءة هذه الصيغة ، أن القيمة الشعرية قد ضاعت بسبب التبديلات في الكلمات ، ولو أن الصيغة ظلت تحتفظ بنفس معناها الواقعي ، لان المعنى الانفعالي هو الذي أزيل من العبارة فحسب .

ولو أن الشاعر (كيتس) كان يكتب وصفا علميا في كتـاب مدرسي عن علم الطبيعة وليس قصيدة لكان من الضروري له ان يستعمل كلمات موضوعية لا تثير النفس كتلك التـي وردت في الصيغة الثانية لابياته . وفي هذه الحالة تؤدي العبارات ذات المضمون الانفعالي ، امثال « شقرة مدمـاة ملتهبة » و « النحـر الوضاء » الى طمس الحقائق التي يصفها العالم وصفا دقيقا محددا وان كان خاليا من الجمال ، في قوله مثلا عن « نقل الضوء المتجانس نقلا انتقائيا بواسطة الزجاج الملون » .

كذلك ليس من المعقول أن نستنكر جميع استعمالات الكلمات الانفعالية في المحادثات العادية اذ تكون المحادثة فاترة ان لم تتضمن ما يشير الى احساس المتكلم وشعوره تجاه الاشياء التي يتكلم

عنها . وتؤدى هذه الاشارات بطرق مختلفة : منها استعمال كلمات مشحونة بالانفعال ، ومنها تغيير نبرة الصوت . وما من احد يريد أن تخلو المحادثة من هذا العامل وان كان لنا ان نشك في فائدة هذا العامل في المناقشات العامة .

بل ان للخطابة الانفعالية . بغير شك ، مكانها . على أنني أود القول بأن هذا المكان ليس حيثما توجد في معظم الاحيان ، كأسلوب للاقناع اذا كان الموضوع يتطلب قرارا فيه مسئولية . على أن الخطابة قد تكون من جهة اخرى حافزا له قيمته الهائلة حينما تكون الغاية اقناع الناس بأن يقوموا بعمل ما قد اتفقوا فيما بينهم على أنه حق أو ضروري على الاقل . وعلى هذا يمكن تبرير الخطب الانفعالية التي كان يلقيها ونستن تشرشل Winston Churchill في اثناء الحرب العالمية الثانية . ففي ذلك الحين كان الموقف يتطلب من الشعب ان يصبر على الصعاب وان يضطلع بأعمال ضرورية لبقائه . ولكن مثل هذه الخطب لا تكون لها نفس الفائدة في ايام السلم حينما يكون المطلوب اتخاذ الناس لقرارات وأحكام تتصف بالمسئولية بشأن ما ينبغي عمله . فالتفكير وابداء الرأي بطريقة انفعالية في امور عملية ـ كموضوع الضرائب ، والملكية الفردية او العامة ومظاهر التوتر بين الامم المختلفة او المذاهب الدينية ، ومشكلات الوافدين ، والاجهاض ـ هما امران لا يقلان غرابة ونشوزا عن وضع معادلة كيميائية ضمن قصيدة شعرية . والديمقراطية ، اذا اريد لها أن تكون فعالة ، تتطلب أن توزن الامور فيها وزنا هادئا من أجل التوصل الى القرارات الضرورية ، ولكن هذا الوزن الهادىء للامور يحول دونه استعمال الخطب الانفعالية في عرض الحقائق . فاذا ما تم اتخاذ القرار أعقبه التنفيذ ومرحلة التنفيذ تتسع لجميع الانفعالات التي تمتنع الديمقراطية المثلى عن الالتجاء اليها في المرحلة الاولى من عملية اتخاذ القرار .

ان الغرض النفساني من الانفعال (كالغضب والخوف والاحسان وغيرها) هو حمل الناس على العمل بصورة فعالة ومجدية . وقد يكدر الانفعال صفاء التفكير ولكنه يحفز الى العمل . والشيء الامثل هو التفكير بهدوء مع العمل بفعالية . فلنفكر بهدوء واعتبار للواقع في أمور مثل الفقر واضطهاد الاقليات وفقدان الحرية والحرب ونمو السكان غير المقيد وتلويث البيئة . فاذا قررنا بهدوء وتعقل أن هذه الامور شرور فادحة يمكن التغلب عليها بجهودنا ، جاز لنا أن نسخر لذلك بشكل مفيد كل ما لدينا من عواطف وانفعالات ، بهدف التغلب على هذه الشرور جميعها .

والواقع أن نمو التفكير الدقيق المحدد للعلم الحديث انما تحقق بقدر كبير جدا ، عن طريق التخلص من جميع العبارات التي تنقل المواقف الانفعالية ، وعن طريق التقيد باستعمال العبارات التي تدل بطريقة غير انفعالية على حقائق موضوعية . ولم يكن الامر كذلك دوما . فقد كان أصحاب الكيمياء السحرية « السيمياء » يقولون عن الذهب والفضة بأنهما من المعادن « الشريفة » ويعتقدون أن هذه الكلمة ذات الصبغة الانفعالية تدل على صفة كامنة في المعادن نفسها يمكن منها استنتاج خواص معينة عنها . وكانوا يصفون المعادن الاخرى بأنها « خسيسة » . ومع أن هذه الكلمات بقيت موجودة الى الان واستعملت لتمييز بعض العناصر في الكيمياء الحديثة ، فانها لا تحمل أيا من معانيها الانفعالية القديمة .

ولكن المناقشات بين عامة الناس لا تزال تحتوي على مثل هذه الكلمات ، وهي تستعمل بكامل معانيها الانفعالية ، ومن ذلك مثلا كلامنا عن التضاد بين « شرف » شخص معين ، وبين أصله « الوضيع » . ولهذا فان المناقشات بين عامة الناس عن الموضوعات البيولوجية تكون ، من هذه الزاوية ، مختلفة عن المناقشات التي ترد في كتاب مدرسي أو في المختبر ، حيث تخلو العبارات المستخدمة

تقريبا من المعنى الانفعالي خلو المصطلحات العلمية في الطبيعة والكيمياء منه .

فاذا تحولنا الى النظر في التفكير في المسائل السياسية والدولية نجد أننا نبعد اكثر عن التفكير العلمي المستقيم . ولنأخذ شاهدا على ذلك أمثال الكلمات التالية : تقدم ، حرية ، ديمقراطية ، فاشستي ، رجعي ، عنصري ، متحرر ، وكثير غيرها من هذه الكلمات التي تستعمل في التفكير السياسي وفي المخاطبات السياسية بطريقة فيها من المعنى الانفعالي اكثر مما فيها من المعنى الواقعي . ولكن كيف يتسنى لنا أن نفكر تفكيرا مستقيما في الشئون القومية والشئون الدولية اذا كانت الكلمات المستعملة بهذه الطريقة هي المتداولة بين السياسيين المتنافسين ؟ والواقع اننا لو فرضنا ان كيماويا اعتمد في اجراء تجربة له على هذا النوع من التفكير الذي تستعمله امة من الامم في انتخاب حكامها او في اتخاذ قرار بشأن صلح أو حرب مع الامم الاخرى لكانت النتيجة أن ينسف هذا الكيماوي مختبره . ولكن هذه المصيبة ، ضئيلة الشأن بالقياس الى ما قد يسفر عنه التفكير الانفعالي في القضايا السياسية : فنسف مائة مختبر أهون بكثير من نسف المدنية بأسرها .

ويجب ان نتطلع الى اليوم الذي يصبح فيه التفكير في الشئون السياسية والدولية خاليا تماما من الانفعالات ومصطبغا بالصبغة العلمية ، شأنه شأن البحث في خصائص الاعداد ، أو في الوزن الذري للعناصر ، ذلك لان روح البحث العلمي ، المنزهة عن الغرض في الامور الواقعية غير المتأثرة بالانفعالات التي لا داعي لها ، كان لها الفضل في احراز أشواط بعيدة من التقدم في العلوم . ولا بد أن تصبح انتصاراتها أعظم حينما تطبق في معالجة الشئون ذات الاهمية القصوى في الحياة . ففي ذلك الحين سنتمكن من مناقشة المشكلات امثال الملكية الخاصة في مقابل الملكية العامة ، والحد من

الاسلحة النووية ، ومعاهدات نزع السلاح ، وتسوية هذه المشكلات والبت فيها بمثل النجاح الذي أحرزه علماء الفيزياء في مناقشة نظرية « النسبية » لأينشتاين وتأكيدها .

ان الخطابة الانفعالية ، كما ألمحنا الى ذلك آنفا ، لها مكانها المشروع . فاذا لم يكن هناك أدنى شك فيما ينبغي علينا عمله ، فان الخطابة الانفعالية يمكن أن تستعمل حافزا يحفزنا على أداء ذلك العمل . ولكن هذه الخطابة لا محل لها اذا كانت المشكلة المطروحة امامنا هي أن نتخذ قرارا حاسما ، كما في الانتخابات السياسية . ذلك لان النظرية الديمقراطية مرتكزة على المبدأ القائل ان الناس في الانتخاب ينبغي عليهم أن يتخذوا قرارهم بعد تحكيم العقل . فلو كان المراد في وقت من الاوقات هو حفز الشعب على بذل الجهد للقيام بعمل شاق على النفس والجسم (كما في حالة الحرب أو الثورة) فان الخطابة الانفعالية تكون أداة نافعة لحملهم على القيام بذلك العمل . ولكن لما كان المطلوب من الناس في الانتخابات هو التفكير الواضح والتوصل الى قرار معقول ، فان استعمال اللغة الانفعالية عند الخطباء السياسيين يصبح امرا مستهجنا تماما لانه يزيد من صعوبة التفكير الواضح والتوصل الى قرار معقــول .

ولكن المعروف مع ذلك أن الخطباء السياسيين يحرصــون عادة على خلق الاقتناع في النفوس أكثر مما يحرصون على تشجيع التفكير الواضح ، وعلى هذا فانهم سيظلون دائبين على استعمال اللغة الانفعالية . ولا يمكن أن يوقفهم شيء عما يقوله العــالم النفساني . بيد أننا من ناحية أخرى نستطيع ان ندرب انفسنا لنصبح في مأمن من تأثير هذه اللغة وهذا لا يتأتى الا اذا صرنا على وعي بما يحدث في هذا الصدد ، وصرنا نفكر في المعاني الواقعية لما يقوله الخطيب ، بصرف النظر عن معانيه الانفعالية ، ولم نستجب له بالطريقة الانفعالية التي يريدها .

ولكي يصبح في مقدورنا عمل ذلك أرى أنه ينبغي علينا ان نحاول اجراء شيء من التطبيقات العملية في موضوع هذا الفصل من كتابنا بدلا من ان نكتفي فقط بقراءته . فلو اتفق انك تدرس علم النبات فانك لن تقتصر على قراءة كتب في علم النبات ، وانما تقوم بجمع النباتات المختلفة من اماكنها وجمع الاعشاب والحشائش من بستانك وتشرحها وتفحصها بالمجهر أو بالعدسة المكبرة وترسمها في دفترك . وكذلك علم النفس فانه يجب أن يدرس بالطرق العملية .

ومن السهل العثور على الشواهد على التفكير الانفعالي في المقالات الافتتاحية في الجرائد والصحف وفي كلمات الناس في مناقشاتهم للمشكلات السياسية والدينية والاخلاقية ، وكذلك في خطب المسئولين في المجتمع عند معالجتهم للامور المختلف عليها ، ودراسة ذلك تتطلب منا جمع النماذج لفحصها وتحليلها .

والتدريب العملي هذا الذي أوصى به هو ما قمت به أنا بنفسي الان في فحص عدد من الاقوال والعبارات التي كانت تنطمس الحقيقة فيها تحت غشاء من التفكير الانفعالي . واقترح على القراء ان يستنسخوا اقوالا وعبارات يدور الجدل والنزاع حولها من الجرائد والصحف والكتب والخطب تحتوي على كلمات ذوات صبغة انفعالية . واقترح ايضا عليهم بعد الاستنساخ أن يضعوا خطا تحت كل كلمة من هذا النوع ، وان يعيدوا صوغ الاقوال والعبارات في صيغة تخلو من هذه الكلمات الانفعالية بعد استبدالها بكلمات محايدة . ثم ينظر في القول في صيغته الجديدة الخالية من دواعي الانفعالات والتي تعرب فقط عن امور واقعية لا تلتبس بالموقف الانفعالي الذي يقفه الكاتب تجاه هذه الامور ، لمعرفة ما اذا كانت الصيغة الجديدة تنطوي على بينة جيدة لاثبات القضية التي تحاول اثباتها . فاذا كانت هذه الصيغة كذلك فعلا فهي مثال على التفكير المستقيم ، وتكون الكلمات الانفعالية المدرجة فيها ليست الا

من قبيل التنسيق فقط . أما اذا لم تكن هذه الصيغة كذلك فهي من قبيل التفكير الاعوج ، لان النتيجة المستخلصة منها ليست معتمدة على المعنى الواقعي فيها وانما على ما تثيره الكلمات من الانفعالات .

ونحن اذ نستنكر مثل هذا الاستخدام للكلمات الانفعالية في كتاباتنا وخطاباتنا يجب أن نتذكر أن هذا الاستخدام دليل على شر متأصل ــ وهو انتشار هذه الكلمات في تفكيرنا الخاص الكامن في نفوسنا . وكثير من خطبائنا السياسيين الذين لهم لون صريح في السياسة ولهم خطب تثيرنا كما يثيرنا الشعر الرومانسي يظهرون عجزا واضحا عن التفكير الرصين والموضوعي في اية قضية . فقد عود هؤلاء انفسهم على التفكير عن طريق كلمات أو عبارات ذوات صبغة انفعالية وأدمنوا على ذلك حتى انهم لا يستطيعون ، من بعد ، أن يفكروا بغير هذه الطريقة . هؤلاء كان ينبغي عليهم أن يكونوا شعراء أو خطباء محترفين ، وليس لهم حتما أن يكونوا من رجال السياسة والحكم .

ويمكننا أن نحترز اشد الاحتراز من ان تضللنا الخطابات الانفعالية وذلك بأن نتيقن من أن عقولنا في مأمن من أن تنزلق في هذه المزالق . وهذا لا يعني بالطبع أن نحرم على أنفسنا استخدام الكلمات الانفعالية أبدا في تفكيرنا وانما يعني انه ينبغي علينا ان نكون على علم باستخدامنا لهذه الكلمات متى استخدمناها وأن يكون لدينا طريقة لابطال مفعولها أو مقاومة تأثيرها وعندما يتضح لنا باننا انفسنا نفكر عن طريق العبارات الانفعالية ، يجب علينا أن نروض انفسنا على أن نقلع عن هذا التفكير وأن نضع افكارنا من جديد في قالب قوامه كلمات وعبارات محايدة من ناحية انفعالية . وبهذا يمكن أن نقي أنفسنا من أن نقع دوما في اسر العبارات والجمل الانفعالية بحيث تمنعنا هذه من أن نفكر تفكيرا موضوعيا متى أردنا ذلك ، أي متى اضطررنا الى اتخاذ قرار بشأن قضية متنازع فيها .

واقترح أيضا شيئا شبيها بذلك وهو أن الذين يرغبون في معرفة المزيد عن طبيعة التفكير الاعوج ينبغي عليهم بعد قراءة فصول هذا الكتاب التالية فصلا فصلا أن يحاولوا جمع نماذج من الحيل الموصوفة هناك من المصادر التي ذكرتها . واقترح في بعض الحالات اتباع اجراءات عملية يمكن القيام بها في هذه النماذج لتوضيح طبيعة التفكير الاعوج وحقيقته (كما في الفصل العاشر مثلا حيث اقترحت وضعا جديدا لبعض القضايا الظنية التي يجرى التفكير فيها بحسب عاداتنا التفكيرية الخاصة بنا) . وهــذه الاجراءات يجب تطبيقها على النماذج التي تم جمعها . وبهذه الطريقة يمكن التمكن بصورة اكثر اتقانا من تفهم الموضوع والتوقي بصورة افضل من أن يستغلنا فكريا الخطباء الذين لا يتورعون عن العمل على ايقاعنا ، وهذا خير من الاكتفاء بقراءة الكتب فقط .

والقصد من هذا الكتاب هو عملي قبل كل شيء وغرضه الرئيسي ليس اثارة حب الاستطلاع الفكري وانما زيادة الوعــي بعمليات التفكير الاعوج وبالمخاطبة الجائرة عن الطريق الســوي وتوفير طرق الوقاية من هذه جميعا . ولا يمكن لهذا الكتاب ان ينجح في أداء مهمته اذا هو اكتفى بالتنبيه على دراسة كتب المنطق وهداية القراء اليها . ومحك نجاح الكتاب هو أن يجعل القارىء ، أو لا يجعله اقدر على مقاومة اغراء بائع مثلا يشوقه لشراء آلة للتنظيف أو شراء موسوعة لا يريدها . وان يقلل من سهولة مهمة الخطيب السياسي الذي يحاول التاثير على اختيار هذا القارىء في الانتخابات مستعملا لغة انفعالية أو تاكيدات الواثق المطمئنة .

واهــم مــن ذلك انني آمل في أن الكتــاب لن يســهل عــلى القارىء كره عدوه ، أيا كان ، سواء كان هذا العدو الان شيوعيا أو جرمانيا أو من شرق آسيا ، كرها أعمى مع قلة التفهم التــي منشؤها الاشكال المختلفة من التفكير الاعوج في أمر هذا العدو .



الفصل الثاني

كل وبعض

قبل سنين عديدة وانا ساكن في اسكتلندة مررت في منطقة كان يراد التصويت فيها على الاستمرار في تحريم بيع الخمور محليا . ورايت في ذلك المكان اعلانا على لوحة يقول : « اذا فقدت الحرية سادت العبودية ، صوت بالالغاء » فالجزء الاول من هذا الاعلان حجة جدلية . وكثيرا ما يحدث في الواقع أن جزءا كبيرا من الحجة الجدلية يكون محذوفا ، ولكن في هذه الحالة يمكننا بسهولة أن نأتي بالجزء المفقود وتكون النتيجة حجة جدلية تبدو عند النظرة الاولى أنها صحيحة . وصيغة الحجة كاملة تكون اذا على هذه الصورة : (١) الحالة التي تفقد فيها الحرية هي حالة تسود فيها العبودية و (٢) تحريم بيع الخمر حالة تفقد فيها الحرية و (٣) لذلك فان التحريم حالة تسود فيها العبودية .

هذه الصيغة هي الصورة العامة لحجة جدلية صحيحة . والعبارتان (١) و (٢) صحيحتان كلتاهما ولذلك فان النتيجة يجب أن تكون صحيحة ، على شرط أن تكون الكلمات المتماثلة الواردة في (١) و (٢) لها معان متطابقة واحدة . وهذا الشرط ليس مستوفى في القضية التي أمامنا ، ولذلك فان النتيجة لا تقوم على برهان . ثم انه مهما كانت آراؤنا بشأن شرب الخمر ، ففي وسعنا أن ندرك أن النتيجة واقعيا ، غير صحيحة . فعدم التمكن من شراء كأس من البيرة مثلا قد يكون شيئا سيئا في ذاته ، ولكنه ليس عبودية .

والمغالطة هنا ناشئة عن حذف كلمة (كل) أو كلمة (بعض) من أمام كلمة (الحرية) . فالعبارة (١) لا تكون صحيحة أو صادقة الا اذا كانت كلمة (كل) هي الكلمة الناقصة ، كما أن العبارة (٢) لا تكون صحيحة الا اذا كانت كلمة (بعض) هي الناقصة . وتتضح المغالطة تماما عند النظر في الصيغة الموسعة للحجة الجدلية ، على حين ان هذه المغالطة كانت مستترة في الصيغة الاصلية المختصرة التي هي : « اذا فقدت الحرية سادت العبودية » . وصحيح أن يقال ان في التحريم فقدانا لشيء من الحرية ــ وهي حرية شراء المشروبات الروحية . ولكن الحجة الجدلية في صورتها الاصلية توحي بشيء ليس صادقا على الاطلاق ، وهو الادعاء بأن في تحريم شرب الخمر فقدان الحرية كلها ، وعدم صحة هذا الزعم واضح للعيان عند ذكرنا لحقيقة ثابتة وهي أن العبودية لا يمكن أن تسود الا اذا فقدت الحرية كلهـا .

وهذا يمكن التعبير عنه في صورة أعم ، وذلك بأن نقول ان من الحجج الجدلية الشائعة والمبنية على الغش ان نقول : (أ) هي (ب) مع أنه يجب أن نقول : بعض (أ) هو (ب) حتى يكون قولنا صحيحا . ولكن الحجة التي اشرنا اليها توحي ضمنا ، في بقية أجزائها ، بأن كل (أ) هو (ب) . وعالم الدعاية والماحكات الجدلية مليء بأمثال هذه العبارات . فقد كان آباؤنا يرفضون السماح للنساء بالتصويت في الانتخابات البرلمانية لان « النساء غير مؤهلات من الناحيــة السياسية » ونحن لا نشك في أن بعض النساء لسن مؤهلات لاتخاذ قرارات سياسية معقولة (كما هي الحال مع بعض الرجال) ولكن ليس كل النساء كذلك . وقد راينا كيف ان الشاعر سوينبرن اغمض العين عن الظروف السيئة التي سادت في المعسكرات التي اعتقلت فيها نساء البوير وأولادهم اثناء الحرب في جنوب افريقية بحجة أن أعداءنا كانوا (قتلة) . ولكن ما كان يحق له أن يدعي بأكثر من أن « بعض » هؤلاء الاعداء كانوا قتلة ، على حين أن دعواه التي يدعيها لا تكون معقولة الا اذا كان « الكل » قتلة . وهكذا فان مذابــح

اليهود في القرون الوسطى ومذابح النبلاء في الثورة الفرنسية واضطهاد الاقليات في بلاد مختلفة في زماننا هذا ــ كلها أمثلة تشهد بأن الناس جميعا مستعدون للعمل بمقتضى العبارة او الفرض بأن « كل المنتمين الى الفئة (س) اشرار » ، اذا كانت (س) هذه تدل على جميع أفراد أمة غير امتنا أو جنس غير جنسنا أو دين غير ديننا . ولكن الحقيقة التي يدركها المراقب المحايد هي أن بعض افراد الفئة (س) أشرار (وكذلك الحال في بعض من لا ينتمون اليها) لا غير . والحق ان اعمال القسوة والظلم التي تحدث في الوقت الحاضر والتي حدثت في جميع تاريخ العالم ما هي الا نتيجة هذا النوع من التفكير الاعوج .

وليس معنى ذلك بالطبع أن تكون جميع العبارات العامة من نوع « كل المنتمين الى الفئة س هم ص » ، غير صحيحة بالضرورة ، لان هذا القول غير معقول . والذي يعنيني هنا فقط هو أن أشير الى أن هذه العبارات غالبا ما تكون غير صحيحة وأننا قد نسهو عن ملاحظة عدم صحتها لو حذفت كلمة (كل) . وفي هذه الحالة تكون مثل هذه الاقوال في مأمن من المعارضة لانها تظهر كأنها تعني « بعض المنتمين الى الفئة س هم ص » ، على حين أنها تستخدم في الحجة كما لو كانت « كل المنتمين الى الفئة س هم ص » صحيحة .

وثمة سبب يعلل ميلنا الشديد الى استعمال كلمة (كل) صراحة أو ضمنا في جملة تكون صحيحة اذا استعملت فيها كلمة (بعض) وهو أن الجملة التي تتضمن كلمة (بعض) لا تقول الا القليل . فلنفرض اننا قلنا ، صادقين ، أن « بعض الناس من ذوي الشعر الاحمر سيئو الخلق » . ففي هذه الجملة لم نقل الا القليل وتركنا الامروكان الاحرى بهذا القليل الا يقال اطلاقا ، اذ ان من الصحيح ايضا ان بعض الناس سيئو الخلق ممن ليس لهم شعر احمر او ان بعض الناس ليسوا على وجه التحقيق سيئي الخلق ولو

ان شعرهم احمر . ولذلك فاننا لم نقل الا القليل حينما اقتصرنا على القول بأن بعض الناس ذوي الشعر الاحمر سيئو الخلق ، وما قلناه لم يكن يكفي لان يشجع رجلا ذا شعر أحمر على ان يجادل ضد القضية جدالا له جدوى .

ومن الواضح أننا في حاجة الى البحث عن طريقة نقول بها شيئا عن العلاقة بين سوء الخلق وحمرة الشعر ، بحيث يتضمن قولنا أكثر مما يتضمنه التعبير الذي يقتصر على استخدام كلمة (بعض) ، ويكون مع ذلك مخالفا للتعبير الاخر المتضمن كلمة (كل) الذي هو غير صحيح قطعا . غير أنه لو حصلنا على قول من هذا النوع بهذه الاوصاف فانه قد يكون صادقا او كاذبا . والخطوة الاولى هي أن ننظر بدقة في ما نريد أن نقوله ، وبعد هذا النظر نستطيع أن نتعرف ان كان القول صادقا أم غير صادق .

وقول من هذا النوع موجود . وهو موجود حتى في أحاديث الناس اليومية ومثاله قول القائل : اظن أن الناس ذوي الشعر الاحمر يميلون لان يكونوا اسوأ خلقا من الناس الاخرين . وقد يرى هذا القائل بطبيعة الحال عكس ذلك ، اي أن الناس ذوي الشعر الاحمر قل أن يكونوا اسوأ خلقا من الناس الاخرين . ومن علم نفسه وروضها على أن يفكر على مثل هذا الاساس يقل احتمال وقوعه في الخطأ الذي كنا في صدد البحث فيه قبل قليل . ويكون هذا الشخص اكثر تفهما لصعوبة الحصول على بينة تكفي للبرهنة على مثل هذا القول ، وبأن من المتعذر على المرء أن يستخلص من ملاحظات الناس في أحاديثهم العابرة اليومية بينات جيدة قوية .

ان علوما اجتماعية مثل علم النفس وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع ينصب اهتمامها الى حد كبير على مثل هذه العلاقات . فالاختلافات بين البشر تبلغ من الضخامة حدا يصعب معه أن يجد المرء في العلوم المتعلقة بالانسان عبارات صحيحة كثيرة عن البشر من نوع : « كل المنتمين الى الفئة س هم ص » . والذي يحتمل وجوده

في هذه العلوم من العبارات اكثر من غيره هو من نوع : « يوجد احتمال ان يكون المنتمون الى الفئة س هم ص » مثلا . وعلى هذا فاذا قلنا انه يوجد احتمال ان يكون الناس ذوو الشعر الاحمر سيئي الخلق فاننا لا نعني ان كل ذوي الشعر الاحمر سيئو الخلق ، كما اننا لا نعني ضمنا ان كل الناس الذين ليس لهم شعر احمر هم حسنو الخلق . بل اننا لا تقصد أن نلمح بأن الناس سيئي الخلق من ذوي الشعر الاحمر اكثر عددا من الناس سيئي الخلق الذين ليس لهم شعر احمر . وكل ما نعنيه هنا هو أن نسبة الناس سيئي الخلق بين ذوى الشعر الاحمر أكبر من نسبتهم بين الناس الذين ليس لهم شعر احمر . أو بعبارة اخرى فان الشخص الذي له شعر احمر يحتمل أن يكون سيء الخلق اكثر من احتمال حدوث ذلك لشخص ليس له شعر أحمر .

وهكذا أصبحت لدينا الان صورة معقولة لقول معين صالح للبحث فيه . ولكنه مع هذا قد يكون غير صادق . فإن أردنا أن نكتشف صدق القول أو عدم صدقه كان علينا اجراء استقصاء على غرار ما يلي : فلنفترض اننا درسنا عينة عشوائية من الف شخص ـ وهي عينية تكفي ، بالنظر الى عددها ، لان تعتبر ممثلة تمثيلا معقولا للسكان في مجموعهم . ولنفرض أننا قسمنا هذا الالف من الناس الى جماعتين احداهما عددها (٢٠٠) فرد من ذوي الشعر الاحمر والاخرى عددها (٨٠٠) وليس لافرادها شعر احمر . ثم لنفرض بعد ذلك أننا قسمنا كل جماعة من هاتين الجماعتين الى فرقتين : احداهما تضم الذين هم على خلق سيء والاخرى تضم الذين ليسوا على خلق سيء ، واننا وجدنا بعد هذه القسمة الثانية ٥٠ شخصا سيئي الخلق بين ذوي الشعر الحمر و ١٠٠ شخص سيئي الخلق بين الذين ليس لهم شعر احمر . فنكون بذلك قد قسمنا الالف شخص الى اربعة أصناف ، ولا بد ان يكون كل فرد منهم ضمن احد هذه الاصناف . وقد أوجزنا هذه العملية في شكل تخطيطي فيما يلي .

هذه الارقام تحتوي على جواب كامل لسؤالنا وهو : « هل الناس ذوو الشعر الاحمر من شأنهم أن يكونوا سيئي الخلق ؟ » . لنتفحص هذه الارقام لنرى ماذا تعني . ان الذين هم على خلق سيء بين غير ذوي الشعر الاحمر ضعف الذين ليسوا على خلق سيء بين ذوي الشعر الاحمر . ولكن قلة العدد بين ذوي الشعر الاحمر لا تعني أن احتمال سوء الخلق بينهم اقل من احتماله عند الاخرين .. ذلك أن ربع ذوي الشعر الاحمر هم من سيئي الخلق في حين ان النسبة هي الثمن عند الاخرين . ولذلك فان جوابنا على السؤال كما يستخلص من هذه الارقام هو « نعم » أي أن من الممكن المراهنة على ألا يكون الشخص الذي ليس له شعر احمر سيء الخلق بنسبة ٧ الى ١ . والمراهنة بنسبة ٣ الى ١ على الا يكون ذو الشعر الاحمر سيء الخلق . وهكذا فان احتمال كون الشخص بشعر احمر سيء الخلق هو ضعف احتمال كون الشخص بغير شعر احمر سيء الخلق .

٥٠ سيء الخلق وشعر احمر	١٥٠ غير سيء الخلق وشعر احمر
١٠٠ سيء الخلق وبغير شعر احمر	٧٠٠ ليس سيء الخلق وليس بشعر احمر

والارقام الواردة اعلاه ليست بطبيعة الحال ارقاما واقعية صحيحة . فقد اخترعتها لتكون مثالا لمعنى قولنا « ان المنتمين الى الفئة س اقرب الى أن يكونوا ص » . وعلى ما اعلم فانه لم يجر قط البحث الاحصائي حول وجود ارتباط بين سوء الخلق والشعر الاحمر ، ولو فرضنا أن هذا البحث قد جرى فانني لا اظن انه

سيظهر أي ميل مهما كان لاصحاب الشعر الاحمر لان يكونوا اقرب الى سوء الخلق من الذين ليس لهم شعر احمر .

وطريقة الجدل التي أوردناها آنفا هي احدى الطرق المألوفة لدى الذين درسوا طرق علم الاحصاء . وانا لم اورد هنا الا الجزء الابتدائي من الحجة الجدلية وحذفت منها التعقيدات التي لا بد للباحث من أن ينظر فيها في أثناء تقصيه لهذه المعضلة وأمثالها . ولا بد له على الخصوص من ان ينظر في النسب بين الاصناف الاربعة التي بين يديه هل هي نسب تدل على وجود علاقة حقيقية بين تينك الصفتين أو هي نسب عارضة لنتائج عرضية لا تخرج عن ان تكون من الخصائص العرضية للعينية التي يدرسها . وفي اي كتاب مدرسي في الطرق الاحصائية ارشادات تيسر اكتشاف هذه القضية. ولكن بفرض وجود هذه العينية من الف شخص ووجود مفارقة في التناسب كالتي بين ٥٠ و ١٥٠ وبين ١٠٠ و ٧٠٠ فان الباحث الاحصائي عندها يكون على حق تماما في أن يستنتج بأن الصفتين من حمرة الشعر وسوء الخلق صفتان مقترنتان متلازمتان .

فاذا ادركنا ان مثل هذه البينة هي التي يحتاج اليها لتبرير النتيجة بأن الناس اصحاب الشعر الاحمر يميلون الى كونهم سيئي الخلق ، رأينا مبلغ السخافة عند رجلين شرعا يتجادلان حول قضية الشعر الاحمر وسوء الخلق وهل اصحاب الشعر الأحمر هم سيئو الخلق أم لا ، وادعى احدهما بأنهم سيئو الخلق واكتفى في البرهان على دعواه هذه بأن اشار الى الاشخاص الذين هم من صنف حمر الشعر وسيئي الاخلاق بالمقارنة بغير حمر الشعر الذين هم حسنو الاخلاق ، في حين أن معارضه اكتفى هو ايضا في البرهان على دعواه بأن اصحاب الشعر الاحمر ليسوا سيئي الاخلاق ، بأن اشار الى الاشخاص الذين هم من صنف حمر الشعر ، وليسوا سيئي الاخلاق ، والى الاشخاص الذين هم من صنف غير حمر الشعر وسيئي الاخلاق . والامر سهل على الرجل الاول بمثل ما

هو سهل على الرجل الثاني ، لان الاشارة في الحالتين من بين الالف شخص المبحوث عنهم هي الى صنف عدده ۱۰۰ والى صنف اخر عدده ١٥٠ . ومع ذلك فان من الواضح أن احدا من هذين الرجلين المتخاصمين لا يستطيع ان يثبت دعواه على الاطلاق ، وان اثبات صحة القضية الجدلية لا يمكن ان يكون عن طريق الحجة التي يتذرع بها كل منهما - وهي الحجة التي قد نسميها « بالبرهان استنادا الى امثلة منتقاة » .

هذا مثال مبتذل ولكنه ينطوي على مبادىء تنطبق ايضا على مشكلات أعظم اهمية من ذلك . ولنفرض مثلا ان الاعداد التي ذكرناها في قضية الشعر الاحمر وسوء الخلق كانت اعداد مدخني السكاير وغير مدخني السكاير الذين ماتوا بسرطان الرئة . فاذا اخترنا عينية من السكان بالطريقة الصحيحة ووجدنا ان من بين (۲۰۰) من مدخني السكاير كان عدد الذين ماتوا بسرطان الرئة في مدة معينة (٥٠) في حين أن من بين (۸۰۰) من غير المدخنين كان عدد الذين ماتوا بسرطان الرئة (١٠٠) في المدة نفسها ، عرفنا من ذلك أن احتمال موت مدخني السكاير بسرطان الرئة اكثر من احتمال موت غيرهم به . وتوزيع هذه الاعداد بهذه الصورة لا يكفي بنفسه لان يبرهن على أن تدخين السكاير هو الذي سبب مرض سرطان الرئة ، ذلك انه توجد طريقتان أخريان يمكن تفسير القضية بهما : فقد يكون الامر أن الاصابة بسرطان الرئة هي التي تحمل المصابين على تدخين السكاير . وقد يكون الامر ايضا أن الناس يختلف بعضهم عن بعض في بعض النواحي وان هذا الاختلاف هو الذي يجعل بعضهم أدعى الى تدخين السكاير وأدعى الى الاصابة بسرطان الرئة . وواضح ان الطريقة الاولى في تفسير القضية تعتبر بشكل عام في هذه الحالة بأنها بعيدة الاحتمال جدا ولا يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ، اما الطريقة الثانية فهي التي يحتج بها من يرفض التفسير بأن التدخين هو سبب الاصابة بسرطان الرئة .

والاعداد المتعلقة بهذه القضية هي اعداد فعلية (وهي بالطبع غير الاعداد المذكورة سابقا على الصفحة ٣٣) وهي تثبت بالفعل بصورة واضحة وجود علاقة حقيقية بين تدخين السكاير ونشوء سرطان الرئة . ولكنها بنفسها لا تثبت أن تدخين السكاير يسبب سرطان الرئة ، وانما توحي بأن وجود هذه العلاقة قد يكون تفسيرا للقضية، وتوجد أبحاث اخرى تشير اشارة قوية الى هذه النتيجة وتعتبرها انها التفسير الصحيح .

وثمة قضايا عديدة اخرى يدور النزاع حولها وتنطبق عليها هذه الاعتبارات . من ذلك مثلا اننا اذا كنا في حرب مع دولة اخرى او كنا في حالة التوتر التي نشير اليها باسم « الحرب الباردة » ، فاننا نكون أميل الى ان نظن بشعب العدو انه شعب رديء . بل ان هذه الرداءة المفروضة في هذا الشعب قد تكون أحد الاسباب التي تدعو الى محاربته حتى النهاية ، والى فرض شروط قاسية للصلح عند انتهاء الحرب ، أو قد تكون أحد الاسباب لرفضنا القيام بحركة ودية نحو العدو تخفيفا لحدة التوتر في الحرب الباردة . ومع ذلك فاننا لا نستطيع أن نفترض أن جميع أفراد شعب العدو اردئاء وذلك لسبب واحد على الاقل وهو اننا عرفنا بعض أفراد هذا الشعب معرفة شخصية ووجدناهم طيبين كريمي النفوس . وهذا لا يمنع من اننا قد نبقى مقتنعين بوجود احتمال قوي بأن شعب العدو على العموم شعب رديء . والواضح أن القياس الاجتماعي اللازم لتقرير هذا الاتجاه لم يجر حتى الان ، ولا يوجد سند عقلي كاف لكي يحملنا على الاصرار على صحة هذا الاتجاه ولا على صحة القضية القائلة بأن نسبة الناس الطيبين كريمي النفوس بين ظهراني شعب العدو هي نفس نسبة هؤلاء الناس بين ظهراني أقوام اخرى .

وهذه المسالة كما لا يخفى من المسائل التي لا يستطيع أحد منا ان يقدم الدليل العددي الذي يشكل وحده البرهان الصحيح .

وتوجد مسائل اخرى لها بينات عددية متيسرة ، ولكن هذه البينات مع ذلك اداة تستعمل في المجادلات المستندة على الشواهد والامثلة المنتقاة .. ولنأخذ مثالا على ذلك قضية عقوبة الاعدام هل هي رادع حاسم يمنع جرم القتل ؟ والذين يناصرون فرض عقوبة الاعدام يمكن أن يشيروا الى بلاد ليس فيها عقوبة الاعدام وفيها عدد كبير من حوادث القتل والى بلاد فيها عقوبة الاعدام وفيها عدد صغير من حوادث القتل . ويستطيع معارضوهم أن يشيروا هم بدورهم الى بلاد اخرى ليس فيها عقوبة الاعدام وفيها عدد صغير من حوادث القتل ، والى بلاد فيها عقوبة الاعدام وفيها عدد كبير من حوادث القتل . فطريقة الاثبات عند الطرفين لا تخرج عن كونها طريقة تعتمد على الامثلة والشواهد المنتقاة ولا تخطو بنا الى أبعد من ذلك . والطريقة الصحيحة في الاثبات هي فحص العلاقات العددية بين جميع هذه الحالات الاربع كما فعلنا قبل هذا في مشكلة سوء الخلق وحمرة الشعر ، وهذا الفحص لا يبدو انه يشير الى وجود أي ترابط مهما كان بين تكرار حوادث القتل في بلد ما وبين فرض عقوبة اعدام القتلة .

وفي الصحف مختلف الوان الاقوال الخلافية التي كثير ما تناقشها هذه الصحف ، ولا تكاد تنتهي من مناقشتها ، دون الوصول الي راي حاسم فيها ، لان صيغة هذه الاقوال موضوعة بحيث لا يمكن معرفة ما اذا كان المعنى المراد فيها هو « كل » أو « بعض » . ومن الامثلة على ذلك قول القائلين : « ابن المدينة اذكى من ابن القرية » أو على صورة أخرى : « ابن القرية احذق من ابن المدينة » أو « الانسان الاسود اقل ذكاء من الانسان الابيض » أو « النساء أقل منطقية من الرجال » أو « الاوستراليون صحاح البنية » . جميع هذه الاقوال ليس لها معنى في صيغها الحاضرة ، ولا يمكن تأكيدها ولا انكارها . وهي عديمة المعنى لان موضوع البحث فيها مبهم غير محدد . فلا يوجد ابن واحد للمدينة . وانما

يوجد أبناء . وبعض هؤلاء على قدر عال من الذكاء ، وبعضهم الاخر على قدر عادي من الذكاء وبعضهم الآخر فيهم بلاهة . وهذا ينطبق ايضا على أبناء القرية . وكذلك فان بعض الرجال السود يعتبرون عباقرة فكريا . في حين أن بعض الرجال البيض ليسوا بهذا المستوى . وبعض النساء غير منطقيات ، كما ان بعض الرجال غير منطقيين ، وبعض النساء استاذات في علم المنطق في الجامعات وبعض الاوستراليين صحاح البنية ، وبعضهم يمشون على العكاكيز .. وبعضهم الاخر في المستشفيات الخاصة بالعجزة .

ومما لا شك فيه أن هذه الاقوال يقولها اناس يعنون في حقيقة الامر شيئا اخر ، ومع ان هذه الاقوال ، كما هي في صيغتها ، هراء ، الا انها يمكن استبدالها باقوال لها معنى ويمكن البرهنة على صدقها او كذبها بواسطة الفحص الكمي . ولكن ما الذي يدور في سريرة القائلين حين يقولون : « الانسان الاسود اقل ذكاء من الانسان الابيض » فاذا استبدلنا هذا القول بقول اخر كالقول التالي : « كل انسان أسود أقل ذكاء من كل انسان ابيض » تبين لنا اننا قلنا شيئا له معنى ومعناه محدد ولكنه كذب صراح .

واذا اردنا ان نقول قولا له معنى وقد يكون صادقا أو كاذبا فعلينا أن نستعمل صيغة من الكلام كالتي كنا في مجال البحث فيها قبل قليل . فنقول مثلا : « في السود ميل الى ان يكونوا اقل ذكاء من البيض » . هذه العبارة لها معنى ، ولكنها قد تكون صادقة او كاذبة ، واثبات صدقها او عدمه لا يكون الا عن طريق النتائج التي تسفر عن تقريرات تعطيها اختبارات مناسبة للذكاء على عدد كبير من السود دون تعيين أو اختيار ، ثم مقابلة هذه التقديرات بتقديرات مماثلة عن عدد مماثل في اختبارات مماثلة عن البيض . وقد تكون النتيجة من هذه المقارنة بان ايا من المجموعتين لا تتفوق على الاخرى في تقديرات الذكاء . ومن وجه اخر فقد تظهر النتيجة انه لا يوجد فرق له قيمة تذكر بين المجموعتين . ويمكن في الحالة الاولى أيضا

فحص الارقام لمعرفة الفرق مع التذكر بأن الفرق الصغير في المعدل لا يعني عدم وجود أفراد من الطرفين يتمتعون بذكاء رفيع .

وهذه المسألة هي من المسائل التي لا يمكن للمرء أن يتوقع ان يكون لها جواب حاسم ولا سيما اذا نظر الى المدى الواسع في الفرق عند الشعوب السوداء بين الاثيوبيين المتمدنين على مستوى عال وبين السكان الاصليين في اوستراليا الباقين على الفطرة ، ونظر كذلك الى المدى الواسع في الفرق عند الشعوب البيضاء بين الاوروبيين المتمدنين وبين سكان اينس (Ainus) البدائيين في اليابان . وقد جرت ابحاث استقصائية كثيرة في هذا الموضوع ، ولكن تفسير النتائج كان موضع شك لان الفرق الذي تبين في هذه الابحاث قد يكون نتيجة للفروق الثقافية وليس نتيجة فروق عرقية خاصة بين الشعوب . ويظهر على الاقل انه اذا كان مستوى الذكاء متباينا بالنسبة الى لون البشرة فان هذا التباين يكون صغيرا . واذا أردنا أن نعرف مقدار الذكاء لشخص ما فليس لون بشرته دليل يوثق به في ذلك .

ولهذه المشكلات مثيلات كثيرة اخرى ، والجواب عنها غير معروف لانه لم يتسن لأي انسان ان يتغلب حتى الان على الصعوبات القائمة في وجه الحصول على المعلومات الضرورية لحل هذه المشكلات .. ومنها مثلا سؤالنا : « ما مدى نجاح استعمال السجن كعقاب في تقليل حوادث الاجرام في الوقت الحاضر ؟ » وسؤالنا « هل المصالح التجارية التي تديرها الدولة انشط او اقل نشاطا من المصالح التي تديرها شركات خاصة ؟ » وهكذا . هذه المسائل يمكن ، أن يجاب عليها بأبحاث في علم الاجتماع ، غير ان هذه الابحاث لم تجر حتى الان . ولكن لا يلزم من ذلك ان لا يكون لدينا آراء بشأنها . وفي المسائل العملية ذات الاهمية العاجلة لا بد لنا من ان نجزم برأي ما حتى وان كنا نعلم ان البينة ناقصة . والامتناع عن

الجزم براي ما هو بمثابة اتخاذ قرار بترك الامور على حالها (واحتمال كون هذا القرار الحل الخاطيء مساو للاحتمالات الاخرى) .

ولكن الحاجة الى أن نجزم براي ما في امور الحياة العامة لا يجب أن تكون سببا يحول دون التفكير تفكيرا سليما في هذه الامور ، كأن نخلط بين البينة التامة والبينة الناقصة فيها . ويجب أن لا نظن بأن قضيتنا يمكن أثباتها عن طريق تخير بعض الشواهد التي تكون محابية لفكرتنا وتجاهل الشواهد الاخرى . فلو كنا مثلا نجادل دفاعا عن الاقتصاد الحر في التجارة فلا يكفينا أن نقتصر على ايراد شواهد متخيرة عن مشاريع حكومية لم تكن ناجحة ومشاريع خاصة كانت ناجحة . ولا يجب علينا ان نفكر بأن قضيتنا قد يثبت بطلانها لو أن خصمنا في القضية الخلافية اورد شواهد وامثلة مشابهة عن مشاريع حكومية ناجحة ومشاريع تجارية خاصة باءت بالخسران . ويجب أن نكون دوما مترقبين ظهور بينة حقيقية تتمخض عن دراسات مجردة من الغرض والهوى لتقرير العلاقات بين أربع حالات من النجاح من جهة والخسران من جهة اخرى في مشاريع حكومية ومشاريع خاصة . ويجب أن نتذكر دوما أن البينة الحقيقية في هذه القضايا لا تأتي الا من الابحاث الدقيقة التي يجريها اخصائيون ، وليس من تفكير أو محاجة نقوم بها لانفسنا .

والابحاث الاجتماعية من هذا النوع جارية الان وستتمكن في زمن غير بعيد من الوقوف على كثير من الحقائق الدقيقة التي يعتمد عليها في أتخاذ القرارات السياسية والاجتماعية السليمة . ولكن هذه الابحاث لا تزال في الحقيقة قليلة اذا قيست بمقدار ما بلغ اليه البحث في العلوم الطبيعية . غير أن الذي يظهر من الابحاث العلمية هذه أن المتصرفين بالاموال المخصصة لهذه الابحاث لا يزالون يرون أن من الاهم عندهم توجيه انفاق هذه الاموال في سبيل الكشف عن سلوك الذرات وما دونها بدلا من توجيهها للكشف عن سلوك الافراد في المجتمع البشري . ولو اننا اتخذنا جادين المبدأ

الثاني الرامي الى تحويل التصرف بالشئون القومية والدولية نبراسا في بحثنا العلمي لكان من الممكن اجراء مزيد من البحث في علم النفس الاجتماعي .. وكثير مما ننفقه على الخطباء السياسيين وعلى الوسائط الاخرى للتأثير في الراي العام قد يكون أجدى لنا وانفع لو اننا حولناه الى البحث في المشكلات الاجتماعية لان ذلك قد يؤدي الى ان يجعل العمل السياسي قائما على علم دقيق .

والى أن يتم ذلك يجب علينا ان نتخذ قراراتنا معتمدين على ما لدينا من بينات ، وان كنا نعلم بأن هذه البينات ناقصة . وهذا يعني أنه بالرغم من أن علينا أن نستقر على قرار محدد الا اننا يجب الا نجعل ذلك نهائيا ، وانما يجب أن نظهر مرونة في الاسترشاد بالتجربة ، واثقين من أن هذه التجربة كثيرا ما تحملنا على تغيير آرائنا حول موضوعات كنا على يقين تام منها .



الفصل الثالث

الاحتيالات والغش في الجدال

سبق لنا ان لاحظنا أن قولا بالصيغة : « كل الناس بخلاء » يندر جدا أن يكون صادقا ويسهل كثيرا نقضه بالبرهان . وسهولة نقضه بالبرهان راجعة الى سبب واضح وهو أن شاهدا بمفرده على أن أحد الناس غير بخيل يكفي لابطال هذا القول . ولو فرضنا على سبيل المثال ان رجلا ادعى بأن كل مسالم جبان ، فان خصمه في النزاع يستطيع ان ينقض هذا الادعاء وذلك بأن يشير الى مسالم واحد ابدى شجاعة فائقة في وجه الموت . ولكن لو فرضنا من جهة ثانية ان الرجل اعتدل في ادعائه وقال ان بعض المسالمين جبناء ، فانه عندئذ لا يغلب ولا يحج لانه يستطيع حينئذ أن يأتي بشاهد او اكثر على مسالمين كانوا جبناء ، وبذلك يثبت دعواه .

وفي هذا اشارة الى أن الشخص الذي يتخذ موقفا متطرفا في ادعائه (كأن يقول « كل الناس بخلاء ») يكون في وضع يصعب عليه فيه كثيرا الفوز في الجدال . ويلجأ الكثير من الناس قصدا أو عن غير قصد الى حيلة مبنية على هذا المبدأ وهي حيلة ارغام الخصم على أن يقف موقف المدافع عن ادعاء متطرف دون ان تدعو ضرورة حقيقية الى هذا الارغام . وقد تستخدم هذه الحيلة ضد مجادل غافل وذلك بالالحاح على معارضة موقف معتدل له الى ان يضطر هو عند احتدام الجدال الى ان يتهور ويتخذ مواقف متطرفة ، موقفا بعد اخر .

ولنفرض على سبيل المثال ان رجلين تجادلا حول الظروف المعيشية لبلد ما خاضع للحكم الشيوعي . فأحدهما (مجيد) يدعي أن الشعب يعاني المجاعة هناك وان الصناعة في حالة لا يرجى صلاحها من فقدان النشاط والفعالية وان الذي يمنع الشعب من القيام بثورة مضادة ناجحة هو الارهاب . والثاني (نجيب) يدعي باعتدال بأن الامور هناك ليست من السوء بقدر ما يصورها (مجيد) ، وأن العمال ، من بعض الوجوه ، احسن حالا منهم في البلاد غير الشيوعية . ومن الواضح ان (مجيدا) متخذ موقفا أقل سهولة في الدفاع عنه من موقف (نجيب) ، ونحن نتوقع لذلك ان يكون النصر في جانب (نجيب) . وهذا ما ينتظر حدوثه في الغالب اذا بقي (نجيب) على موقفه المعتدل هذا وتمسك بما ادلى به من عروض لان هذه العروض هي كل ما يحتاج اليه لابطال حجة (مجيد) . ومع استمرار الجدل شرع (مجيد) في المجاهرة بأقوال مبالغ فيها عن الاحوال السيئة للعمال في البلاد الشيوعية ، ورد عليه (نجيب) بطبيعة الحال بأقوال جامحة كذلك عن الرخاء الذي يتمتع به هؤلاء العمال ، وتمادى بذلك الى ان ادعى صورة من الرخاء وحسن الحال لجميع العمال في تلك البلاد لا تكفي الحقائق المتوافرة لديه لدعمها . وهنا اتخذ (مجيد) موقف المهاجم وادلى بحقائق تكفي لتنفيذ راي (نجيب) الذي كان قد غالي بقوله حينما وصف الاحوال المعيشية للعمال في البلاد الشيوعية وصفا بالغ المحاباة ودافع عن ذلك بتطرف عن غفلة منه . وكانت النتيجة ان خسر (نجيب) في المجادلة ، مع ان قضيته كانت رابحة في بادىء الامر . وما أكثر المجادلات التي يغامر فيها المجادلون وتنتهي بالبوار على هذه الصورة !

والشخص الحذر اذا دخل في جدال لا ينساق على هذه الصورة الى اتباع طريق الهزيمة . وانما يظل مصرا على موقفه المعتدل الذي شرع فيه والذي يمكنه الدفاع عنه بسهولة ، في حين

انه فوق ذلك يستطيع دحض أقوال خصمه المتطرفة بالحجة والبينة دون أن يحتاج الى جر هذا الخصم الى التفوه بأقوال أكثر تطرفا في الاتجاه المضاد . ويمكن أن تستعمل ضد مثل هذا الشخص حيلة مماثلة بطريقة اشد غشا واقل امانة ... ذلك ان هذا الرجل قد اكد مرارا باعتدال وعن حق أن « بعض الناس بخلاء » ولكن خصمه لا يجادل في هذا وانما يجادله كما لو كان قال « كل الناس بخلاء » . فاذا حاول الرجل الاجابة على حجج خصمه فانه انما يدافع بذلك عن القول « كل الناس بخلاء » ، ويكون بذلك قد وقع في الفخ . واذا تحاشى ذلك بأن بقي مصرا على موقفه المعتدل الاصلي ، فان خصمه قد يلجأ الى الاتيان ضده بسفسطة سخيفة على مثل الصورة التالية فيقول « ولكن يجب عليك بحسب المنطق أن تقول ان كل الناس بخلاء اذا كنت تظن أن بعض الناس بخلاء » .

ولنسم هذه الحيلة باسم « التوسيع » أي توسيع قول الخصم . وتستعمل هذه الحيلة من اجل استدراج الخصم الى أن يوسع قوله بنفسه في أثناء احتدام الجدال أو أن يتواقح أكثر من ذلك فيزور قوله الاول أو باستعمال الحيلة التي أشرنا اليها آنفا وهي قوله بأنه « يجب عليه بحسب المنطق » أن يدافع عن القضية بعد توسيعها . وهي حيلة تستعمل غالبا في الجدال ، وقد تستعمل احيانا اضطرارا ، والعلاج دائما هو أن يمتنع الشخص صاحب القول عن أن يوسع قوله وأن يظل مثابرا على تثبيت موقفه الذي يريد في الحقيقة ان يدافع عنه .

والمثال على محاولة ارغام خطيب مثلا على أن يوسع قوله يمكن أن يستمد من أقوال الخطباء في الفترة ما بين الحربين العالميتين حينما كانت بريطانيا على كثير من شدة الحال والضيق . فقد احتج أحد الخطباء حينئذ بأن البلاد مع ما هي عليه من الضنك الذي يقاسيه متوسطو الحال ومن هم اقل حظا ، لا يسعها أن تنفق ما تنفقه على الكماليات غالية الثمن ، ودلل على ذلك

بالالعاب الميدانية التي يلعبها الاغنياء . وكان هذا رأيا معتدلا ومعقولا . ولكن احد المستمعين اتهم هذا الخطيب بعد ذلك بعدم الثبات على الراي في مهاجمته جميع صور الانفاق على الاشياء الكمالية لان المفروض أن يكون لهذا الخطيب مجالات للاستجمام والترفيه خاصة به ينفق عليها شيئا من المال .

ولكن الخطيب امتنع عن التوسع في رايه واكتفى بأن اعاد تأكيده لقوله السابق بأنه ليس جميع الانفاق على ابواب الاستجمام ومجالات الترفيه أمرا غير مرغوب فيه ، وانما ، الذي هو غير مرغوب فيه ، هو الاسراف في هذا الانفاق ، واشار الى أنه سبق له أن قال ان هذا هو رايه وقال في حجته ان بعض النفقات الكمالية من هذا النوع امر مرغوب فيه لكل انسان . وهنا قال خصمه : « ان اردت أن تظل منسجما منطقيا مع ما قلته فيجب عليك أن تستنكر جميع النفقات على الكماليات ما دمت تستنكر الانفاق على تخصيص مروج لصيد طيور القطا واحراش لتربية الظباء » . ولا أجد لهذا الزعم غير المعقول ردا مرضيا غير انكار وجود مثل هذه الضرورة المنطقية . فالقول بأن « بعض الانفاق غير مرغوب فيه اجتماعيا » يفي بالغرض منطقيا مثل القول البديل الموسع بأن « كل الانفاق على الكماليات غير مرغوب فيه اجتماعيا » ، بل انه يبدو أقرب الى الصدق من القول الاخير . ومن المعقول والمناسب بالطبع ان يطلب الى الخطيب أن يبين مقاييسه للتمييز بين الانفاق على الكماليات الذي هو غير مرغوب فيه اجتماعيا وبين الانفاق على الكماليات الذي هو مرغوب فيه أو مأمون الضرر . وقد ينظر المرء ايضا في الاسباب التي قدمها الخطيب في استنكاره للرياضة في الميادين وهل هي أسباب كافية لاستنكار الاستجمام والترفيه الخاصين بالخطيب نفسه . ولكن ليس من المقبول عقليا تزوير دعوى الخطيب بأن الرياضة في الملاعب غير مرغوب فيها في ذلك الوقت وذلك عن طريق الايحاء بأن الخطيب يستنكر كل انفاق على الكماليات . وهذا نوع يعطي نموذجا مثاليا للتوسيع .

واستعمال حيلة التوسيع هذه شائع في المجادلات . فقد جرى مثلا في المدة الاخيرة نقاش كبير حول مسألة السماح او عدم السماح لفرق كرة القدم باللعب في مباريات دولية في بلادنا اذا كانت بلاد هذه الفرق تختار منتخباتها على اساس التمييز العنصري . والقول بأن هذه الفرق يجب أن لا يسمح لها باللعب عندنا بسبب الطريقة التي تختار بها هو رأي يأخذ به العديد من الناس ويتمسكون به تمسكا شديدا . والمعارض لهذا الراي قد يقول ان حجب الفرق الرياضية من بلد كجنوب افريقيا مثلا بسبب عدم موافقتنا على سياسة التمييز العنصري بعامة في البرامج العمرانية والانمائية ، يجب أن يكون أيضا موجبا لمقاطعة الفرق الرياضية من روسيا أو البرتغال مثلا أو أي بلد اخر لان هذه البلاد تتبع سياسات لا نوافق عليها . ومثل هذا الاعتراض يكون وجيها ومعقولا لو ان السبب المقترح لحجب الفرق الرياضية من جنوب افريقيا هو عدم الموافقة على سياسة التمييز في العمران والانماء بحسب العنصر . ولكن نصير الحجب قدم لتعليل حجته أن طريقة اختيار الفرق الرياضية هي على اساس التمييز العنصري (وهذا لا ينطبق على البلاد المذكورة الاخرى) ولذا فان الاشارة الى مسألة الفصل والتمييز في العمران والتنمية بين العناصر البشرية فيه توسيع لمدعاه الاول ، ومن الافضل له ان لا يقبل بهذا التوسيع اذا كان مراده الدفاع عن قوله الاول في صيغته المحدودة .

ويشبه ذلك أن المدافع عن ضرورة احداث تغيير اجتماعي معين قد يقابل بهذه الحجة : « انت تفترض ان هذا التغيير الاجتماعي سيأتي بالنعيم المنتظر » . وهنا يجب على الشخص المهاجم بهذه الطريقة ان يرد على خصمه بقوله : « انا لا افترض أن هذا التغيير سيأتي بالنعيم المنتظر ، ولا افترض انه سيحل وحده جميع مشكلاتنا العاجلة . وانما اقول ان هذا التغيير سيعمل شيئا يكون من اثره تخفيف الفقر وذلك عن طريق توزيع الثروة توزيعا

اكثر عدالة . وواضح ان هذا القول اذا صح هو كل ما يحتاج الخطيب المدافع عن التغيير الى ان يتمسك به لكي يقنع مستمعيه ان الاصلاح الذي يدعو اليه أمر مرغوب فيه . ولكن لو انه استدرج واغري على التمادي بالادعاء فانه يقع في فخ « التوسيع » ويجد ان الدفاع في قضيته قد اصبح اصعب من ذي قبل . ولو بلغ به الحمق حدا كافيا وتمادى في ادعائه الى ان وقع في الفخ وصار يقول بأن الاصلاح الذي يقترحه سيأتي بنظام اجتماعي كامل (وهو يمثل معنى النعيم المنتظر) لوجد نفسه في وضع يتعذر الدفاع عنه .

ولنعد الآن الى محاولة ارغام الخصم على « التوسيع » بأن نقول له : « يجب عليك بحكم المنطق أن تؤمن بأن كل انفاق على الكماليات أمر غير مرغوب فيه من ناحية اجتماعية اذا كنت ترى ان الانفاق على مروج مصائد القطا وعلى احراش تربية الظباء أمر غير مرغوب فيه اجتماعيا » . وهذا مثال على حيلة في النقاش يجدر بنا أن نعيرها التفاتا خاصا ، وهي حيلة استعمال صيغة سفسطية لابتزاز النصر في المجادلة . وهذه الطريقة الاحتيالية شائعة الى حد كبير . فاذا ادعى مسالم بأن الاشتراك في الحرب خطأ ، فان الرد الذي يمكن ان يوجه اليه هو انه يجب عليه حتى يكون منطقيا في ادعائه وثابتا ان يرفض استعمال العنف في أي حال من الاحوال حتى ضد مجرم كان يعتدي على زوجته . وقد تكون هذه الحجة حجة سليمة وليست حيلة من قبيل الغش ولكن بشرط واحد وهو ان يكون المسالم قد بنى دفاعه عن معارضته للحرب على اسس يمكن أن تنطبق أيضا على حالة العدوان على زوجته . ولكن لو كانت (وهو ما يحتمل له ان يجري في مثل هذه الحالات) الاسس والاسباب التي بنى عليها معارضته الاشتراك في الحرب هي ليست أسبابا لعدم حماية زوجته عند العدوان عليها ، فان تهمة المفارقة المنطقية التي يتهم بها لا تكون الا حيلة تستعمل غشا في اثناء المناقشات والمجادلات لكسب الموقف .

ومن العبارات السفسطية أيضاً العبارة شائعة الاستعمال التي لا يمكن ان تستعمل في جدل نزيه وهي القول بأن « الاستثناء يثبت القاعدة » . فاذا اتخذ احدهم موقفا متطرفا مثل موقف من يقول ان افراد الاجناس البشرية السوداء عاجزون عن التطور الفكري . فان تفنيد هذا القول يمكن ان يتم بمجرد الاشارة الى رجال من السود متميزين فكريا من أمثال بوكر واشنطن والدكتور بنش والاستاذ ماثيوز Booker Washington, Dr. Ralf Bunch and Professor Mathews. ولكن صاحب الموقف المتطرف قد يلجأ في تبرير موقفه الى أن يقول : « هذه هي الاستثناءات التي تثبت صحة القاعدة » .

ولا شك أن هذه مراوغة . ويمكن معالجتها بالتدليل (كما هو بين لذاته) على أن الاستثناءات لا تثبت صدق القاعدة العامة وانما تثبت بطلانها . وقد يرد خصمه أيضا بقوله ان كلمة (يثبت او تثبت) في تلك العبارة المأثورة تعني في الاصل (يمتحن او تمتحن) . وان الصحيح هو ان الطريقة لامتحان قاعدة عامة هي البحث عن حالات شاذة عن القاعدة ، وعلى ذلك فمن الواضح الجلي أن وجود الحالات الشاذة لا يثبت القاعدة العامة بالمعنى الحديث اي بمعنى أثبات هذه القاعدة بأنها صحيحة .

وثمة حيلة أخرى تستعمل في القضايا الخلافية وهي حيلة « الروغان » أو « التحويل » وتكون في الدفاع عن قضية ما بالاتيان بقضية أخرى لا تكون اثباتا للقضية الاولى وانما هي وسيلة لتحويل المناقشة عن موضوعها الاول الى موضوع اخر يكون صاحب عملية التحويل هذه واثقا منه أكثر من الموضوع الاول . فقد يقول قائل مثلا ان قوانين التمييز العنصري في جنوب افريقيا فيها حيف على السكان السود . ويجيب خصمه فيقول ان هذا كلام فارغ لان حكومة جنوب أفريقيا تنفق الكثير من المال لانشاء المساكن للافريقيين . فهذا القول الثاني قد يكون صحيحا ولكنه ليس له

انطباق على الموضوع الاول لان المتكلم الثاني بطبيعة الحال لا يستطيع ان يدعي أن بلدا ينفق فيه مال كثير على انشاء المساكن لقسم من سكانه لا يمكن أن يكون بلدا قوانينه ظالمة لذلك القسم من السكان . ذلك أن القولين : (بعض القوانين ظالمة لقسم من السكان) و (انفاق المال على انشاء المساكن لهذا القسم من السكان) هما شيئان مختلفان . وقد يكون كلاهما أو أحدهما صادقا أو كاذبا ، وصحة أحد القولين أو بطلانه لا يتضمن دليلا على بطلان الآخر أو صحته .

وهذا مثال على « الروغان » لان المتكلم نقل المناقشة من موضوع الى آخر متظاهرا بأنه انما يقدم حجة في مجال الموضوع الاول .. وأمثال هذا « الروغان » شائعة جدا في المجادلات ، وقد تكون هذه المراوغات عن عمد احيانا وعن غير عمد احيانا اخرى . والامثلة على استعمال الروغان موفورة في أعمدة الجرائد المخصصة لرسائل القراء . ومعظم القضايا الجدلية التي تثار في هذه الرسائل لا تكاد تنتهي الى نتيجة فاصلة لان أحد الطرفين المتجادلين قد يقوم بحركة روغانية في الرسالة الثالثة أو الرابعة . ولنأخذ مثالا على ذلك النقاش فيما تدعيه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من حقوق تطالب بها ، فان هذا النقاش قد ينحط بعد بضع رسائل الى مستوى المصاخبة الحادة عن موضوع بيع صكوك الغفران التي كانت تبيعها الكنيسة في القرون الوسطى أو عن موضوع الاحوال الاجتماعية للولايات البابوية (١) في بداية القرن الماضي . وقد تنحط مرات اكثر من ذلك الى مستوى النقاش عن اي المتخاصمين يوثق به ، كمؤرخ اكثر من الآخر أو يبدي التزاما بالمنطق اكثر من الآخر .

---

١ ـ الولايات البابوية هي اراضي وسط ايطاليا وكانت تمتد عبر شبه الجزيرة الايطالية ومن تسكانيا الى مملكة نابولي وكان البابا هو الذي يحكمها وذلك منذ القرن الثامن حتى عام ١٨٧٠ عندما ادخلت في الدولة الايطالية . (ص. ح.)

بل أن المراوغات عن مجرى الجدال والتحول الى النقاش عن الصفات الشخصية للمتخاصمين هي من الشيوع بحيث تكاد تكون أغلب حالات الروغان . وكثير من المنازعات تنتهي على هذه الصورة ولو أنها عند البداية كانت تدور حول مشكلة واقعية محددة (كأن يكون السؤال عن أي السيارتين كانت على الجانب الخطأ من الطريق) .

ويجب أن ندخل أيضا من ضمن انواع الروغان حيلة يلجأ اليها أحد المتخاصمين وهي التعلق بنقطة هامشية ، وردت في سياق الحجة التي اتى بها الخصم الاخر واتخاذها وسيلة للتغلب عليه فيها ثم الايحاء (بعد التغلب في هذه النقطة الفرعية) بأنه غلب الخصم في القضية الاساسية . فالرجل الذي يأتي بعدد كبير من الوقائع تأييد لمدعاه قد يأتي بواحدة على الاقل لا تكون صحيحة ، وعدم صحة هذه قد لا يكون كافيا لنقض النتيجة التي يدعيها . ولكن الخصم يمسك بهذه الواحدة ويثبت بطلانها وبذلك يسهل عليه أن يدخل في النفوس انطباعا بأنه تمكن من ابطال قضية الخصم برمتها ، بالرغم من ان الدعامة الكبرى لهذه القضية بقيت ثابتة . وهكذا يكون النصر في هذا الجدال نصرا مزيفا تم احرازه عن طريق حركة روغانية ناجحة . والروغان هذه المرة لم يكن كما في الامثلة السابقة بالتحول الى مسألة أخرى وانما كان بالتحول الى مسألة فرعية متشعبة عن القضية الاصلية .

ومن الامثلة على الروغان الى مسألة فرعية مثال ورد في نقاش ادعى فيه استاذ ان الطبيعة تحدث التحسينات جميعها في أجناس الحيوانات عن طريق التخلص من الاجناس غير الصالحة بالاسلوب المعروف بالاختيار الطبيعي ، ودلل الاستاذ على ذلك بقوة الحصان وسرعة كلب الصيد . ورد رجل الكنيسة على هذا الادعاء باعتراض صحيح ، وان كان تافها ، وهو أن سرعة كلب الصيد كانت نتيجة المزاوجة والوراثة وليست نتيجة الاختيارالطبيعي . ومع ذلك فهذه

مسألة فرعية جانبية ، وكان في امكان الاستاذ ان يختار امثلة عديدة اخرى خلاف ذلك ، كأن يستعيض مثلا عن كلب الصيد بالذئب ولا يطرأ على قضيته الاولى شيء من البطلان بمجرد اعتراض رجل الكنيسة .

وهناك خطر حقيقي من ان اية اشارة الى التفكير الاعوج في قضية جدلية يمكن أن يكون روغانا (أو تحويلا) عن النظر الصحيح فيما اذا كانت النتيجة المستخلصة صحيحة أم باطلة . والحجة يمكن تأييدها بحجج أو ادعاءات عوجاء . وهذا لا يعفينا من ضرورة فحص هذه الحجج لمعرفة ما اذا كانت صحيحة أم باطلة . وهذا امر ضروري كخطوة أولية نحو الحكم على النتيجة هل هي سليمة أم لا . ولكنها ليست سوى خطوة أولية لا غير ، أما اذا جعلت بمثابة اعتبار لصحة النتيجة المتجادل فيها فانها تصبح روغانا .

وتكون هذه الحيلة على صورة أكثر وقاحة وجراة حينما تكون روغانا عن طريق الاعتراض اعتراضا لا صلة له بالموضوع . ويكون ذلك بانكار شيء أدلى به أحد الخصمين وليس له أهمية اطلاقا (وليس مجرد أمر قليل الاهمية) في القضية الرئيسية .

وتستخدم هذه الحيلة على نطاق شائع في تعلق الخصم بأحد التفصيلات الطفيفة الصغرى الذي استقاه الخصم الثاني من معلومات خاطئة . فقد يقول أحدهم مثلا ان عقيدة الحق المقدس للملوك كانت قد ابطلت في سنة ١٦٤٨ حينما قطع راس الملك تشارلز الاول في بريطانيا . وقد يرد عليه خصمه ويشير الى ان تشارلز الاول كان قد قطع راسه في سنة ١٦٤٩ وليس في سنة ١٦٤٨ . وهذا الاعتراض صحيح ولكن ليس له أي صلة بالقضية . وقد يماري أحدهم في صحة القول في الكتاب المقدس ويقول انه لا يؤمن بأن النبي يونس بلعه الحوت . ويرد عليه خصمه ويشير الى أن ما قيل في الكتاب المقدس هو ان يونس ابتلعته سمكة عظيمة ، وان الحوت ليس بسمكة . وهذا صحيح ولكن ليس له صلة بالموضوع

الاصلي لان القائل الاول سيجد صعوبة مماثلة في تصديق الحادث حتى مع الاقرار بأن الذي ابتلعه سمكة .

ولا يخفى أن المرء يجب ان يكون في تفاصيله دقيقا لكي لا يكون عرضة لمثل هذا النوع من الاعتراض الخارج عن الصدد . وكل منا معرض للغلط ، ولكن استعمال غلط الخصم بتلك الطريقة مثال على الغش في المجادلة .

ومع أن ضعف حيلة الاعتراض الخارج عن الصدد يكون عادة واضحا اذا تأملنا فيها ، غير انه كثيرا ما ينجح استعمالها . وبشكل خاص يكون نجاحها محتملا اذا كان الاعتراض له طابع فكاهي ، كأن يشير خطيب في مهاجمته لقلة وجود المساكن الى أسرة مؤلفة من ستة أفراد تعيش في غرفة واحدة ليس فيها متسع لقطة . وقد يقول خصمه (أو من يقطع كلامه) : « اذا يجب على الاسرة ان لا تقتني قطة » . وهذه نكتة فاترة ، ولكنها مع ذلك نوع من الروغان الذي قد ينجح في اظهار الخطيب بمظهر مضحك حين يحاول ارجاع المناقشة الى النقطة الاصلية التي تحول النقاش عنها . فالحضور المستمعون يكونون اميل الى الضحك مع الشخص الذي اتى بذلك الروغان من متابعة جهود خصمه الشاقة وهو يحاول العودة الى البحث الجدي . وهذه الطريقة طريقة خسيسة يستعملها بعض الناس لكي يقال عنهم انهم أذكياء . والشخص الذي اعتاد استعمال طريقة الروغان المزحية في اثناء المجادلة الجدية لا يستحق أن يلتفت اليه .

ومن الامثلة على الروغان بادخال اعتراض خارج عن الصدد ما جرى حين كان المستر غورتن Gorton رئيسا للوزراء في اوستراليا . فقد روي عنه انه قال في احدى المناسبات عن خطبة كان القاها زعيم المعارضة بأنها «محشوة بالاكاذيب كاحتشاء القرصة المشحمة بالزبيب » . وقال احد مراسلي الصحف بعد ذلك انه قد رجع الى كتاب معتمد في فن الطبخ والوان الطعام فوجد أن القرصة

المشحمة لا يكون فيها زبيب . وقول مراسل الصحيفة يمكن الدفاع عنه باعتباره مجرد مزحة ضد رئيس الوزراء الذي كان عليه أن يكون حريصا على ان لا يخلط بين القرصة المشحمة وقرصة الزبيب . غير ان استعمال هذه « الغلطة » كالسهم في البحث عما اذا كانت خطبة زعيم المعارضة محشوة أو غير محشوة بالاكاذيب ، يجعلها تدخل في باب الروغان عن طريق الاعتراض الخارج عن الصدد .

والروغان يمكن بطبيعة الحال أن يستعمله من يدافع عن موقف معين كما يمكن أن يستعمله المهاجم لهذا الموقف . فاذا قال رجل قولا ووجد نفسه محرجا في الدفاع عنه فانه قد يلجأ الى تحويل المناقشة والبحث الى اتجاه أقرب الى مصلحته وذلك بأن يستعيض عن القول الاول بقول يكون في الظاهر شبيها به ولكنه اسهل في الدفاع عنه . ومن عادة بعض الناس أن يبدأوا المناقشة بقول فيه موقف متطرف حتى اذا هوجم هذا القول ، استعاضوا عنه بقول اقرب الى الاعتدال ، وبذلك يجنون فائدة مضاعفة . فهم بالقول الاول يستنهضون الانتباه ، ويربحون لانفسهم سمعة لا يستحقونها بأنهم مفكرون جريئون ، وبالقول الثاني الروغاني يتمكنون من تفادي هزيمة طاحنة في الجدال كان من الممكن أن يصابوا بها لولا ذلك . ومن السهل على الحاضرين أن ينساقوا الى الظن بأن القول المتطرف الاصلي هو الذي نجح قائلوه في اثباته والدفاع عنه .

وعلاج حالات الروغان هذه جميعها يكون باعادة المناقشة الى المسألة التي كانت البداية منها . وهذا لا يكون في العادة أمرا سهلا في جميع الاحوال . لان الخصم غير الشريف في المحاورة قد يدعي ، اذا جرت محاولة الاعادة ، انك في محاولتك هذه انما تريد الروغان عن حججه في الجدال والتهرب منها . ولكن بشيء من

العناية وضبط الاعصاب وسماحة الخلق يمكن في غالب الاحوال عمل ذلك واعادة المحاورة الى خطها الاصلي .

وثمة خدعة اخرى من قبيل الروغان نذكرها هنا ، وهي حيلة الاتيان ، في الدفاع عن قول ما ، بقول اخر لا يثبت صحة القول الاول ولكن يأمل قائله أن الخصم لن يعترض على البرهان . ويمكن تأمين ذلك في أغلب الاحيان بجعل القول الثاني عبارة عن اشارة الى نظرية علمية يخشى الخصم اذا عارضها ان يكشف عن جهله ، أو على الاقل يجعل القول الثاني مرتبطا بأمر ملتبس غامض يخشى الخصم أن يكشف عن جهل مشين اذا هو اقر بعجزه عن ادراك هذا الارتباط .

فعلى سبيل المثال سمعت بأن هناك من يعارض الحكومة الديمقراطية استنادا الى أن هذه الحكومة تناقض « المبادىء البيولوجية » ، وأن معارضة بعض الناس رفع أجور العمال مبنية على أن « الثروة لا تتجزأ » ولنطلق على هذه الطريقة اسم « الحجة غير المنطقية » . وصورة هذه الحجة في ابسط عباراتها هي كما يلي : (أ) يجب أن يكون صحيحا بسبب (ب) مع أن (أ) في الحقيقة لا يلزم من (ب) في اي حال . ومثال ذلك انني في أثناء حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ سمعت اذاعة دعائية من المانيا تقول ان المستر تشرتشل كان وزير الحربية في حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ وكان في المنصب نفسه مرة ثانية سنة ١٩٣٩ ولذلك فان هذا دليل على أن الذي أحدث هذه الحرب هو المستر تشرتشل . وهذه حجة غير منطقية تماما ، لعدم وجود تلازم منطقي بين مقدمة الحجة ونتيجتها . بل انها تعتبر من قبيل القياس الفاسد ، لا بل انها ليست قياسا منطقيا وانما هي خدعة كلامية يقصد بها خلق الاقتناع في نفوس من هم على استعداد للاقتناع . فالحجة غير منطقية كما لو قلت : « كلب الجار واقف الان على بابه ، وكان واقفا في المكان نفسه يوم

امس صباحا ، وهذا دليل على أنه هو الذي سرق النقانق من مطبخي بعد ظهر امس » . وقد تكون النتيجة صحيحة ، (اي ان الكلب هو الذي سرق فعلا) ، ولكن الحجة المستعملة ليس فيها ما يثبت هذه الصحة .

والحجة التي ناقشناها على الصفحة ٤٨ ــ ٤٩ ــ بأن السكان الافريقيين في جنوب أفريقيا لا يمكن أن ينالهم حيف بسبب قوانين التمييز العنصري هناك لان حكومة جنوب أفريقيا تنفق المال على انشاء المساكن لهؤلاء الافريقيين ، هذه الحجة يمكن تصنيفها بأنها حجة غير منطقية . ومثل هذه الحجة غير المنطقية قد تكون نقطة البداية في الروغان اذا حولت الجدال عن القضية الاولى الى بحث النقطة الجديدة التي اقحمت في النقاش ، وهي مقدار المال الذي ينفق في جنوب آفريقيا لمساكن الافريقيين . ولكن اذا كانت هذه النقطة الجديدة لم تؤد الى تحويل المناقشة الى اتجاه جديد وانما اتخذت برهانا على صحة الموقف الاصلي فليس في الامر روغان ، ولكن تبقى النقطة الجديدة حجة غير منطقية .

ولربما لا تستعمل الحجة غير المنطقية هذه استعمالا عمديا في كثير من الاحيان . بل الارجح هو ان المشتغلين بالمناقشة يغلب عليهم أن لا يراعوا الدقة والعناية في حججهم التي يستعملونها في الدفاع عن موقف لهم يكونون مقتنعين به أشد الاقتناع . والحجج غير اللازمة شائعة بقدر قليل ، فاذا كان احد الخصمين قد اخطأ واستعمل حجة من هذه الحجج فعلاج ذلك هو أن تطلب انت اليه ان يفسر لك على وجه التمام كيف يمكن لحجته هذه أن تثبت صحة نتيجته . ولكن هذا الطلب اقرار بالجهل ،فاذا كانت الحجة في الحقيقة منطقية وكان خصمك قادرا على تبيين العلاقة بوضوح كانت بذلك له المزية عليك ، والا فان اقرارك بالجهل لم يضرك . والاسراف في الخوف من الاقرار بالجهل يجعلك عرضة للاعوجاج في الجدال .

وثمة حجة أخرى من قبيل الغش وهي التي ذكرها (بنثم) Bentham (١) فيكتابه : The Theory of Fictions « نظـرية الفروض الوهمية » . وهذه الحجة ما زالت تستعمل استعمـالا غير قليل وتتخذ صورة التثبيط عن بذل الجهد لمقاومة شر مشهود وذلك بالتعلل بوجود شر اخر يقال عنه انه اسوأ من الشر الاول ، ولا يبدي صاحب هذه الحجة اي اقتراح لعمل شيء ضد هذا الشر الأخر . مثال ذلك الحجة التي تتخذ ضد محاولات الغاء الحروب ، وفيها أن عدد حالات الموت بسبب حوادث المرور على الطرق في هذه البلاد (انجلترا) خلال عدة سنين مضت كانت أكثر من مجموع الاصابات في حرب فيتنام . وقد تكون هذه الحجة أساسا معقولا لان ينظر اليها بأنها مهمة في ايقاظ الهمم وحفزها على ايجاد سبل للتقليل من عدد حوادث الطرق . ولكنها حجة مخادعة اذا تقدم بها احد على انها سبب للكف عن محاولة بذل الجهد في سبيل انهاء حرب فيتنام أو إنهاءاي حرب اخرى .

والغش في استعمال هذه الحجة قائم على انه لا يوجد سبب وجيه يحول دون العمل على انجاز الامرين : الحيلولة دون مقتل الناس بسبب حوادث الطرق والحيلولة ايضا دون مقتلهم في الحروب .

وهذه الحجة تخدم غرض المناقش المخادع لانها قابلة للتحوير حتى تتلاءم مع عدد كبير من الاوضاع والمواقف . فيمكن استعمالها مثلا تعليلا لعدم اتخاذ اي عمل لابطال اي شر من الشرور ، على أساس انه ليس هناك من شر سيء ولا يكون في مقابله شر اخر أسوأ منه . فقد يتساءل مجادل عن السياسيين الراديكاليين لماذا يصرفون

---

١ ــ جيرمي بنثم (١٧٤٨ ــ ١٨٣٢) مصلح قانوني وسياسي انجليزي وضع نظرية المنفعة التي ترى ان يكون هدف السلوك البشرى هو تحقيق اكبر قدر من الخير لاكثر عدد من الناس . (ص . ح .) .

همهم الى أمور زهيدة مثل الاجور ومستوى المعيشة والخدمات الاجتماعية في بلادنا (انجلترا) مع وجود خطر التضخم السكاني في العالم الذي يهدد أساس الحضارة الانسانية . ويشبه ذلك أن سائقي السيارات في أيام الحرب مثلا اذا قدموا للمحاكمة لانهم جاوزوا حد السرعة المسموح به أو لانهم خالفوا انظمة ايقاف السيارات في مواقفها المعدة لذلك قد يحتجون بأن الشرطة يجب أن لا يعنوا بمثل هذه الامور الصغرى وانما يجب ان تتركز جهودهم في سبيل غاية واحدة وهي كسب الحرب . وقامت في اوستراليا محاورة جدلية عن الفرق الرياضية من جنوب أفريقيا هل يسمح لها بالاشتراك في مباريات في اوستراليا . وانقسم المتجادلون الى فريق يحبذ اللعب مع هذه الفرق الرياضية بحجة أن الذين يعارضون ذلك هم من المرائين المنافقين ذلك لان اهمال استراليا لسكانها الاصليين أسوأ من معاملة جنوب أفريقيا للسكان السود فيها — وهي حجة سليمة اذا اتخذت من اجل تحسين معاملة سكان اوستراليا الاصليين ، ولكنها لا تكون صالحة لتبرير الامتناع عن الاحتجاج على التمييز العنصري في الفرق الرياضية ، اذا كان المرء يرى ان هذا التمييز عمل خاطيء . وهذه الوسائل الخداعية كلها قد تعتبر حيلا جدلية ماهرة فطنة ، ولكنها مع ذلك تعد غير سليمة بتاتا في معرض الحجج المعقولة . والجواب على جميع هذه الوسائل هو انه اذا كان (ع) شرا أسوأ من (ص) فلا مبرر لعدم العمل على ازالة (ص) ، مع أن هذه الحجة سبب وجيه وسليم لتشديد العزائم في مكافحة (ع) ايضا .

ويوجد أخيرا حيلة شائعة في الجدال لا ينظر اليها عادة بأنها حيلة ، وهي جديرة بالنظر فيها في هذا المقام . وهذه الحيلة تكون عن طريق عرض راي بين متجادلين يكون بمثابة موقف وسط بين موقفين متطرفين . ونحن جميعا نحب اختيار الحل الوسط ، فاذا أوصانا أحدهم باتخاذ موقف يكون وسطا بين موقفين متطرفين

فاننا نجد عادة في انفسنا اقبالا على الاخذ بهذه التوصية . وقد يغتنم البعض هذا الميل ، فيعرضون علينا آراءهم بهذه الطريقة ، وان كانت الآراء على أبعد ما يكون من الاختلاف فيما بينها .

فمثلا ، يأتينا رجل من دعاة حزب الاحرار ويشير الى ان المحافظين يمثلون طرفا مغاليا في السياسة وان الاشتراكيين يمثلون الطرف المغالي الاخر (نقيض المحافظين) في حين ان الاحرار يسيرون مسيرا معتدلا بين هذين الطرفين . فاذا كنا من المعتدلين شعرنا بأنه يجب علينا مؤازرة حزب الاحرار . ولكن يزعزع هذه الثقة قليلا قول داعية من دعاة حزب المحافظين عند زيارته لنا بأن رأي المحافظين في معنى الحرية الدستورية هو وسط بين راديكالية الاحزاب التقدمية وبين طغيان الفاشستية . ثم تتزعزع ثقتنا أكثر من ذلك حينما يأتي داعية من دعاة حزب العمال ويحضنا على مناصرة حزبه لان هذا الحزب يسير سيرا وسطا بين الاحزاب الراسمالية من جهة وبين الشيوعية الثورية من جهة اخرى ولعل المطاف ينتهي بنا اخرا الى اجتماع شيوعي يقول فيه احد الخطباء (وهو قول حق) بأن البرنامج الشيوعي يتجنب من جهة الموقف المتطرف للاحزاب الراسمالية والاشتراكيين البورجوازيين ويتجنب من جهة أخرى الفوضويين الذين ينكرون انكارا تاما ضرورة وجود حكومة منظمة .

وفي النهاية لا بد لنا من أن نصل ، مع الاسف ، الى نتيجة هي أن الرأي القائل بأن الحقيقة وسط بين طرفين ليس له فائدة عملية في كونه معيارا يعتمد عليه في كشف الحقيقة اين تكون ، لان كل رأي يمكن عرضه على انه وسط بين طرفين .

وثمة سبب اخر يدعونا الى الارتياب في هذا النوع من التفكير الاعوج وهو أن وجود طرفين متناهيين ووجود وسط بينهما لا يقرران موقف الحقيقة تماما لان هذه الحقيقة قد يحتمل لها أن تكون في الوسط بقدر ما يحتمل لها أن تكون في أحد الطرفين . فاذا

اردت انا مثلا ان اقنعك بأن اثنين واثنين مجموعهما خمسة فقد ارغبك في ذلك على اعتبار ان هذا الحساب في موقع متوسط بين موقعين مغاليين ، احدهما موقف المتطرفين الذين يصرون على ان اثنين واثنين مجموعهما أربعة والثاني موقف المتطرفين الاخرين الذي يرون في تطرفهم ان اثنين واثنين مجموعهما ستة . وينبغي علي ان اتوجه اليكم بحكم كونكم معتدلين في الراي نساء ورجالا بأن لا تنساقوا وراء احد الموقفين المتطرفين المذكورين ، وأن تتبعوا معي السبيل المعتدل الوسط وان تصروا معي على القول بأن اثنين واثنين مجموعها خمسة . وقد تصدقوني جميعكم من نساء ورجال لكونكم معتدلين ، وتؤمنوا بقولي ، ولكننا ، انا وانتم على السواء ، مخطئون لان الحقيقة فعلا في جانب من الجانبين المتطرفين .

ولكن يجب أن لا يفترض من هذا بطبيعة الحال ان كل تمثيل لموقف على أنه وسط بين طرفين متناهيين يجب بحكم الضرورة ان يكون قائما على حجة مخادعة ، اذ ان الحجة قد لا تكون حجة على الاطلاق ، كأن يستعمل هذا التمثيل بأمانة كوسيلة لايضاح او لتفسير موقف ما ، ولكن ليس كوسيلة لاقناع السامعين بصحتها .

ولو فرضنا مثلا أن محاضرا في علم النفس الاجتماعي اراد ان يتكلم عن سلوك الانسان سلوكا لائقا ومراعيا للآداب الاجتماعية ، وكم من هذا السلوك يكون منشؤه الميول الفطرية المولودة مع الانسان ، فان هذا المحاضر قد يقابل بين نظرية هوبز (١) Hobbes القائلة بأن الناس بطبيعتهم أعداء يحارب بعضهم بعضا وانهم لا يكونون مواطنين صالحين الا بفعل الخوف ، وبين نظرية كروبوتكن (٢) Kropotkin الذي يرى أن الناس بغريزتهم يؤثرون الغير على

١ ـ توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) فيلسوف سياسي انجليزي يرد في كتابه « الحاكم المطلق » استبداد الدولة . ص. ج .

٢ ـ الامير بطرس كروبوتكن (١٨٤٢ ـ ١٩٢١) زعيم مدرسة الفوضويين الروس وصاحب كتاب « العون المشترك » . ص. ج.

انفسهم ، وانهم لم يصبحوا أنانيين الا بنتيجة التأثير السيء الذي احدثتــه النظــم الاجتماعية التــي عاشــوا في ظلهــا في المجتمع الراسمالي . وقد يشير هذا المحاضر الى اعتراضات له على هاتين النظريتين كلتيهما ويبني لنفسه نظرة وسطا بأن في الانسان ميولا طبيعية فطرية تجعل سلوكه منسجما مع الاداب الاجتماعية وميولا اخرى تجعل سلوكه منافيا لاداب المجتمع أو تجعله اجراميا . وهو في هذا لا يرى حاجة الى أن يقول او يلمح بأن نظرته هذه صحيحة لانها وسط بين نظرية (هوبز) ونظرية (كروبوتكن) ، وقد يكون قد استعمل هاتين النظريتين لتساعداه على توضيح موقفه الخاص به ليس الا . و فيالامكان ان يفسر اي رأي دون عناء عن طريق مقابلته بآراء اخرى . واحسن ما يفسر الراي به هو أن يقابل بجملتين من الآراء تكونان على طرفي نقيض بالنسبة اليه . ولكن من السهل سهولة خطرة أن يزل الانسان عن هذا المنحى الخالص في استعمال طريقة المقابلة فيقع في تفكير أعوج عن طريق الايحاء بأن موقفه يجب أن يكون سليما مقبولا لانه وسط بين طرفين متناهيين .

وحيلة الوسط هذه حيلة شائعة جدا بين الناس حتــى أن الكثيرين منهم لا يدركون أبدا أنها مثال من التفكير الاعوج . وعلاجها علاجا ناجعا لا يكون بالاقتصار على لفت الانظــار اليــها وقت استعمالها . واظن آن خير ما يعمل لدحضها هو أن يشار الى مواقف اخرى لا يوافق عليها الخصم ويمكن تصويرها بأنها وسط بين طرفين متناهيين .





الفصل الرابع

بعض المغالطات المنطقية (1)

كنا قد ذكرنا في الفصل السابق جملة من وسائل الاحتيال والغش في الجدال والحوار ، ومن ذلك مثلا الادعاء ضمنا بأن قولا ما يجب أن يكون صحيحا لانه وسط بين طرفين ، وذكرنا ايضا ان هذه الوسائل تستعمل بشكل عام صراحة ودون تستر .

وهناك بالطبع اغلاط اخرى في التفكير ، التي لا تخفى ، حتى على أقل الناس تمسكا بالمنطق ، بشرط أن تعرض على صورة بسيطة ، ولكن ، قد يسهو عنها المتجادلون وهم في غمرة الجدال ، اذا اغفلت عدة خطوات منها فغمضت أو كان التركيب العام للحجة مستترا تحت ستار من كثرة الكلمات جعل من العسير رؤية هذه الحجة والتعرف اليها . وكذلك اذا كانت تدور حول أمر يهمنا بدرجة كبيرة ويثير فينا المشاعر بقوة .

وكون الحجة صحيحة او باطلة يمكن توضيحه في الغالب عن طريق ترتيب صيغتها وتنسيقها مع تحويلها الى صورة هيكلية نستعيض فيها عن الامور الجدية التي هي المدار في الحجة بأمور اخرى مبتذلة لا نقيم لها وزنا ولا لنا فيها غنية ، أو بجملة من الرموز مثل أ ، ب ، ج وهي مما لا يثير فينا أي انفعال على الاطلاق .

---

1 ــ راجع هذا الفصل الدكتور فؤاد زكريا .

فلنفرض مثلا اننا سمعنا الحجة التالية في مناقشة عن الفاشستية يقول فيها القائل : « اي نظام للمجتمع لا يكون فيه للمواطنين حرية في انتقاد الحكومة هو نظام رديء ، وان جلب للمواطنين منافع من الرخاء المادي والوحدة الوطنية . وعلى هذا الاساس يجب أن نستنكر نظام الحكم الفاشستي في بلد ما لانه يعد انتقاد الحكومة اجراما » .

ومن الواضح ان هذه الحجة قد تستوجب منا ان نسأل عنها سؤالين : (١) هل الوقائع الواردة في الحجة صحيحة أم لا و (٢) وهل الحجة سليمة بمعنى انه اذا كانت الوقائع صحيحة ترتبت عليها نتيجة صحيحة ، ويعنينا من المسألة هنا السؤال الثاني عن سلامة الحجة ، وللتدرج نحو الحكم على هذه المسألة نضع الحجة على هذا الشكل تبسيطا لها ، فنقول :

كل الحكومات التي لا يمكن لمواطنيها ان ينتقدوها حكومات رديئة .

والحكومة الفاشستية احدى الحكومات التي لا يمكن لمواطنيها أن ينتقدوها .

لذا فالحكومة الفاشستية رديئة .

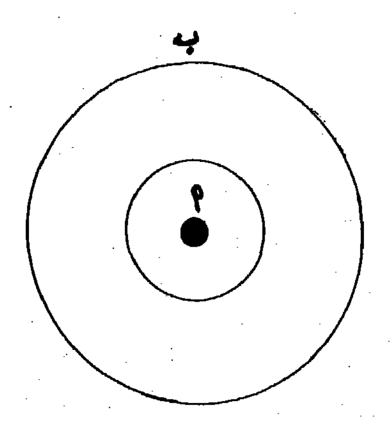
وقد نبسط هذا الشكل تبسيطا اخر باستعمال جملة من الرموز الحرفية ، فنضع رمز الحرف (أ) للدلالة على صنف الحكومات التي لا يكون لمواطنيها حرية انتقادها ، والحرف (ب) للدلالة على صنف الاشياء الرديئة ، وحرف (ج) للدلالة على صنف الحكومات الفاشستية . وتكون القضية قد اتخذت هذا الشكل المختصر :

كل المنتمين الى الفئة ا هم ب
كل المنتمين الى الفئة حـ هم ا
لذا فكل المنتمين إلى الفئة حـ هم ب .

وهو الشكل العام لصنف معهود واضح من الحجج المنطقية السليمة .

ولو استخدمنا هنا لغة المنطق الارسطي التقليدي ، لقلنا ان هذا قياس من ضرب « باربارا » (١) . ويتبين بوضوح أن الحجة سليمة ؛ وبعبارة أخرى أن العبارتين الاوليين (وهما المقدمتان) اذا كانا صادقتين فان العبارة الثالثة (وهي النتيجة) تكون صادقة حتـــما .

وسلامة الحجة يمكن توضيحها زيادة على ذلك بتمثيلها على شكل رسم تخطيطي يكون فيه سطح الدائرة الكبرى الخارجيــة مرموزا اليه بحرف (ب) (وهو صنف الاشياء الرديئة) وسطح الدائرة الصغيرة في داخل الدائرة الكبرى مرموزا اليه بحرف (أ) (وهو صنف الحكومات التي لا تسمح لمواطنيها بانتقادها) ويرمز للدائرة الصغرى السوداء بحرف (ج) وهي تمثل صنف الحكومات الفاشستية .



١ ــ وهو قياس تكون فيه المقدمتان الكبرى والصغرى كلية موجبة ، وتكون فيه النتيجة كلية موجبة ايضا . (المترجم)

فالوضع المذكور في القضية عن أن كل الحكومات من الصنف (أ) هي حكومات رديئة ممثلة في الرسم بالدائرة (أ) من حيث هي محتواة بأجمعها في داخل الدائرة (ب) والوضع الوارد فيها عن ان كل الحكومات الفاشستية هي من الصنف (أ) مبينة في الرسم بالدائرة الصغيرة السوداء من حيث هي بكليتها ضمن الدائرة (أ) . ويتلو من ذلك أن الدائرة (ج) يجب ان تكون بأسرها في داخل الدائرة (ب) فكل الحكومات الفاشستية هي ولا بد حكومات رديئة . وقد يستعمل بعض المجادلين هذه الصورة من القضية باستعمال شيء اخر مكان (ج) ، كأن يضعوا بدل « الحكومات الفاشستية » المرموز اليها بحرف (ج) هنا ، شيئا اخر مثل « الديكتاتورية » العسكرية أو « الحكم الشيوعي » او حكومة بلد معين .

وقولنا ان الحجة سليمة لا يعني سوى انها مطابقة لصيغة منطقية صحيحة وأن المقدمتين اذا كانتا صادقتين فان النتيجة تكون صادقة ايضا بالضرورة . ومن الواضح أن هذا لا يكفي لضمان صحة النتيجة ،اذ انه يجب علينا ايضا ان نعلم يقينا بأن العبارتين الواردتين في المقدمتين صحيحتان ، مثال ذلك القضية التالية التي نضعها على سبيل الايضاح :

كل نباتات الفطر سامة

الفقع نبات فطري

فالفقع سام

هذه حجة سليمة ، ولكن مع انها سليمة من وجه الشكل المنطقي فان المقدمة الاولى فيها كاذبة (١) . واية حجة ذات شكل منطقي صحيح ، وقائمة على مقدمتين كاذبتين قد تؤدي اما الى نتيجة كاذبة أو الى نتيجة صادقة . وفي امكاننا ان نجعل القضية

---

١ ـ وواضح للقارىء ان النتيجة غير صحيحة .

المنطقية التي نحن بصددها تؤدي الى نتيجة صادقة بالاستعاضة عن (الفقع) بنبات فطري اخر هو « فطر الفاريقون » ، في السطرين الثاني والثالث . وبهذا التبديل تصبح النتيجة صحيحة لان فطر الفاريقون سام جداً . ولكن يظل من الصحيح مع ذلك أن النتيجة السليمة القائمة على مقدمتين كاذبتين ليست برهانا على النتيجة .. لاننا لا نستطيع أن نستدل منها عما اذا كانت النتيجة صادقة ام كاذبة ، كما نستطيع أن نستدل من حجة صحيحة ذات مقدمتين صادقتين . وهذه حيلة توجد أحيانا في حجة بعض المجادلين الذين يستعملون امورا كاذبة أو مشكوكا في صحتها بوصفها مقدمات ، فيلفتون الانتباه الى صحة منطقهم من الناحية الشكلية . وقد تنجح هذه الحيلة فيختمون مجادلتهم وفيها ما فيها من بالغ الشك ، بتصريح الفائز المنتصر :« وهذا شيء منطقي ! » .

واذا كنا لا نستطيع البرهنة على صحة نتيجة ما بواسطة حجة صحيحة الشكل المنطقي ولكنها مبنية على مقدمتين كاذبتين فاننا لا نستطيع كذلك أن نبرهن على صحة نتيجة ما بواسطة حجة فاسدة في شكلها المنطقي ، ولكنها مبنية على مقدمتين صادقتين . ولننظر الان مثلا في الحجة التالية :

« الاوهام الباطلة التي تضلل الناس منشؤها ميلهم الى التصديق بصحة الامور التي تتطابق مع رغباتهم . واحدى الرغبات الشديدة التي تؤثر في هذا التصديق عند الانسان هي أمله في أن ينجو من الفناء عند الموت ويحيا فيما بعد حياة سرمدية في مأوى من النعيم الابدي الامثل . وليس من احد ، له أي نصيب من الفهم لاصل الاوهام الباطلة الذي يرتد الى امنيات الناس ، يخفى عليه أن هذا الايمان بخلود النفس ضرب من الوهم الباطل » .

---

١ ـ فطر الفاريقون نبات شبيه بالفقع ولكنه سام .

وهنا ايضا قد لا نكون على يقين من هذه الحجة هـل هي سليمة او فاسدة ، لان الحجة هي عن مسألة نميل في طبيعتنا الى أن نهتم بها اهتماما شخصيا خاصا ، وكذلك لان صيغة الحجة استترت بستار من الكلمات الكثيرة . ولكن اذا وضعنا الحجة في قالب بسيط فانها تصبح على الشكل التالي :

الاوهام الباطلة اعتقادات بأشياء نتمنى أن تكون صحيحة

الاعتقاد بخلود النفس هو اعتقاد بشيء نتمنى أن يكون صحيحا

فالاعتقاد بخلود النفس وهم باطل .

وقد نضع ذلك في صورة موجزة باستعمال رموز الاحرف أ ، ب ، ج :

كل (أ) هي (ب)

(ج) هي (ب)

اذن (ج) هي (أ)

ولا يخفى أن هذه الحجة غير صحيحة ، ويظهر ذلك اذا استبدلناها بمثال تافه مبتذل له مقدمتان صادقتان تؤديان الى نتيجة كاذبة واضحة :

كل القطط حيوانات ذوات اربع

كل الكلاب حيوانات ذوات اربع

اذن كل الكلاب قطط .

وفساد هذه الصورة من الحجة يظهر جليا اذا وضعناها في شكل رسم تخطيطي كالرسم الوارد في الصفحة (٦٣) . فعندئذ يكون علينا ان نضع الدائرة التي تمثل (أ) في داخل الدائرة التي تمثل (ب) ، ولكن كل ما نعلمه عن النقطة الدائرية السوداء التي تمثل (ج) هو انها يجب أن تكون في مكـان ما داخل الـدائرة

الصغرى (أ) واما خارجها ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن النتيجة قد تكون صادقة أو كاذبة .

وهذا النوع من التفكير الاعوج يسميه المنطقيون « مغالطة الحد الاوسط غير المستغرق » وسبب هذه التسمية أن الحد المشترك بين المقدمتين ، وهو الحد الاوسط (ب) ، لا يسري على الفئة كلها (اي فئة الاعتقاد بأمور نتمنى أن تكون صحيحة) في أي من المقدمتين ، بمعنى أن الكلمة المحذوفة من امام (ب) هي « بعض » لا « كل » في كلتا المقدمتين . فمن الواضح أنه لا يصح القول بأن جميع الاعتقادات بالاشياء التي نتمناها أن تكون صحيحة هي أوهام باطلة ، لان بعضها كذلك وبعضها الاخر خلاف ذلك . فنحن مثلا نتمنى عندما نأوى الى الفراش أن نبقى على قيد الحياة وفي صحة جيدة في صباح الغد بعد الافاقة من النوم ، وهذا ما يحدث بالفعل في اغلب الاحيان ، وقد نتمنى أن نربح اليانصيب على تذكرة اشتريناها ، دون أن يحدث ذلك في اغلب الاحيان . ولكن اذا اعتقدنا بأننا واثقون من الربح ، فهذا الاعتقاد وهم باطل . ولو أن المقدمة الاولى في الحجة التي كنا بصددها آنفا كانت هي أن « جميع المعتقدات المبنية على ما نتمنى أن يكون صحيحا معتقدات وهمية باطلة » لكانت الحجة سليمة منطقيا، ولكن المقدمة الاولى تكون عندئذ كاذبة . وقد سبق لنا أن بينا ان النتيجة المتمخضة عن حجة ذات شكل منطقي صحيح ومقدمتين كاذبتين لا يجوز الاعتماد عليها بأكثر من الاعتماد على حجة منطقها خاطىء . واقصى ما يمكن استنتاجه على وجه صحيح من الوقائع الواردة في هذه الحجة هو أن الاعتقاد بخلود النفس قد يكون وهما باطلا . واذا اراد المرء أن يحسم الامر هل هذا الاعتقاد وهم باطل أم لا وجب أن يكون هذا الحسم على أساس اعتبارات غير القول بأن هذه المعتقدات متطابقة مع امانينا .

والواقع أن الحجج من هذا النوع أكثر شيوعا مما قد يظن بعض الناس . وهي بطبيعة الحال تتعلق بامور لها مساس شديد باحساساتنا وعواطفنا وتهمنا كثيرا ، وفي العادة لا توضع هذه الحجج في عبارات بسيطة بحيث تكون عملية الاستدلال واضحة جلية . ولكننا قد نقع ، من ضمن هذه الحجج ، على حجة كالتالية : « الاشتراكيون الذين يدعون بالاشتراكيين المعتدلين ليسوا الا شيوعيين مستترين . فهم يريدون نقل ملكية الصناعة من ايدي القطاع الخاص الى الدولة . وهذا ما فعله الشيوعيون في روسيا » . أو بصورة مضادة : « الحكومتان الراسماليتان في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة حكومتان فاشستيتان . فالحكومة الفاشستية في المانيا كانت ضد الشيوعية ، وكذلك حكومتا بريطانيا العظمى والولايات المتحدة » . هاتان الحجتان والحجج التي على منوالهما هي أمثلة على « مغالطة الحد الاوسط غير المستغرق » .

واكثر ما يقع المرء على هذه الحجة اذا كانت جزءا من حملة دعائية للحط من شأن شخص يناصر قضية لا يوافق عليها معظم العناصر التقليدية في الراي العام ، أعني شخصا يقوم بدور اساسي في مقاومة حرب اشتبك فيه بلده او وطنه . فالدعاية ضد هذا الشخص قد تكون على صورة كالصورة التالية : « الدكتور (س) لا يكف عن انتقاد وطنه بسبب المشاركة في الحرب القائمة . ومقاومة هذه الحرب أحد أركان الدعاية الشيوعية . ولذلك فمن الواضح أن الدكتور (س) هو في الحقيقة شيوعي » . واذا وضعنا هذه الحجة في شكل هيكلي تبين انها هي ايضا مغالطة من الطراز نفسه . وما قيل في المقدمتين لا يمنع من وجود منتقدين للحرب من غير الشيوعيين ولا مع كون الدكتور (س) واحدا من هؤلاء المنتقدين الاخيرين . وعلى ذلك فالنتيجة القائلة بأن « الدكتور (س) هو في الحقيقة شيوعي » لم يقم البرهان عليها .

والخطوة الاولى الضرورية لنا لنتمكن من كشـف المغالطة المنطقية في الحجة او الجدل هي أن نتخلص من عادتنا في الحكم على سلامة الحجة او بطلانها على اساس موافقتنا على النتيجة او عدمها ، وان نصرف همنا الى فحص الصورة التي تتخذها الحجة . وبما ان الصورة قد تنطمس احيانا بالطريقة التي تعرض الحجة بها ، وبما أننا ايضا نميل الى التغافل عن عدم سلامة الصورة اذا كان موضوع الحجة موضوعا يهمنا امره كثيرا ، فمن الخير لنا أن نربي في انفسنا عادة وضع الحجج التي نرتاب في صحتها في شكل هيكلي ورموز مثل (أ) و (ب) و (ج) . فاذا فعلنا ذلك أصبح من السهل علينا أن نرى في الحال هل الحجة سليمة ام لا . واكبر قيمة للمنطق يستفيد بها من يريد التمييز بين التفكير المستقيم والاعوج هي في انه يعلمه كيف يضع في شكل هيكلي ويتخذ من ذلك وسيلة للحكم عما اذا كانت هذه الحجج تؤيد النتائج المتمخضة عنها تأييدا سليما أم لا .

ويعد القياس Syllogism شكلا قديما للحجة التي توضع في صورة هيكلية ، وهو شكل يسهل استعماله في أغلب الاحيان ، ولكنه ليس الشكل الوحيد فلننظر الان في طريقة اخرى توصلنا الى الغاية نفسها .

ان كل حجة يمكن وضع بدايتها في صورة قول مفاده انه اذا كان (ف) يصدق على « ص » المعينة فان (ق) يصـدق ايضـا على (ص) . فالحجة ، مثلا ، التي ذكرناها على الصفحة ٦٢ يمكن الاعراب عنها في الصورة التالية : اذا كان ثمة حكومة لا يستطيع مواطنوها انتقادها ، فتلك الحكومة رديئة . فالحكم (ف) (وهو القول بأن مواطنيها لا يستطيعون انتقادها) يصدق على حكـومة فاشستية ، ويترتب على ذلك ان (ق) (وهو انها حكومة رديئة) يصدق ايضا على حكومة فاشستية . ويتضح هنا أن النتيجة تتلو بصورة سليمة من الكلام المتقدم : فاذا اتفقنا على أن اية حكومة لا

يستطيع مواطنوها نقدها بحرية هي حكومة رديئة ، وان الحكومة الفاشستية لا يستطيع مواطنوها نقدها بحرية ، فانه لا نكران عندئذ بأن اية حكومة فاشستية هي رديئة .

وتوجد نتيجة اخرى يمكن استنتاجها بطريقة مشروعة من « اذا كانت (ف) ترتب عليها (ق) » وهي أنه اذا كانت (ق) لا تصدق على حالة ما خاصة فان (ف) أيضا يجب الا تصدق ، فاذا كانت حكومة اي بلد حكومة حسنة فمعنى ذلك في واقع الحال أن حكومة ذلك البلد تسمح بأن ينتقدها مواطنوها .

ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنه يمكننا من الجملة الشرطية : اذا كان (ف) صادقا كان (ق) صادقا (أي ان (ف) يتضمن (ق)) ان نستنتج نتيجتين سليمتين : ـ

١) أي شيء يصدق عليه (ف) ، يصدق ايضا عليه (ق) .

٢) اي شيء لا يصدق عليه (ق) ، لا يصدق ايضا عليه (ف) .

وتوجد ايضا نتيجتان مغالطتان يمكن استنباطهما خطأ من القول بأنه اذا كان (ف) صادقا كان (ق) صادقا ، وهما :

(١) اي شيء يصدق عليه (ق) فان (ف) أيضا يجب أن يصدق عليه . فاذا عرفنا ان حكومة بلد من البلاد رديئة ، لا نستطيع أن نستنتج أن مواطنيها ليسوا احرارا في انتقادها ، فقد تكون لهذه الحكومة صفات أخرى من الحكم تجعلها رديئة ، غير التضييق على حرية مواطنيها في الانتقاد .

(٢) اي شيء لا يصدق عليه (ف) فان (ق) ايضا يجب الا يصدق عليه . فاذا عرفنا ان حكومة تعطي مواطنيها الحرية لانتقادها ، فاننا لا نستطيع ان نستنتج ونحن في مأمن من الخطأ بأن تلك الحكومة حكومة حسنة ، فقد تكون حسنة وقد لا تكون (من جهات أخرى) .

ونحن نقول ان النتيجتين الاخيرتين مبنيتان على مغالطة ، فلسنا نعني أنهما كاذبتان بالضرورة ، وانما نعني فقط أن الصحة فيهما لا تلزم من القول الذي سبقهما ، وقد تكونان كاذبتين او صادقتين . ويمكن توضيح المغالطة فيهما على احسن وجه بمثال بسيط تكون فيه النتيجة كاذبة صراحة . فمما لا شك فيه مثلا أن كون الحيوان فيلا يتضمن أن يكون له خرطوم . ولكن اذا استدللنا من ذلك على أن كل حيوان له خرطوم يجب أن يكون فيلا فقد وقعنا في مغالطة من النوع (١) . وهذه النتيجة فاسدة صراحة لان « التابير » (١) حيوان له خرطوم . واذا استدللنا من العبارة السابقة على ان اي حيوان غير الفيل لا يكون له خرطوم فقد وقعنا في المغالطة من النوع (٢) ، ويدحض هذا القول ايضا أن التابير غير الفيل له خرطوم .

وفي هذا المستوى من التبسيط في العبارة يكون ما ذكرناه حتى الان بينا بذاته . ولكنه قد يفقد وضوحه هذا في الانواع الاكثر تعقيدا من الحجج التي تتضمن أمثال هذه المغالطات . وعند معالجة هذه الحجج الاكثر تعقيدا يستحسن اتباع طريقة التمثيل على الشكل الهيكلي بوصفها اداة لاختبار الحجة . مثال ذلك أن الحجة القائلة ان الدكتور (س) لا بد أن يكون شيوعيا لانه يعارض حربا يعارضها مثله الشيوعيون ايضا ، يمكن وضعها في صورة الحجة المغالطة من النوع (٢) ، كما يلي :

اذا كان (ف) يستلزم (ق) ، فان (ق) يستلزم (ف) أعني في هذه الحالة :ـ

كون المرء شيوعيا يستلزم معارضة الحرب .

---

١ ـ التابير من الحيوانات ذوات الاظلاف اقرب الى الحصان منه الى الفيل وتمتد شفته العليا على نوع هيئة خرطوم قصير . ومعظم انواعه تعيش في امريكا الوسطى والجنوبية ويعيش منه في الملايو . (المترجم)

ولذلك فان معارضة الحرب تستلزم ان يكون المرء شيوعيا .

فالنتيجة القائلة بأن الدكتور (س) لا بد أن يكون شيوعيا لانه يعارض الحرب نتيجة لا تلزم بالضرورة أكثر مما تلزم النتيجة القائلة ان التابير فيل . والامثلة الاخرى التي قدمناها لايضاح مغالطة الحد الاوسط غير المستغرق يمكن معالجتها بدورها على هذه الصورة .

وعلى هذا فان هناك أكثر من طريقة واحدة لوضع الحجة في صورة تتضح فيها سلامتها او بطلانها . وفي الامكان استعمال احدى الطريقتين أو كلتيهما كما وصفنا . واختيارنا لاحداهما يتقرر بحسب السهولة العملية في استعمال الطريقة الفضلى في أداء الغرض المقصود وهو أن نستبين نحن ونبين لمن نتجادل معهم ، أي الحجج التي نستعملها او يستعملونها سليم وأيها باطل .

وليس هدفي من المناقشة الحالية للصور المنطقية ان احمل قراء الكتاب على شراء كتاب ابتدائي في المنطق واستذكار الصور السليمة والفاسدة من صور القياس المنطقي . فقد يكون هذا العمل من جانب القراء عملا يفيدهم في اجتياز امتحان في المنطق ، ولكنه لا يفيد في أداء غرضنا الحالي وهو معرفة اساليب اكتشاف الاغلاط في الاستدلالات وتجنبها . بل أن ما ينبغي ان نتعلمه من المنطق لهذا الغرض في رايي هو اساليبه الفنية في وضع الحجج والقضايا في شكل هيكلي . لانه اذا تم ذلك ، أمكننا ان نرى في الحال هل هذه الحجج والقضايا سليمة ام غير سليمة . واذا كنا لا نزال في شك من الامر فباستطاعتنا ان نستعمل موضوعات مختلفة في هذه الحجج ثم نرى هل الحجج تؤدي لا محالة الى نتائج صادقة . فاذا أدت الى نتائج صادقة احيانا والى نتائج كاذبة احيانا أخرى فان الصورة التي وضعت فيها الحجج غير سليمة حتما .

وقبل اختتام هذا الفصل يستحسن ان نذكر حجتين مغالطتين يعرفهما كل تلميذ في المدرسة ـ وأعني بذلك حجة (الحلقة المفرغة) أولا ، وحجة المصادرة على المطلوب في المناقشة ثانيا . وهاتان الحجتان تكونان عادة أقل شيوعا في مناظرات الكبار من المغالطات التي ذكرناها قبل قليل ، ولكنها مع ذلك تتكرر الى حد تستحق معه النظر فيها ولو بايجاز .

والصورة العمومية لحجة الحلقة المفرغة تكون كما يلي : (ف) صادق بسبب (ق) ، و (ق) صادق بسبب (ف) . ومثال ذلك ان احدهم قد يجادل مثلا بأن الانسان في عمله غير مخير لان ما يحدث عند الاختيار بين عملين (بين الفرار من الخطر وبين الثبات في وجه الخطر مثلا) هو أن الدافع الاقوى (الثبات في وجه الخطر ، مثلا) يتغلب على الدافع الاخر . فاذا سألنا كيف نعرف أن الدافع على الثبات في وجه الخطر كان الاقوى ، كان الجواب عن ذلك هو انه لا بد ان يكون كذلك لان هذا هو السلوك الذي حدث فعلا . فالحجة اذا يمكن وضعها على هذه الصورة : الدافع على الثبات تغلب على دافع الفرار لانه كان الدافع الاقوى ، وكان هو الدافع الاقوى لانه تغلب على الدافع الاخر ـ وهكذا دارت الحجة دورتها ثم عادت الى ما بدات به .

وقد سبق لنا ان ذكرنا (في الفصل الاول) الحجة العوجاء القائمة على المصادرة على المطلوب أو افتراض صحة المسألة المطلوب اثباتها مقدما . وهذا لا يحدث عادة معالنة ، لانه لو ادعى أحد بدعوى وبدأها بأن اتخذ النقطة المتنازع عليها مبدأ متفقا عليه فان هذه الحيلة لا تلبث أن تفتضح الى حد يستحيل معه أن تنجح . ولكن يمكن استعمال هذه الحجة اذا وضعت في عبارة تكون منطوية على النتيجة ، بشكل غير صريح . فالمثال الذي ورد في الفصل الاول عن استعمال الكلمات المنطوية على حكم أخلاقي حينما تكون المسألة المتنازع عليها مسألة أخلاقية ـ مثال قائم على حيلة

مفضوحة ، وان كان من الشائع استخدامها بوصفها جزءا مهما من حجة مركبة . فاذا اراد خصم أن يبرهن على ادانة شخص ما أو جماعة من الاشخاص فان الارجح عنده ان يصفهم بأنهم « اوغاد » أو « ارذال لا ذمة لهم » غير ذلك .

وثمة طريقة اخرى لاستعمال الحيلة نفسها وهي أن يفترض الخصم صحة الامر الذي يراد اثباته في التعريف . ولكي يمكن استعمال هذه الحيلة فلا حاجة الى اعطاء تعريف مقرر للكلمات المستعملة ، بل يمكن أن يقتصر الامر على الاستخدام الضمني لتعريف فيه مصادرة على المطلوب .

ولتبين ذلك لنفرض أن شخصين من الناس تخاصما فيما اذا كان المسيحيون يعيشون عيشة أفضل من عيشة غير المسيحيين . وفي رأي الاول انهم يعيشون هذه العيشة ، ويعارضه في ذلك الثاني الذي يشير الى اشخاص عديدين يذهبون الى العبادة في الكنيسة ويجاهرون بالايمان المسيحي ولكنهم مع ذلك يفرطون في شرب الخمر ، ويهملون عائلاتهم ، ويعيشون فضلا عن ذلك عيشة مزرية . ويرفض الاول أن يقبل هذا على انه بينة تنافي مدعاه ، لانه يعتقد أن هؤلاء الاشخاص ليسو مسيحيين « في الحقيقة » . فحجة الاول فيها ضمنا تعريف لمعنى « المسيحي » يشتمل على صفة أساسية وهي العيش عيشة فاضلة . وهكذا فان المسألة المتنازع عليها قد صودر عليها بسبب ما يتضمنه التعريف لمعنى « المسيحي » حسبما يفترضه الاول .

ومن الواضح أن الانسان يستطيع ان يثبت عددا كبيرا من القضايا بمثل هذه الطريقة . فقد يستطيع مثلا ان يبرهن على ان جميع الاوز أبيض بأن يرفض أن يدرج في عدد الأوز اي أوز غير أبيض . ومن الناس من لا يميل الى الاعتراف بأن هذا التفكير تفكير أعوج أو حجة عوجاء . فقد يحتجون بقولهم ان كلمة « مسيحي » تستعمل على أوجه مختلفة وان تعريفها تعريفا يتضمن العيش

عيشة فاضلة ، باعتبار ذلك علامة فارقة جوهرية بين العلامات التي يعرف بها المسيحي ، لا يعد أمرا غريبا غير معهود ، وانما هو سائغ مقبول ، فاذا قبل هذا التعريف فان النتيجة لا يمكن انكارها حينئذ ، وهذا صحيح ، واذاكان القول بأن جميع المسيحيين يعيشون عيشة فاضلة يتخذ فقط على أنه تعبير عن كيفية استعمالنا لكلمة « مسيحي » فلا يرد عليه كبير اعتراض . ولكن في الحجة التي وردت آنفا كان الشخص الاول يقصد شيئا اكثر من التعبير عن كيفية استعمال الكلمات ، فهو أراد يقينا أن يورد قضية عن أمر واقعي خارجي . فالقضية التي كان يقصدها هي أن الذين لهم علامات خارجية تميزهم بأنهم مسيحيون (كالذهاب الى الكنيسة والمجاهرة بالايمان المسيحي مثلا) يغلب عليهم ان يعيشوا عيشة فاضلة . وقد يجوز أن يكون هذا صادقا ، ولكن لا يمكن اثباته بواسطة الحجة التي استعملها صاحبنا الاول وذلك لانه وقع بتعريفه في مغالطة المصادرة على المطلوب .

ان « حجة الحلقة المفرغة » وحجة « المصادرة على المطلوب » يعترف بهما الجميع بانهما من حيل الغش والخداع في الجدال . ولكي نتمكن من تفنيد حجة من يستعملهما في جداله يكفي أن نقتصر في ذلك على اضهار الحيلة وفضحها . ولكي نفعل ذلك يقتضي الامر احيانا أن نضع حجة الخصم في صورة مبسطة ينكشف بها خطأ الخصم بمزيد من السهولة . ويتحقق ذلك بوجه خاص في الحالات التي تتم فيها المصادرة على المطلوب عن طريق نوع الالفاظ المختارة او التعريف .





الفصل الخامس

الكلمات والحقائق أو الأمور الواقعية (١)

يورد العالم النفساني والفيلسوف الامريكي وليم جيمس William James في أحد كتبه حكاية قال فيها انه عند عودته من مشية مشاها وحده خارج مخيم كان فيه أثناء العطلة ، وجد المخيمين مشتغلين في نزاع فلسفي عنيف ، وكانت المشكلة في هذا النزاع كما يلي : لنفرض أن سنجابا كان على جانب من جذع شجرة وكان رجل في مقابله على الجانب الاخر . وحينما شرع الرجل في الدوران حول جذع الشجرة ولكن مهما أسرع في دورانه كان السنجاب يعادله في سرعة الدوران حول جذع الشجرة في الاتجاه نفسه بحيث يكون الجذع دائما بينهما . فالسؤال الفلسفي هنا هو : هل يكون الرجل قد دار حول السنجاب أم لا . وكان المتنازعون منقسمين بالتساوي ، ولا يستغرب أن يكون الخصام قد دام بينهم طوال تلك المدة دون ان يصلوا الى ما يقربهم من حل للمشكلة . وتوسلوا الى (جيمس) حتى يسعفهم ، فقال لهم ان المسألة ليست مسألة اشياء وحقائق واقعية وانما هي مسألة كلمات ، اي مسألة كيفية استعمال عبارة « الدوران حول » .

وقد يكون هذا مثالا تافها مبتذلا لضرب من الخصومة في غاية الاهمية ، وموضع الاهمية فيها ان المسألة الخلافية لا يمكن الفصل فيها لان كلا من الجانبين في الخصومة يعتبرون أن المشكلة مشكلة حقائق في حين أنها في الحقيقة مشكلة كلمات . ومن الواضح

١ ـ ترجمة كلمة Facts .

ان الخلاف بين المتخاصمين ليس حول الحقائق . فالذين قالوا ان الرجل دار حول السنجاب دللوا على ذلك بأن الرجل كان أولا الى الشمال من السنجاب ثم الى الغرب منه ثم الى الجنوب ثى الى الشمال ثانية . وهذه حقيقة لم يختلف فيها مخاصموهم . والذين قالوا أن الرجل لم يدر حول السنجاب دللوا على ذلك بأن الرجل لم يكن على التوالي امام السنجاب ثم الى جانبه ثم الى خلفه ثم الى أمامه ثانية .. وهذه أيضا حقيقة لم يختلف فيها المخاصمون الاخرون اي ان الحقيقة ليس فيها خلاف بين الطرفين . والمسالة الوحيدة بينهما هي مسألة معرفة اية من هاتين الجملتين من الحركات الواقعية تنطبق عليها عبارة « الدوران حول .. » . فهذه المسألة الكلامية ما كان يمكن حلها ولو استمر الطرفان في الخصومة الى الابد . وواضح ايضا انه لا يمكن الفصل فيها في هذه الحالة بالرجوع الى قاموس لغوي ، لانه ما من قاموس في الوجود يستطيع أن يحدد معنى للعبارة « الدوران حول .. » . تحديدا دقيقا جدا بحيث يستطاع التمييز بين هذين الاستعمالين للعبارة الواحدة نفسها . كما أنه لا يمكن الفصل فيها بالجدال والحجة لان كلا من الطرفين له كامل الحق في استعمال العبارة « الدوران حول .. » على أي وجه من الوجهين يريده . ولو ان الطرفين المتخاصمين ادركا من البداية أن الخلاف فيما بينهما خلاف كلامي محض لتوقفا عن المخاصمة والجدل ادراكا منهما بتعذر الوصول الى قرار بات حاسم . والطابع المهم لهذه الخصومة هو أنها مشكلة لفظية جرى النقاش فيها (خطأ) على انها مشكلة واقعية .

والمناقشات من هذا الطراز كثيرة ، وعدم ادراك الطابع الكلامي لها يؤدي كثير من الجدال العقيم . ولعلنا كنا في الصفر نشتبك في خصومة عن الراوند هل هو فاكهة ام لا . ومن الواضح هنا أن القضية لا يتعلق بها أي أمر واقعي ، وانما هي مسألة كلامية عن كيفية استعمال كلمة « فاكهة » . فاذا اقتدينا بعلماء النبات في

تحديد معناها بأنها جزء النبات الحاوي على البذور ، فان الراوند لا يكون بواضح الحال من جملة الفواكه ويدخل في عداد سوق (أو سيقان) النبات . ولكن لو عرفنا « الفاكهة » بأنها نمو خضري نطبخها مع السكر لتصير حلوى تقدم كلون من الوان وجبة الطعام لكان الراوند فاكهة . ولك الحق ان تستعمل كلمة « فاكهة » في اي من المعنيين . ولكن اذا اصر العالم النباتي على أن طريقته في استعمال الكلمة هي الطريقة الحقة فبامكانك عندئذ أن تبين له أن المعنى الاخر هو أيضا من اصطلاحات اللغة الجارية بين الناس ، بل قد يكون هذا المعنى اقدم المعنيين . وما كان احد من الطرفين مع ذلك ليهتم كثيرا في المجادلة في هذه المسألة لو انهما أدركا كلاهما ان المسألة ليست الا عن كيفية استعمال كلمة ، وما بدا من الحيوية في جدال هذه المسألة لم يكن سببه الا الخطأ في اعتبار الخصومة كما لو كانت خصومة حول أمر واقع .

ولعلنا حين نكبر في السن نكون من طلاب الفلسفة وننخرط طوعا في منازعات من مثل هذا النوع كأن نناقش مثلا مسألة اللون الاخضر هل هو موجود فعلا في العالم الخارجي أم هو في اذهاننا فقط . فلو أدركنا أن هذه المسألة انما هي مسألة كلامية عن كيفية استعمال كلمة « أخضر » وهل هي للدلالة على لون العشب وأوراق النبات أو للدلالة على ما يعترينا من احساس عند النظر الى العشب أو الى ورق النبات لوضح لدينا أنه ليس في المسألة أمر يهمنا أن نناقشه . وفي استطاعتنا استعمال الكلمة في أية من الطريقتين ، فهي تستعمل على الوجهين في كلام الناس المعتاد ، كما يحدث عندما نقول : « العشب اخضر حقيقة ، وان كان لا يبدو اخضر بتأثير هذا النور » ، فهنا نستعمل كلمة « أخضر » من الجزء الاول من العبارة دلالة على أن في العشب خاصية الخضرة الموجود فيه ونستعملها في الجزء الثاني منها للدلالة على طابع الاحساس الذي يعترينا . فاستعمال كلمة « أخضر » اذن لها

وجهان ونستطيع استعمالها في أي منهما ، ولكن اذا كنا نريد التفكير بدقة في الابصار ، فانه لا بد لنا من تجنب الخلط بين الاستعمالين . ولكي نميز بين هذين الاستعمالين نلجأ الى اتخاذ متعارفة كلامية جديدة كأن نقول مثلا « الاخضر الكائن في الشيء » « عندما نعني خضرة العشب نفسه » وعن « الاخضر الظاهر على الشيء » عندما نعني احساسنا بالخضرة بصريا . بيد أن هذا مما يزيد المخاطبة اليومية بين الناس تعقيدا لا ضرورة له ، ولهذا فان الكلمة « أخضر » تبقى في الاستعمال المتداول بين الناس على الوجهين المذكورين من غير خلط بين الواحد والاخر .

وحوادث سوء التفاهم الخطيرة قد تنشأ في ملابسات اخرى بسبب خلافات حول استعمال بعض الكلمات ولكنها تظهر خطأ كما لو أنها خلافات في الراي حول امور واقعية . فقد نجد مثلا ثلاثة من الناس من طوائف دينية مختلفة يتجادلون عن الكنيسة الكاثوليكية . فيقول أحدهم عن الكنيسة الكاثوليكية انها مجموع جميع المسيحيين الذين لهم اساقفة يكون ارتسامهم في درجة الاسقفية مستمدا بالتسلسل القدسي من الرسل المسيحيين الاولين . ويقول الاخر عن الكنيسة الكاثوليكية انها مجموع جميع المسيحيين التابعين لأسقف روما . ويقول الثالث عن الكنيسة الكاثوليكية أنها مجموع جميع المسيحيين المؤمنين . هذه خصومة قد تدوم الى ما لا نهاية ، لانها في نظر المتخاصمين مسألة حقيقة ماهية الكنيسة الكاثوليكية . وقد لا يرحب هؤلاء الثلاثة بأن يتدخل احد المستمعين أو الحضور فيبين لهم أن المسألة التي يختلفون عليها فيما بينهم هي قبل كل شيء مسألة كلامية عن عبارة « الكنيسة الكاثوليكية » كيف يكون تعريفها بالضبط . فاذا عرفتموها بأنها الكنيسة التي يتولى أساقفتها مناصبهم بالوراثة عن اسلافهم الرسل الاولين كان قول الشخص الاول صحيحا ، واذا عرفتموها بأنها مجموع جميع المسيحيين التابعين لأسقف روما كان قول الشخص الثاني

صحيحا ، وإذا قلتم انها مجموع جميع المسيحيين المؤمنين كان قول الشخص الثالث صحيحا . ومهما كان هذا التعريف مختلفا فان واقع الامر يبقى كما هو لا تغيير فيه ، وانما الذي تغير هو الوجه الذي استعملت فيه العبارة . فهنا لدينا اصناف ثلاثة من المسيحيين موجودة وفي حاجة الى تسمية عند الكلام عنها . ولتجنب التشويش يستحسن أن يسمى كل منها باسم مختلف ، ولكن لا ضرورة لاستعمال أحد منها دون الاخر للدلالة على اي منها .

وثمة سبب واحد يعلل لنا عدم ترحيب احد من المتخاصمين بحل من هذا النوع يفض الخلاف بينهم ، وهو انهم يشعرون بأنه يوجد خلاف حقيقي بينهم غير الخلاف الكلامي . وبالطبع هذا الخلاف موجود ولكنه مطموس تحت ستار من الخلط بين الواقع والكلام ، وقد نشأ هذا الطمس نتيجة مناقشتهم للخلاف كما لو انه عن الكنيسة الكاثوليكية ما هي وما حقيقتها . والخلاف الحقيقي هو هنا خلاف في التقويم الاخلاقي . ويمكن صوغ هذا الخلاف في صيغة كالتالية : « هل يجب على المسيحي أن ينتمي الى مجموعة المسيحيين الذين اساقفتهم معينون بالخلافة الرسولية ؟ » أو « هل يجب على المسيحي أن ينتمي الى مجموع المسيحيين التابعين لاسقف روما ؟ » وهكذا .

مثل هذا الخلاف خلاف حقيقي ، وليس خلافا حول استعمال الكلمات لا غير ، ولكنه كمعظم المناقشات المشتملة على معنى « يجب » ، ليس مما يرجى الفصل فيه عن طريق الجدال . وقد يجوز انهم لو أدركوا ان هذا هو الذي كان يفرق بينهم لاوقفوا الجدال واتفقوا على أن لا يختلفوا . والذي حثهم وشجعهم على الجدال أملا في أن يجدوا من الاعتبارات الواقعية ما يفصل الامر بينهم هو الوهم الباطل بأنهم كانوا يتجادلون في قضية واقعية عن طبيعة الكنيسة الكاثوليكية وحقيقتها ويريدون بتها . والمشكلة هنا ليست من البساطة بحيث يظن انها ليست الا مشكلة لفظية يجرى

النقاش فيها كما لو انها مشكلة واقعية ، فهي لفظية في بعضها وغير لفظية في البعض الاخر ، وهذا يقضي بضرورة تخليص « اللفظي » من الذي هو « غير لفظي » من عناصر القضية حتى يكون في الامكان معرفة الخلاف حول اي شيء يدور .

والخلط بين المشكلات اللفظيةوالاخرى الواقعية او الحقيقية او بين العناصر اللفظية والحقيقية في المشكلة الواحدة قد لا يكون الباعث عليه الغش والخداع في المجادلة ، لانه يجوز أن يكون عدم المهارة في استعمال اللغة هو الذي يؤدي الى هذا الخلط . وهو خلط كثير الشيوع جدا . مثال ذلك هذا السؤال : « ما هو كنه الديمقراطية الحقيقي ؟ » أو هذا السؤال : « ما طبيعة الحرية ؟ » أو : « ما هي الغريزة ؟ » . هذه أسئلة تكشف عن مشكلات يجد الانسان نفسه وهو يجادل فيها أنه انما يجادل عن كلمات كما لو انها امور واقعية . وفي جميع هذه الحالات ثمة علاج واحد وهو : معرفة ما هو الجزء من الخلاف الذي هو مجرد خلاف على استعمال الكلمات ، ثم معرفة الخلاف الباقي (ان بقي خلاف) هل هو خلاف على الواقع أو على التقويم . واعني بكلمة « التقويم » الحكم على بعض الامور هل هي صالحة أم طالحة ، جميلة أم قبيحة وهكذا . واظن أننا سنتفق على أن امثال هذه الفروق والخلافات ليست مجرد خلافات لفظية ، ولو انها خلافات من العسير (أو لعله من المستحيل) الفصل فيها بالجدال .

وثمة طريقة نحاول فيها استعمال قضية لفظية للفصل في مسألة واقعية ، وهي جديرة بالملاحظة . فلنفرض مثلا ان زيدا وعمرا في جدال حول ميزات الانواع المختلفة من التعليم . فزيد يناصر نظام التعليم القديم الذي يهتم بضبط النظام وتقييد السلوك ، في حين أن عمرا يناصر نظام التعليم الحديث الذي يعطي التلاميذ شيئا كثيرا من الحرية . وفي اثناء الجدال يقول زيد : « انك تقر بأن الاسراف الشديد في اعطاء الحرية في المدارس شيء رديء » :

وهنا يشعر عمرو بشيء من الضعف في موقفه . فقد طلب اليه أن يقر بصحة قول فيه اضرار بقضيته . ولكنه يدرك مع ذلك انه قول لا يستطيع ، ان توخي العدل والعقل ، ان يجحده . وهو لا يستطيع انكاره لانه مجرد عرض لفظي ، لا يقول شيئا واقعيا على الاطلاق . ومعنى العبارة « الاسراف الشديد » هو « مقدار عظيم جدا لدرجة أنه صار شيئا رديئا » . وهي عبارة من قبيل الحشو في الكلام أو تفسير الماء بالماء ، (وهو قول كلامي لا غير) ، ونحن وان لم يكن بالوسع أن ننكر بالمعقول هذا الحشو فان هذا الحشو لا يجوز أن يستعمل لاثبات امر واقعي . وبالطبع قد يكون عمرو مستعدا لانكار ما ينطوي عليه قول زيد من انه يوجد في المدارس مقدار ما من الحرية تجاوز الحد . وهنا قد يكون عمرو على حق اذا هو اتهم زيدا بأنه يجزم بقول ينطوي على ما من شأنه أن يضع النقطة المختلف عليها في قالب « المصادرة على المطلوب » . ومع ذلك فانه لا يكون جاحدا لقول زيد (وهو ما لا يمكن انكاره في الحقيقة) ، وانما يكون منكرا فقط كون قوله يشير الى وجود اي قدر ممكن من الحرية .

بيد أنه من المحتمل ان يكون عمرو غير مستعد للدفاع عن وضع متطرف من هذا النوع . وكل ما هو مستعد له هو أن تكون حجته أنه ينبغي أن يكون في المدارس مقدار من الحرية اكثر بكثير مما يرغب زيد في السماح به . وقد يبين عمرو الطابع الحشوي في قول زيد بطريقة كالطريقة التالية مثلا : « بالطبع الاكثار من اي شيء ردىء » . ثم يعيد المناقشة الى بحث النقطة الخلافية الحقيقية ولعله يقول : « ولكن ما ينبغي ان اعتبره أنا بأنه القدر الصحيح من الحرية هو ما تسميه أنه « اكثارا » . ورغم ذلك فان هذه المناقشة لو جرت في حضور ناس ليسوا من الذكاء على جانب عظيم لكان الانطباع الذي يخرج به هؤلاء هو أن زيدا قد فاز على خصمه بنقطة واحدة على الاقل ، وهذا اجحاف بالغ في حق عمرو .

ولنتوقف الان قليلا لنوضح استعمال شيء متعارف عليه له نفع عظيم في تجنب الخلط بين الامور الواقعية والكلمات ، وهو وضع الكلمة بين علامتي حصر عند الاشارة الى الكلمة نفسها وازالة علامتي الحصر عند الكلام على مدلول الكلمة ، اي الشيء الذي تدل عليه الكلمة . ومن ذلك قولنا ان النزاع اللفظي قد يكون حول كلمة « الديمقراطية » في حين ان النزاع الحقيقي يكون حول الديمقراطية ــ اي حول نظم الحكم التي هي مدلول كلمة « الديمقراطية » . واذا كنا نظن اننا نتناقش عن الديمقراطية في حين أن موضع الخلاف في الحقيقة هو على كلمة « الديمقراطية » فاننا نكون في ذلك قد خلطنا في الامر وحسبنا ، خطأ ، النزاع اللفظي بأنه نزاع واقعي .

ويمكننا أن ننظر الان في طريقة اخرى عن كيفية نشوء المشكلات اللفظية وكيف يقع الخلط بينها وبين المشكلات الواقعية . فلنفرض ان احدهم قال انه يريد استعمال الرمز (٩) للدلالة على الرقم الاول والرمز (٨) للرقم الذي يليه ، و (٧) للرقم الذي يلي ذلك والرقم (٢) لما بعده ، ولا يفيدك في شيء أن تقول له ان هذا خطأ ، لان رده على اعتراضك هذا قد يكون أنه يعيش في بلد حر ، فهو حر في استعمال الرموز كما يشاء . ولكنه عند قيامه بعمليات حسابية يتبين أن النتائج غريبة جدا ، ومن ذلك مثلا اذا ضرب (٨) في (٨) يكون الناتج عنده (٢) . وقد يتراءى لنا لاول مرة أن طريقته في الحساب قد تكون طريقة جديدة في استعمال الرموز . والذي يعنيه من ضرب (٨) في (٨) هو ما نعنيه نحن من ضرب (٢) في (٢) ، كما لو أنه قال شيئا كالذي قلناه ولكن بلغة أخرى ، فالشيء الواقعي واحد ولكن اختلف الكلام . والاعتراض الممكن على هذه الطريقة الجديدة هو أنها لا تفي بغرض مفيد بل انها أيضا غير ملائمة . واتخاذنا لها لا يعيننا على أن نقول شيئا جديدا مهما كان بل انها ستؤدي الى كثير من سوء التفاهم .

ولا ينكر مع ذلك أنه قد يكون لرمزية جديدة معنى حري بالاهتمام . فعلماء الرياضيات مثلا يستعملون احيانا الرمز (١٠) للرقم الذي يلي (١) والرمز (١١) للرقم الذي يليه والرمز (١٠٠) للرقم الذي يلي ذلك وهكذا . وهذه الطريقة هي المعروفة بوضع الاعداد على اساس العدد (٢) ، (الاساس الثنائي لا العشري) . وعلى هذا فان الرياضيين قد يقولون ان حاصل ضرب (١١) في (١١) هو ١٠٠١ ، ويعنون بذلك ما نعنيه نحن تماما حينما نقول (٣) في (٣) تساوي (٩) . ولكن هذه الطريقة الاثنينية Binary مفيدة في عدد من الاغراض ، كاستعمالها مثلا في الحاسبات الالكترونية (الكمبيوتر) وان كانت لا تمكن الرياضيين من أن يقولوا شيئا جديدا لان ما قالوه هو ما قلناه في الحقيقة ولكن برموز أو بلغة أخرى . واذا استعمل أحد هؤلاء الرياضيين هذه الطريقة في موضع ينتظر فيه استعمال الارقام العادية فمن الواجب عليه في هذا السياق أن يفسر لنا ما ترمز اليه أرقامه اذا أراد أن لا يساء فهمه .

وقد يبدو أن هذا كله واضح لدينا عند الكلام على الاعداد ولكنه في كثير من الاحيان لا ينتبه اليه في مناسبات ومناقشات مشابهة تستعمل فيها الكلمات بدلا من الارقام . ولنفرض أن أحدا قال : « الديمقراطية ليست حكم الشعب نفسه بنفسه ، ولكنها موافقة الشعب الطوعية على نظام من القوانين فرضها عليه حكامه » . أو قال مثلا : « الدين ليس الايمان بالله ، ولكنه شعور بالوحدة مع التطور النشوئي » ، فانه لا يكون ، كما قد يستشف من كلماته ، معلنا بقوله هذا أمرا واقعيا جديدا لم يكن معروفا من قبل عن الديمقراطية أو الدين ، وكل ما يقوله هو أنه يريد ان يستعمل كلمة « الديمقراطية » او كلمة « الدين » بطريقة تختلف عن طريقة الناس الاخرين أو تختلف عن طريقة المتصدي له في الجدال .

وقد يكون لرغبته في استعمال هاتين الكلمتين أو احداهما بطريقة مختلفة معنى له قيمته ، ولكن يجب أن يفهم أن هـذا هو قصده حتى يمكن تلافي ما قد ينتج عن عدم الفهم هذا من بلبلة لا نهاية لها . وعلى هذا فانه قد يستعمل عبارات تختلف عن عبارات الخصم في الجدال بينما المدلول واحد ، فما يقوله صاحبنا هو ما يقوله الاخر بعينه من حيث الواقع . اذ قد يقول صاحبنا مثلا : « كانت المانيا تحت هتلر ديمقراطية حقة » ويقول خصمه : « هتلر قضى على الديمقراطية في المانيا » ، ولا يوجد خلاف في الواقع بين هذين القولين ، أكثر من الخلاف بين (٣) في (٣) تساوي (٩) في الاستعمال العادي للارقام وبين (١١) في (١١) تساوي (١٠٠١) في استعمال الطريقة الاثنينية . وواضح هذا هو الحال حينما نعتبر ان « المانيا تحت هتلر كانت بلدا أطاع الشعب فيها القوانين التي فرضها عليه حكامه » . فهذا الاعتبار لا يكون متنافيا بوجـه من الوجوه مع القول بأن « هتلر قضى على حكم الشعب في المانيا » . فهذان قولان مختلفان في العبارة وقد يكون كلاهما صحيحا . ويظهر عليهما التناقض فيما بينهما لان كلمة « الديمقراطية » استعملت في أحدهما بمعنى واستعملت في القول الثاني بمعنى اخر .

فالنزاع حول هذين القولين ايهما صادق دون ملاحظة ان الاختلاف ليس الا في استعمال الكلمات لا يتعدى أن يكون مثالا اخر للخلط بين اختلاف لفظي واختلاف حقيقي . وبطبيعة الحال فان الرجل الذي يقول ان الديمقراطية هي موافقة الشعب الطوعية على قوانين فرضها عليه حكامه او ان الدين هو شعور بالوحدة مع التطور النشوئي يحتمل له جدا ان يتسبب بهذه البلبلة نتيجة انه يعتقد أن ما يقوله هو حقيقة واقعة وليس مجرد اعلان عن الكيفية التي سيستعمل فيها الكلمات . وقد تصبح هذه البلبلة امـرا محتوما اذا ادعى القائل أنه اكتشف بنفسه الحقيقة التي يعلنها في قوله . فقد يقول مثلا انه علم بنتيجة دراسته للتاريخ الروماني او

على أثر زيارة قام بها لروسيا أن الديمقراطية في الحقيقة هي اطاعة الشعب للقوانين المفروضة عليه من فوق . أو قد يقول انه بعد دراسة علم الاحياء (البيولوجيا) أو بعد المكوث مدة في دير لرهبان البوذيين قد اكتشف أن الدين شعور بالوحدة مع التطور النشوئي . وهذا كله كلام فارغ . لانه ما من دراسة لحقائق لفظية يمكن أن تعطيه معلومات عن كيفية استعمال الكلمات . فدراساته وزياراته هذه قد تقنعه بأن اطاعة الشعب لقوانين مفروضة عليه أمر مهم ، يستحق أن نميزه عن غيره في الكلام . بل قد تقنعه بأن هذه الحالة قد تكون افضل من حالة شعب يضع قوانينه بنفسه . ولكنها لا تعطيه معلومات عن أن كلمة « الديمقراطية » هي الكلمة التي يجب أن تستعمل لتلك الحالة . اذ أن استعمال الكلمة هنا هو من اختياره وحده ، وهو قادر على أن يأتي بالحجج لتبرير هـذا الاختيار ، ولكنه لا يستطيع ان يدعي بأن هذا الاختيار قد فرض عليه فرضا بفعل الامور الواقعية والحقائق .

والمرحلة التالية في النزاع يحتمل ان تكون حول استعمالات الكلمتين « الديمقراطية » و « الدين » هل هي استعمالات صحيحة، وهي مرحلة لا فائدة فيها . وقد يقول الخصم : « بالطبع يمكنك أن تستعمل كلماتك بالطريقة الخاصة بك وما علينا نحن الا تفهم مرادك، ولكن ما تعنيه « الديمقراطية » في الحقيقة هو « حكومة الشعب » . وهذا القول خير من الدخول في نقاش حول ما هي الديمقراطية في الحقيقة لانه يضع الخلاف في موضعه الحق وهو انه خلاف حول استعمال الكلمة وليس خلافا حول أمر واقعي .

ومع ذلك فهو لا ياتي بفائدة عظيمة لو تناقشنا فيه . وليس هذا لانه لا يوجد تساؤل من حيث استعمال الكلمة ولكن لانه يوجد عدة تساؤلات مختلفة ، وكلها يمكن الفصل فيها بسهولة كافية اذا ميزنا بعضها عن بعض وفرزناها منفصلة ، أما اذا خلطنا بين هذه التساؤلات معا وجمعناها كلها في تساؤل واحد حول استعمال

الكلمة استعمالا صحيحا ، فمن المحتمل أن يؤدي بنا هذا الى الدخول في جدال لا نهاية له .

والسؤال الاول يتعلق بالمعنى الاصلي للكلمة . وفي الغالب يحتمل ان يكون للكلمات التي يحتمل ان تختلف عليها اصول اغريقية أو لاتينية او انكليزية ــ سكسونية ، وان قاموسا جيدا في اشتقاق الكلمات كفيل بأن يخبرنا ما فيه الكفاية عن ماهية هذه الكلمات وعن معانيها . فنعرف مثلا أن « الديمقراطية » مشتقة من كلمتين اغريقيتين هما Demos ومعناها الشعب و Krateo ومعناها الحكم . ولذلك فان المعنى الاشتقاقي للديمقراطية هو « حكم الشعب » . واذا التفتنا الى النظر في أصل معنى كلمة « الدين » religion نجد في القاموس أن هذه مشتقة من الكلمة اللاتينية re ومعناها « خلف » ومن الكلمة اللاتينية الاخرى ligo ومعناها « ربط » فمعنى « الدين » religion اذا هو « الربط خلفا » ، وهو معنى لا يساعدنا بشيء يذكر عند اعطاء قرارنا عن اي المتخاصمين كان أصح في استعماله لكلمة « الدين » .

وليس من المحتمل أن يحتكم الناس ، اذا اختلفوا حول استعمال كلمة ما استعمالا صحيحا ، الى معجم للاشتقاق ليستطلعوا اصل الكلمة في الاغريقية أو اللاتينية ، وذلك لانهم على اكثر الاحتمال يدعون بأن المعنى الذي يعطونه هم للكلمة هو المعنى المستعمل في العادة . وهذه مسألة اهم ولا شك . ذلك ان الاوجه التي تستعمل فيها الكلمات تتقلب وتتغير مع الزمان ، ولذا فان أصول الكلمات لا تعطي دوما دلالة على أوجه استعمالها في الوقت الحاضر . ومسألة كيفية استعمال كلمة في الوقت الحاضر اهم بكثير من كيفية استعمالها في معناها الاصلي ، غير ان تقرير اي الاستعمالين اصح أمر أكثر صعوبة بكثير . وقد يتراءى لنا أن في الامكان معرفة معنى كلمة ما وكيف تستعمل في الوقت الحاضر اذا رجعنا الى المعجم ، ولكن النقطة المهمة هي أن الكلمات التي يدور حولها

الجدل ، غالبا ما تكون من النوع الذي نختلف حولها ككلمة « الديمقراطية » وكلمة « الدين » . وكلما كان المعجم افضل كثرت فيه معاني الكلمة . ولنأخذ مثلا قاموس اوكسفورد الانجليزي The Oxford English Dictionary فان هذا القاموس يسرد لنا أربعة معان أساسية لكلمة « الديمقراطية » وثمانية معان أساسية لكلمة « الدين » ، وهذا يقصر كثيرا عن اعطاء هاتين الكلمتين حقهما في تعدد معانيهما واختلاف استعمالاتهما . واحسب انه لو عد احد منا استعمالات كلمة « الديمقراطية » وكلمة « الدين » عند الكتاب المختلفين لوجد دون صعوبة عشرين وجها في استعمال كلمة « الديمقراطية » ولا اقل من اربعين وجها في استعمال كلمة « الدين » ولهذا اذا قال بعضهم انه يريد أن يستعمل احدى الكلمتين على وجه جديد فهو انما يزيد من تعدد أوجه الاستعمال هذه التي هي عديدة من قبل ذلك .

ولا نستطيع بحق ، ان نمنعه من استعمال هاتين الكلمتين على وجه جديد بأن ندعي بأن لكل من الكلمتين معنى محددا واضحا وبأنه من الخطأ التنكب عن هذا المعنى ، اذ أن هذا ليس هو الواقع في أغلب الاحيان . ومع ذلك فاذا كان المعنى الذي يقترحه صاحبنا ليس بالمعنى الاصلي ولا بالمعنى المقبول بين الناس في الزمن الحاضر فان من المعقول أن يلفت الانتباه الى أن زيادة معنى جديد لا يؤدي الا الى زيادة البلبلة الحاصلة الان . ولكن شكوانا من اضافة معنى جديد لكلمة تستند الى أن الوجه الجديد في الاستعمال غير مناسب اكثر من كونه خطأ . واذا كان الشخص صاحب الاستعمال الجديد مستعدا لان يتحمل هذه المضايقة التي ينجم عنها اساءة فهمه اذا استعمل هذا المعنى غير المألوف ، فلا حاجة بنا الى اضاعة الوقت في محاولة اقناعه بأن استعماله للكلمة ليس الاستعمال الصحيح . فما يجب أن يكون واضحا في اذهاننا أن

استعمالا جديدا لكلمة ليس تقريرا لامر واقعي . كما يجب أن يكون واضحا لدينا أن الامر الذي نختلف عليه في هذا المجال هو مشكلة لفظية لا مشكلة حقيقية واقعية .

لقد كنا في هذا الفصل ، نناقش الموضوعات الخلافية التي هي واقعية ونقابلها بالموضوعات الخلافية التي هي لفظية فقط . وهنا محذور يجب اتقاؤه وهو أن يدخل في وهمنا أن المسائل الواقعية وحدها هي المسائل المهمة وان مسائل كيفية استعمال الكلمات ليس لها أية أهمية . هذه الفكرة الموهومة فكرة خاطئة ولا شك . فنحن نريد ان نتجنب الخلط بين المسائل اللفظية والمسائل الواقعية. فاذا تجنبنا ذلك بقي لدينا مشكلة المسائل اللفظية وكيف نعالجها ومشكلة المسائل الواقعية وكيف نعالجها . وأملنا الوحيد في حسم امر واقعي هو استعمال المشاهدات والابحاث لمعرفة حقيقة هذا الامر الواقع . وبعد ذلك يبقى علينا أيضا أن نستعمل الكلمات بدقة لتبليغ الناس الاخرين حقيقة الامر بكل جلاء دون لبس أو ابهام قدر المستطاع . وواضح أن هذه مهمة هامة ، كما أنها ليست سهلة دوما . وستصرف العناية على الخصوص في الفصلين السابع والثامن الى حل المشكلات اللفظية من حيث استعمال الكلمات بمهارة أو دون مهارة في التفكير وفي المخاطبة .



الفصل السادس

سوء استعمال التفكير النظري

ثمة خطأ اخر يقع فيه الانسان بسبب الاخفاق في فهم العلاقة بين الكلمات والوقائع ، وهذا الخطأ هو استعمال النظر العقلي أو التفكير النظري في حل المشكلات التي لا يمكن حلها الا عن طريق المشاهدة وتفسير الوقائع . ففي كثير من المسائل التي نريد الفصل فيها نجد أنه من الصعب جدا الحصول على معرفة تامة ودقيقة بالوقائع ذاتها . ولهذا فاننا نجد في هذه الحالة ما يغرينا على أن نصور أحكامنا دون الاستناد الى الوقائع الضرورية . بل قد نجد ما يغرينا على الظن بأن التفكير الدقيق ، رغم عدم وجود الوقائع الضرورية ، كاف بحد ذاته لسد حاجاتنا .

مثل هذا التفكير النظري له استعمال معين مشروع . فالانسان كان بوسعه باستعمال التفكير النظري اكتشاف جميع الحقائق الرياضية البحتة ، أي أن يكتشف مثلا أن (٢) هو الجذر التكعيبي للعدد (٨) وأن العدد (١٣) عدد أولي . ولكنه ما كان ليستطيع بالنظر العقلي وحده أن يخطو خطوة واحدة الى الامام في أي من العلوم . فما كان بامكانه أن يكتشف شيئا عن طبيعة الانسان الا بعد أن انصرف الى جمع المعلومات والشواهد الواقعية عن الجنس البشري ولا عن علم الاقتصاد الا بعد أن انصرف الى جمع المعلومات عن أمور مثل انتاج السلع وتوزيعها .

والاعتقاد بأن الانسان قادر على استنباط شيء ما عن الامور الحقيقية أو الواقعية بالنظر العقلي وحده وهم من أقدم الاوهام في

التفكير البشري . فالروح المعادية للعلم هي التي تحاول دوما صرف الناس عن دراسة الواقعة ودفعهم الى نسج نظريات وهمية خيالية نابعة من اذهانهم وحدها . وهي الروح التي يجب على كل واحد منا (سواء اكان يشتغل بالبحث العلمي او يفكر في كيفية استعمال صوته في الانتخابات) أن ينبذها من ذهنه ذلك لان اتقان فن التفكير والتمكن منه ليسا الا البداية في انجاز مهمة فهم الواقع . وبدون الحصول على الحقائق الواقعية الصحيحة يسوقنا فن التفكير هذا الى الخطأ والضلال .

ويمكننا أن نميز ، كنوع خاص من التفكير الاعوج ، محاولة الحصول على معرفة بالواقع عن طريق التفكير النظري . وهـذه المحاولة تحدث في اية حجة تحاول استخلاص « ما هـو كائـن » مما يعتقد المتكلم أنه « ينبغي أن يكون » في اي نقـاش يحاول المشترك فيه استنباط نتائج عن الحقائق الواقعة من استعمال الكلمات ليس الا . ولا نكران ان التفكير النظري له موضع مشروع حتى في التفكير عن الامور الواقعـية وهو الايحاء بامكانات او احتمالات جديدة . وعلى ذلك فقد نستعمل طريقة التفكير النظري بشكل سليم في اقتراح ما قد يكون أو ما يحتمل ان يكون ولكن ليس قطعا في استنباط ما هو كائن . ذلك أن استنتاج الوقائع لا يكون بالبحث في وقائع أخرى .

ومع ذلك فان استعمال التفكير النظري بشكل غير مشروع أمر شائع . وعلاجنا لهذه الحالة من الاستعمال هو ان نتفحص الاسـس التي بني عليها استنتاج حقائق واقعية . فاذا كانت هذه الاسس من نوع الامور الواقعية الاخرى فان الاستنتاج قد يكون سليما وقد لا يكون . ولكن اذا كانت الاسس هي اقتناعات خاصة بالمتكلم بما يجب ان يكون الاستنتاج عليه او بناء على الاسلوب الجاري في استخدام الكلمات فان الواجب يقضي علينا بأن نتغلب على

حجة الخصم بأن نريه صراحة بأن استنتاجه قائم على معلومات من النوع الذي لا يمكن التوصل منها الى استنتاج سليم صالح .

وبينما لا يكون التفكير النظري ، بحال من الاحوال ، غائبا عن المناقشات في الشئون العملية ، الا انه يكون سائدا بصورة خاصة في المناقشات التي تدور حول مشكلات او قضايا ذات صبغة شبه فلسفية ، وهناك يسود استعماله بشكل يكون من قبيل الحيلة في النقاش . مثال ذلك القول بأن « الانسان لا يمكن ان يكون قد تطور عن القرود لان الشيء الاعلى لا يمكن أن يشتق من الادنى » . او القول بأن « الفراغ لا يمكن حصوله لان كل حيز غير مشغول بمادة أمر يتناقض بعضه مع بعض » . أو أن التخاطر telepathy شيء متعذر لان الفكرة لا تنتقل من ذهن الى ذهن من غير واسطة للمخاطبة » .

هذه الاقوال جميعها هي من قبيل حجج التفكير النظري ، وكون الاستنتاجات فيها صحيحة أو باطلة لا يمكن الجزم به بناء على الاسس المعطاة . ويجب علينا في جميع هذه الحالات فحص الحقائق أو الامور الواقعية من أجل اكتشاف ما اذا كانت النتائج أو الاستنتاجات صحيحة فعلا . والتساؤلات عن الانسان اذا كان نتاج عملية التطور النشوئي واذا كان كذلك عن الاشكال التي تطور وتنشأ عنها انما هي أسئلة يكون الفصل فيها عن طريق البينات التي يأتي بها علم الاحياء (البيولوجيا) وعلم طبقات الارض (الجيولوجيا) . ووجود الفراغ أو امكان ايجاده قد تقرر باجراء التجارب الناجحة على زجاجة محكمة السد وتفريغها من الهواء وليس بالجدل والمحاجة . وكون التخاطر ممكنا او غير ممكن يتقرر على أحسن وجه باجراء التجارب بين شخصين ليس بينهما اتصال مادي ، ثم بالنظر في ظل هذه الظروف اذا كان تفكير احدهما يتأثر بتفكير الاخر . فاذا كانت تحرياتنا في الامور الواقعية تؤدي بنا الى نتيجة نرى انها مما لا يتصوره العقل ، فان هذا لا يلزم منه أن يعتبر

ان النتيجة تخبرنا بأي شيء حول الامور الواقعية ، وانما قد تكون دليلا على محدودية قدراتنا على التصور . ويجب أن نتعلم كيف نستعمل خيالنا ، وفي مقدورنا أن نتصور اي شيء اذا بذلنا جهدا كافيا .

والحجج النظرية الواردة آنفا هي من الشكل العمومي ، ويكون هذا على هذه الصورة : « كذا وكذا يجب أن يكون صحيحا لانه لا يتصور ان يكون خلاف ذلك » . وتوجد حجة اخرى وضعها في هذه الصورة : « كذا وكذا يجب أن يكون صحيحا لان صحته متضمنة في الطريقة التي نستعمل فيها اللغة » .

وقد يعترض معترض ويقول مثلا « ان ما لا يتصوره العقل لا يمكن ان يكون صحيحا وان قولا يتناقض بعضه مع بعض او يناقض نفسه بنفسه لا يمكن أن يكون صحيحا » . وهناك معنى يكون فيه القولان ، كلاهما ، صحيحين . ولكن هذا المعنى لا يجعل أيا منهما ذا فائدة تعيننا على كشف حقيقة العالم من حولنا ، باعتبار أن هذه الحقيقة متميزة عن حقائق علم الرياضيات أو علم المنطق . واذا قال قائل « ان الانسان لا يمكن أن يكون له ارادة حرة لان وقوع فعل دون أن تسبقه علة شيء لا يتصوره العقل » ، كان من الضروري أن نسأله : « بأي معنى يمكن ان يكون هذا مما لا يتصوره العقل ؟ » فمثلا هل هو مما لا يتصوره العقل بمعنى أن وجود عدد أولي شفعي يكون أكبر من (٢) أمر لا يمكن تصوره عقلا ــ ذلك أن مثل هذا الغرض سخيف من اساسه ؟ فكون هذا مما لا يتصوره العقل يعتبر سببا سليما يؤدي الى الاستنتاج بأن الامر ليس كذلك في الواقع . أو هل هو مما لا يتصوره العقل بمعنى أن القائل يجد من العسير عليه ان يفكر في هذا الشيء بأنه فعل لم يكن مقدورا بعلة سابقة ؟ ان مثل هذه الصعوبة يمكن أن تكون ناتجة عن مجرد التأثيرات أو العوامل التي تحد من تفكيره وعاداته في التفكير وليس عن اية استحالة حقيقية (في الامر نفسه) . فالحيز أو المكان غير

الاقليدي (نسبة الى اقليدس) شيء مما لا يتصوره العقل عند الكثيرين، ولكن هذا المكان او الحيز موجود، كما يظهر، عند توافر مجال جذب. ثم ان الفيلسوف (زينون) في القديم وجد ان الحركة شيء لا يتصوره العقل، ولكنه وغيره من الناس يتحركون ويمشون. ويرى بعض علماء الفيزياء ان بعض ما يحدث على مستوى أجزاء الذرة يجري عشوائيا ودون مسبب وهي فكرة ما كان لآبائهم أن يتصوروها.

وبما اننا نوسع باستمرار مدى ما نجد أن بوسعنا تصوره فان من الواضح اننا لا نستطيع ان نسلم بعدم امكانية تصور اي شيء كسبب كاف لان نفترض بأنه غير ممكن الوقوع.

أما مسألة تناقض الشيء بعضه مع بعض واعتبار هذا التناقض مقياسا للحقيقة (أو عدمها) فهي أمر أصعب من ذلك. فاذا تناقض قولان فأحدهما او كلاهما باطل. واذا كان نظام من الافكار يناقض نفسه فانه لا يمكن ان يكون صحيحا. والمشكلة في الامر ان ما هو خطأ قد لا يكون كذلك بسبب ما نحاول ان نقوله عنه وانما بسبب الطريقة التي نقول بها قولنا عنه. وامتحان الافكار لمعرفة تلاؤم بعضها مع بعض ومع ذاتها انما هو تدريب قيم جدا اذا اجري على انه وسيلة لتحسين الطريقة التي نقول بها ما نقول، ولكنه خطر اذا اتخذ على انه وسيلة للتعرف على ما نحاول قوله هل هو صحيح أم لا. وعلى ذلك فالفيلسوف الذي يجادل رجلا بسيطا ينجح عادة في ان يبين له بأن افكاره التي يحاول التعبير عنها مملوءة بالمتناقضات. وقد يحتج هذا الرجل على بساطته بقوله: « لا يمكنني التعبير عنها بصورة متناسقة يأتلف بعضها مع بعض لانني لست في مهارتك، ولكن ما احاول ان أقوله صحيح ». ومعظمنا سيتعاطف مع هذا الرجل. وهو على حق في أن لا يتخلى عن معتقداته لهذا لمجرد أن الفيلسوف يجدها متناقضة. ولكن يجدر بهذا الرجل في الوقت نفسه من قبيل الحكمة ان ينتفع بانتقادات الفيلسوف ويستعملها

وسيلة لمعرفة الكيفية التي ينبغي عليه ان يقول فيها ما يعتقد هو بصحته من غير تناقض .

وحينما نقول ان التفكير النظري ليس طريقة مفيدة لمعرفة ما هو صحيح فاننا لا نعني بذلك انه طريقة لا تفيد في شيء . وقد سبق ان ألمعنا الى ان قيمة التفكير النظري هي في فائدتها من حيث انها تعين على تفحص الاحتمالات الممكنة التي تؤدي الى الوقوف على حقيقة الحالة .. ان ما يحجب عنا ، في اغلب الاحيان ادراك تفسير الامور الواقعية المحيطة بنا هو اننا لم نفكر في جميع الاحتمالات . . ان ما نحتاج اليه حتى نستطيع ان نرى حقيقة جديدة قد يكون المقدرة على التفكير النظري لمعرفة ما يحتمل أن يكون . وهذه المقدرة على التفكير النظري قد تكون خطوة ضرورية نحو تبصرات جديدة ، وان لم تستطع في ذات حدتها ان تخبرنا عن هذه التبصرات اذا كانت صادقة او غير صادقة .

وغالبا ما كانت الاكتشافات في العلوم تتاخر الى ان يخطر ببال بعضهم امكانة جديدة . مثال ذلك أن (نيوتن) عندما خطر له ان القوة التي جعلت التفاحة تسقط الى الارض هي القوة نفسها التي تقرر حركات الاجرام السماوية . انما كان يقدم تخمينا جريئا ظهرت ثمرته فيما بعد حينما أثبتت التحريات والابحاث التالية صحته . وشبيه بذلك ما خمنه به (داروين) عن أن التطور النشوئي كان بانتقال الفروق في صفات النباتات والحيوانات عن طريق الوراثة بحيث أصبح للنباتات والحيوانات المالكة لهذه الفروق الوراثية مزية على غيرها جعلت امكان بقاءها على قيد الحياة أكثر احتمالا . ومع ذلك فقد شعر (داروين) بأنه من الضروري ان يجمع الشواهد والادلة على ذلك ، لمدة أخرى تقارب عشرين سنة قبل أن يقتنع هو بأن تخمينه كان صحيحا .

وثمة مثال اخر اقرب الى زمننا هذا عن هذه الناحية من الكشف العلمي ، يمكن ان نجده في العمل الذي حققه (اينشتاين) ،

وكان قد واجه بعض التناقضات في العلوم الطبيعية ولا سيما فيما يتعلق باخفاق التجارب في ايجاد الفرق المتوقع في سرعة الضوء في اتجاهات مختلفة في نظام متحرك . فجرب اسلوبا جديدا في التفكير حول الحركة بحيث لا ينتظر فيها حدوث اي فرق من هذا النوع وينتفي فيها وجود التناقضات . فاهتدى بالتفكير النظري الى وضع نظرية النسبية . غير ان هذه النظرية لم تكن وليدة التفكير النظري وحده فقط . فقد تأثر هذا التفكير بمجموعة من المشاهدات التجريبية (١) ، كما لم يقتنع العلماء في العالم بصحة النظرية الا بعد ان تأكد ذلك بمشاهدات تجريبية اخرى اثبتت أن مقدار انحراف الضوء عند مروره في مجال جذب هو المقدار الذي تنبأت به نظرية النسبية .

والتفكير الذي مكن (نيوتن) و (داروين) و (أينشتاين) من الحدس المثمر المفيد أصبح يعرف بصورة عامة باسم « التفكير الابداعي » ، وقد استرعى اهتماما كبيرا من علماء النفس في المدة الاخيرة . فقد جرت محاولات لابتكار اختبارات يقاس بها مبلغ الابداع عند الشخص ، ولكن هذه الاختبارات لم تسفر حتى الان ، عن نجاح كبير . وتردد سؤال عن الطرق الحالية في تعليم الاولاد والى أي مدى تميل هذه الطرق ، بتوكيدها على ضرورة اعطاء الجواب الصحيح ، الى تقوية ملكة الاسترجاع او النقل دون ملكة الابداع والاختراع ، وكذلك التساؤل ألا يكون من الافضل تشجيع الاولاد على ارتياد طرق جديدة للتفكير بدلا من تدريبهم على الاتيان بالجواب الصحيح ؟ ان هذه قضية يجدر بها أن تكون موضع عناية من جميع المهتمين بتعليم الاولاد وتربيتهم .

وكتب عن هذا الموضوع حديثا عالم النفس الطبي (دى بونو) من كيمبردج . وقد أطلق (دى بونو) اسم « التفكير غير المألوف » على

---

١ ـ وهي التي اظهرت التناقضات المشار اليها .

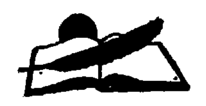
المقدرة التي يستعملها الانسان في حل مشكلة من المشكلات ليس عن طريق اتباع سبيل وحيد في التفكير او خط تفكير واحد معين ولكن بطريق تجربة سبيل جديد اخر . وقد ابتدع (دى بونو) سلسلة من التمارين الفذة العملية والكلامية التي يحتاج في حلها الى طرق تبدو في ظاهرها غير منطقية وغير مالوفة .

ولا ادرى اذا كان حل التمارين التي أوصى بها (دى بونو) تجعل الانسان اكثر استعدادا لان يحاول سبلا جديدة في التفكير اذا كانت المشكلات التي يراد حلها مشكلات تتعلق بالدين أو السياسة او شئون عمله . وهناك احتمال بأن تؤدي تلك التمارين الى النتيجة المرجوة ، وهو احتمال جدير بأن يوضع موضع البحث والاستقصاء . والذي يدعو (دى بونو) قراءه الى عمله أساسا هو العمل نفسه الذي يقوم به لاعب الشطرنج أو شخص يحاول حل المشكلات الشطرنجية . فالذي يعمله كل منهما في محاولته هو أنه يبحث عن سبيل للعمل يرجى منه التوفيق حتى اذا تبين بعد التجربة أن هذا السبيل غير ناجع تحول عنه وانصرف الى اختبار سبيل اخر غيره . وهكذا فان لاعب الشطرنج الماهر أو حلال معضلات الشطرنج يستعمل وسيلة « التفكير غير المالوف » في هذا المجال . وربما يسر له هذا محاولة سبل جديدة في التفكير في مشكلات الحياة اليومية ، وان كان ليس من المؤكد انه سيحقق ذلك .

واذا نظرنا الى الانجازات التي حققها التفكير الابداعي في نظرية (نيوتن) في الجاذبية ونظرية (داروين) في التطور النشوئي ونظرية (اينشتاين) في النسبية فانه لا معنى لسؤال نساله عن اي الطريقين كانت أهم من الاخرى في تقدم العلوم : طريقة التفكير النظري أم طريقة التجربة والمشاهدة سواء في انجاز هذا التقدم او في اثبات صحته . لان كلتا الطريقتين : التفكير النظري والتجربة العلمية ضروريتان . ومما لا شك فيه أن المقدرة على تكوين الراي

النابه المثمر موهبة عقلية اندر من المقدرة على اجراء التجربة او التجارب العلمية . ولعل وجود امور في الطبيعة لا تزال غامضة علينا قد يكون سببه انه لم يتح لها نابغة في مستوى (نيوتن) او (آينشتاين) ليأخذ الخطوة الضرورية في التفكير النظري .. ففي مدى سنين عديدة مثلا تجمعت معلومات عن التخاطر النظري وعن ظواهر ادراك المعرفة دون استخدام أدوات الحس ولكن لم يظهر نابغة يستطيع بتفكيره النظري أن يزيل عنها الغموض والسرية ويدخلها في جملة ما نعهد وما نتوقع . واذا ما ظهر هذا النابغة فانه سيعمل على زيادة فهمنا لهذا المجال فوق ما نستطيع أن نفهم بتجميع الشواهد الواقعية عنه . بيد أن تجميع الشواهد الواقعية ضروري ايضا . وفي هذا المجال كما في غيره لا يكون التفكير النظري ذا نفع اذا لم يهتد بالتجربة العلمية والمشاهدة .

وقد يكون قولا منطبقا على الواقع ان كثيرا من المشكلات المهمة العملية التي لم نستطع بعد ان نجد لها حلا تحتاج حتى يتم هذا الحل الى انواع واساليب جديدة في التفكير بشكل اكثر الحاحا من حاجتها حتى الى زيادة في المعرفة . ويجوز أن نكون بانتظار (اينشتاين) المستقبل ليهيىء لنا طريقة التفكير التي يحتاج اليها في الاهتداء الى حل تلك المشكلات مثل مشكلة الفقر وتلويث البيئة وتضخم السكان والاجرام والحرب .





الفصل السابع

معاني الكلمات

في التفكير وفي المخاطبة عدد من المشكلات التي لها صلة وارتباط بمعاني الكلمات . وقد يصح أن نطلق على هذه المشكلات اسم « المشكلات الكلامية او اللفظية » . ولعل خير طريقة نبدأ بها دراسة هذه المشكلات هي أن ننظر اولا فيما نريد من الكلمات ان تؤديه لنا . فنحن نستعمل الكلمات في التفكير وفي المخاطبة على السواء من أجل الاعراب عن أغراض ، مختلفة كأن نصف مثلا الحقيقة الماثلة خارج أفكارنا واحساساتنا ، وكذلك من أجل توجيه أعمالنا أو أعمال غيرنا توجيهات معينة . ولكي نتمكن من ابلاغ افكارنا ورغباتنا الى اناس آخرين ، فمن الضروري بواضح الامر أن يفهم هؤلاء الناس معاني الكلمات التي نستعملها في مخاطبتهم والقواعد التي يجري بموجبها نظم هذه الكلمات بعضها ببعض . وفهمهم لمعاني الكلمات التي نستعملها يكون أحيانا مضمونا بصورة كافية باستعمالنا كلمات ذات معان مفهومة لدى العموم ، وقد نضطر في بعض الاحيان الى استعمال وسيلة معينة من التفسير ، كاستعمال التعريف ، وذلك لكي نضمن أن يكون كلامنا مفهوما . ولكن في الامر أيضا شرط اخر لا بد للكلمات التي نستعملها من الوفاء به حتى تفي بالغرض المقصود منها وهذا الشرط هو ان يكون هناك تطابق بين الكلمات والامور الواقعية التي نحاول وصفها .

ويتحقق هذا الشرط الان من حيث الكلمات الشائعة في الاستعمال وذلك بفضل الطريقة التي نمت بها اللغة كوسيلة لابلاغ افكارنا ورغباتنا . ومن الوسائل التي لها نفع جوهري في استعمال اللغة عمليا وسيلة التصنيف اي وضع مجموعات الاشياء والافعال وغيرها في أصناف واطلاق كلمة واحدة تعم جميع الافراد في كل من هذه الاصناف . فأسماء العلم يمثل كل منها فردا واحدا ، مثل : سليم ، أحمد ، جميل وهكذا . وعندما نستعمل كلمة مثل « انسان » (١) للدلالة على جميع أفراد هذا الصنف من المخلوقات ، فاننا بهذا الاستعمال نكون قد جملنا الجميع في « رتبة » واحدة أو صنف واحد واطلقنا على هذا الصنف كلمة واحدة تكون اسما له .

ولا شك أن كلمة « انسان » أداة نافعة من ادوات التفكير : فهي دلالة على صنف من الحيوان متميز تميزا واضحا عن الاصناف الاخرى من الحيوان . وهي كلمة تعارف الجميع على استعمالها بمعنى متفق عليه ، ولهذا فاننا لا نجد في انفسنا داعيا الى استعمالها أحيانا بمعنى وأحيانا بمعنى اخر . وليس من احد يشك فيما تعنيه عند استعمال الكلمة ، وهذا لا يضطرنا الى اتخاذ وسيلة نعرف بها الكلمة حتى يتضح لغيرنا من الناس ماذا نعني بها .

ولكن حينما نشرع في استعمال كلمات مثل « الديمقراطية » و « الدين » و « الحرية » و « الخير » فانه لا يكون لدينا أي من المزايا التي نتمتع بها عند استعمال كلمة واضحة المعنى مثل « انسان » . ذلك أن هذه الكلمات تدل على أصناف ليس من السهل فرزها عن الاصناف الاخرى ... وهي ليست من الكلمات التي تثبت على معنى واحد ، فلا تتغير أو تتبدل معانيها ، لا بل اننا

---

١ ــ وجدت من الافضل ان احور المثال الى « الانسان » بدلا من « الكلب » كما ورد في الاصل . المترجم

معرضون لخطر استعمالها في معان متغيرة متبدلة . ولا يوجد اتفاق عام على معناها ، ولهذا فانه من الواجب ان نحدد معناها أولا حتى نتاكد من ان الاخرين يفهمون مرادنا من الكلام ، ومعنى قولنا هذا هو أننا نريد ان نجعل الطريقة التي نستعمل فيها هذه الكلمات شبيهة بالطريقة التي نستعمل فيها كلمة مثل « انسان » بقدر الامكان . والذي نريده هو أن يكون لدينا كلمات للاصناف المختلفة تدل على الفروق الحقيقية الموجودة في العالم الخارجي الذي نحاول وصفه . وقد نعبر عن ذلك بعبارات ذات معنى تجريدي بقولنا اننا نريد ان يكون تركيب لغتنا متناظرا مع تركيب عالم الحقائق الواقعية — وهو العالم الذي نحاول ان نصفه ونتكلم عنه بهذه اللغة . وبذا تكون كلماتنا أدوات صالحة ونافعة في التفكير . ولكن اذا كان هناك اختلافات في عالم الامور الواقعية ليس لها ما يناظرها من اختلافات في لغتنا أو كان في لغتنا اختلافات ليس لها ما يناظرها في عالم الامور أو الحقائق الواقعية ، فان استعمالنا للغة لا يكون عن مهارة أو تمكن ، وقد يؤدي بنا ذلك الى التفكير المشوش .

وأحد الاخطار التي يود المفكر الحريص ان يحمي نفسه منه ، هو الخطر الذي ينجم عن استعمال الكلمات بمعان مبهمة غير محددة أو بمعان متقلبة . وأوضح نموذج للتفكير الاعوج الناجم عن فقدان المعاني الواضحة هو التفكير الذي تستعمل فيه كلمة ما بمعان مختلفة في أجزاء مختلفة من جدال واحد . ومما يذكر مثلا ان كاتبا يكتب كتابة غير متخصصة لعامة الناس في موضوع عن « نفسية الجماهير » بدأ كلامه بالاشارة الى ما للجمهور من قسوة القلب وعدم الشعور بالمسئولية وقلة الذكاء (والجمهور هنا معناه حشد من الناس يتجمع في شارع أو سوق وافراده لهم اهتمام واحد معين) . ثم اشار بعد ذلك الى ان قسوة القلب وعدم الالتزام بالمسئولية وقلة الذكاء عيوب ضرورية من مستلزمات الحكم

الديمقراطي لان الديمقراطية هي حكم الجمهور . وهنا نرى أن الكاتب بكلامه هذا قد بدل معنى « الجمهور » كما هو واضح ، وذلك بأنه استعمل الكلمة اولا بمعناها الحرفي عن حشد من الناس في مكان واحد اجتمعوا لاهتمامهم بأمر ما ثم استعملها ثانية بمعنى مجازي عن مجموع الناخبين في مجتمع ديمقراطي .

وشبيه بذلك ما يجري في المناقشات العامة في أمور تتعلق بالعلاقات الصناعية ، اذ تستعمل في هذه المناقشات كلمتا «العمالة» و « راس المال » بمعنى اقتصادي دقيق محدد كما هو في علم الاقتصاد حيث يكون معناهما « الشغل » و « الثروة المجمعة » وتستعمل أيضا بمعنيين اخرين هما « العمال » و « الراسماليين » (وهو المعنى المتضمن ، مثلا ، في الاستنتاج العام بأن « راس المال » و « العمالة » يكمل أحدهما الاخر) . فالمعنيان في هذين المصطلحين قد يتقلبان على هذين الوجهين في أثناء حجة منطقية واحدة فتستعمل الكلمتان بمعنى في المقدمتين وبمعنى اخر في النتيجة .

وكما اننا لا نضمن صحة النتيجة المستنبطة من حجة منطقية موضوعة على صورة منطقية سليمة اذا كانت المقدمتان مشكوكا في صحتهما . كذلك لا نضمن صحة النتيجة المستنبطة في حجة منطقية موضوعة على صورة منطقية سليمة اذا كانت المصطلحات المستعملة في القضية تتغير معانيها في أثناء الجدال . وعلى هذا فان في الامكان وضع الحجة آنفة الذكر ضد الحكم الديمقراطي في الصورة التالية :

كل جمهور هو قاسي القلب ولا يلتزم بالمسئولية وعديم الذكاء ،
الديمقراطية حكم الجمهور ،

فالديمقراطية حكم من يكون قاسي القلب ولا يلتزم بالمسئولية وعديم الذكاء .

فهذه الحجة كما هو واضح موضوعة في صورة منطقية صحيحة ، ولكن حتى لو كنا على استعداد لان نقر بصحة المقدمة الاولى ، مع ما يحوطها من شك ، فان النتيجة الحاصلة لا تلزم من المقدمتين لان كلمة « الجمهور » قد استعملت بمعنيين مختلفين في المقدمة الاولى والمقدمة الثانية .

ولهذا يجب علينا أن نميز كضرب من التفكير الاعوج استعمال المصطلحات بمعان مختلفة في أجزاء مختلفة من الحجة . ويمكن معالجة هذه الحالة بالطلب الى الشخص الذي ارتكب هذا الخطأ ، أن يعرف لنا المصطلحات التي يستعملها ثم علينا ان نرى اذا كان التعريف الذي اعطاه لكلمة اصطلاحية عند نقطة ما في الحجة ، يتطابق مع استعماله لهذه الكلمة في الاجزاء الاخرى من الحجة . واذا وقعنا على مثل هذه الحجة في قراءتنا فقد نستعيض عن المصطلح المشكوك فيه الذي استعمل في مكان ما من الحجة بكلمات من صور أخرى ثم نرى اذا كانت هذه الكلمات الاخرى تنفع في المكان الاخر . مثال ذلك اننا ، في الفقرة الواردة آنفا ، نجد من التمعن في الامثلة المعطاة على قسوة القلب وعدم الالتزام بالمسئولية وقلة الذكاء ، ان الكاتب هنا يستعمل كلمة « الجمهور » لتعني جماعة من الناس في مكان واحد مشغولين بعمل مشترك واحد . ولكن يتضح لنا ان هذا المعنى لا ينفع في استعماله في المرة الثانية لان الديمقراطية ليست حكم جماعة من الناس في مكان واحد مشغولين بعمل مشترك واحد . ولذلك فمن الجلي أن القضية قد فسدت بسبب تبديل المعنى في كلمة « جمهور » .

ومن المواقف التي تنطوي على اعظم خطر ، يهدد تفكيرنا ويجعله يحيد عن الصواب بسبب تبديل معاني الكلمات ، موقف نتعرض له عند استعمالنا للاسماء الوطنية مثل بريطانيا وامريكا والمانيا وروسيا وغيرها . ان بلبلات التفكير مهمة جدا عندما تكون

لها عواقب عملية خطيرة ، وان لبعض هذه البلبلات عواقب أكثر خطورة من عدم الدقة في استخدام مثل هذه الاسماء الوطنية .

ولعل الروح الحربية وسوء التفاهم بين الامم والتغاضي عن استعمال القسوة أمور كلها تنجم عن اننا لا نكون على بينة ووضوح عندما نستعمل هذه الاسماء الوطنية بمعان مختلفة .

ولننظر مثلا في خطبة يجوز أن تكون قد صدرت عن خطيب محب لوطنه ولكنه غير واضح كثيرا في تفكيره ، فأخذ يحابي الحلفاء في خطبته في اثناء حرب ١٩٣٩ قائلا : « المانيا هي الخطر العظيم الذي يهدد سلام العالم . فقد غزت بلجيكا سنة ١٩١٤ مع انها كانت قد قطعت على نفسها عهدا بنص المعاهدة المبرمة بأن تحترم حياد بلجيكا . ومع انها سلبت فرنسا ما قيمته (٢٠٠) مليون جنيه استرليني على اثر حرب ١٨٧٠ فانها تمسكنت وناحت للحلفاء تشكو من المشاق التي كانت ستعانيها بسبب التعويضات المطلوبة منها سنة ١٩١٩ ، والتي ما كانت سوى عقاب عادل تعاقب به على اجرامها في البدء بحرب ١٩١٤ . فلا تدعوا توسلات المانيا في طلب الرحمة بعد انكسارها في الحرب تخدعكم . ولا شيء سوى القضاء التام على المانيا يضمن سلام العالم في المستقبل » .

فكلمة « المانيا » او أي ضمير يقوم مقامها (كالضمير « هي » وصيغه المختلفة) وردت سبع عشرة مرة (١) في الفقرة التي اقتبسناها . وهذه الفقرة يمكن أن تكون معقولة فقط لو أن كلمة « المانيا » استعملت لتدل على نفس الشيء في كل موضع وردت فيه . ولكن هل كان الامر كذلك ؟ وليس واضحا ، بأي شكل ، على ماذا تدل كلمة « المانيا » الواردة في الجملة الاولى . ان من المؤكد ان هذه الكلمة ، لا في الجملة الاولى ولا في اي موضع اخر من الفقرة ، تدل على المساحة الارضية المعروفة على الخريطة باسم « المانيا » لان

١ – في الاصل الانجليزي وردت ١٢ مرة فقط .

أية مساحة أرضية لا يمكن ان تكون خطرا يهدد السلام أو ان تغزو مساحة خرى من الارض أو ان تنكث عهدا وغير ذلك . وقد تكون بمعنى جميع سكان تلك المساحة من الارض أو جزء منهم أو بمعنى مجرد دال على كيان موحد يجعل الامة قائمة بنفسها ومنفصلة عن غيرها . ولهذا فان معنى الجملة يتوقف بالطبع الى حد كبير على أي المعاني لكلمة « المانيا » هو المقصود منها .

والجملة الثانية امرها اسهل . فالضمير المتصل في « غزت » (نيابة بالطبع عن « المانيا » يدل على الجزء من سكان المانيا الذي تألف منه الجيش الالماني في عام ١٩١٤ ، ولكن الضمير المتصل في « أنها » يدل على شيء اخر مختلف جدا . ذلك ان العهد باحترام حياد بلجيكا كان قد أعطي سنة ١٨٣٩ قبل أن يأتي الى الوجود معظم سكان المانيا سنة ١٩١٤ . ثم ان هذا العهد لم يقطعه جميع سكان المانيا في ذلك الزمن أو عدد كبير منهم . وانما قطعته فئة حاكمة صغيرة من حكومة بروسيا التي كانت أبعد ما تكون عن الديمقراطية، وتعهدت هي والحكومات المتعاقبة بموجبه بأن تحترم حياد بلجيكا . وصحيح أن حكام المانيا سنة ١٩١٤ كانوا لا يزالون ملزمين بذلك الاتفاق ، ولكن شكل الجملة يعني ضمنا بأن الغزاة في سنة ١٩١٤ والذين قطعوا ذلك العهد هم شيء واحد ، وكان هذا التضمين الخاطيء نتيجة استعمال كلمة « المانيا » بمعنيين مختلفين في جملة واحدة .

وفي الجملة التي تلي الثانية كان الضمير المتصل الاول في « أنها » يشير الى حكام المانيا سنة ١٨٧١ في الامبراطورية الالمانية حديثة التأسيس آنذاك ، وكان الضمير المتصل الثاني في « أنها » يشير الى الجرائد الالمانية وغيرها من اشكال النشر والاعلان سنة ١٩١٩ . والضمير في « تعاقب به » يشير الى جميع الشعب الالماني (من رجال ونساء وأولاد) لان الجميع قاسوا من الفقر الذي لحق بهم من جراء التعويضات التي اقتضتها معاهدة فرساي ، أما

الضمير في « جرمها » فلا يمكن أن يشير الا الى أولئك المسئولين عن اشعال نار الحرب أي الى الحكام الذين كانوا يحكمون سنة ١٩١٤ او الى من كان لهم من السلطة والنفوذ في ذلك الزمن ما يستطيعون به التأثير في السياسة الحربية . ويتضح هنا ايضا ان كلمة واحدة قد استعملت للدلالة على مجموعتين يتداخل افراد احداهما في الاخرى ، مع العلم بأن كثيرا من افراد المجموعة الثانية كانوا أمواتا عندما حل عام ١٩١٩ ، وبأن كثيرين من المجموعة الاولى اما أنهم لم يكونوا قد ولدوا بعد او أنهم لم يكونوا قد بلغوا سن الرشد في سنة ١٩١٤ . والايهام بأن العقاب والجرم هما على وجه التأكيد منطبقان على نفس المجموعة الواحدة ناتج عن استعمال الكلمة الواحدة « المانيا » لتدل على كلتا المجموعتين .

اما كلمة « المانيا » الواردة في الجملة الاخيرة من الفقرة فتعني على ما يظن الكيان القومي الموحد . وهنا لا يمكن لمساحة من الارض ان يقضي عليها او تباد ، واشد دعاة الحرب حماسة لا يمكن أن يكون مرادهم القضاء على جميع سكان البلد المعادي . ومن الواضح أن المانيا يمكن القضاء عليها كوحدة قومية واحدة من غير أن يقضى على أحد من سكانها وذلك بتجزئتها الى عدد من الدول الصغرى أو ادماجها ببلد اخر . فالاثر الوحيد لاستعمال الكلمة الواحدة «المانيا» بهذا المعنى الجديد هو أن توحي بأن العلاج المقترح هو اشد ضراوة مما هو في الحقيقة ، أي كما لو كان الخطيب يقترح ابادة جميع سكان المانيا الحاليين .

ومن الجلي أن الخطيب لو كان أراد ان يجعل ما يعنيه واضحا تماما لكان واجبا عليه أن يضع بدل كلمة « المانيا » أو ما يدل عليها في كل مرة استعملها كلمة في صورة أخرى تدل في معناها دلالة صحيحة على ما يريد ان يقوله في تلك المرة على حدتها . وعندها تكون الفقرة من خطابه على صورة شبيهة بالصورة التالية : « المانيا هي الخطر العظيم الذي يهدد سلام العالم . فقد غزا الجيش

الالماني بلجيكا في سنة ١٩١٤ مع أن الفئة الحاكمة في المانيا في ذلك الزمن ورثت الالتزام باحترام حياد بلجيكا وهو الالتزام الـذي تعاقد عليه حكام بروسيا سنة ١٨٣٩ . ومع أن حكام الامبراطورية الالمانية التي كانت حديثة العهد آنذاك قد سلبوا فرنسا (٢٠٠) مليون جنيه استرليني بعد حرب ١٨٧٠ فان الجرائد الالمانية وكتاب الدعايات أخذوا ، في سنة ١٩١٩ ، يتمسكنون وينوحون في شكواهم الى الحلفاء من المشقات التـي سيعانيها سـكان المانيـا بسبب التعويضات المطلوبة منهم عقابا عادلا لسكان المانيا سنة ١٩١٩ الذين كانت لهم حكومة في سنة ١٩١٤ أجرمت بأنها كانت هي التي بدات الحرب . فلا تدعوا توسلات كتاب الدعاية الالمان في طلب الرحمة للشعب الالماني بعد انكسار الجيوش الالمانيـة في هذه الحـرب تخدعكم . ولا شيء سوى انهاء الاستقلال الذاتي لالمانيا يضمن سلام العالم في المستقبل » .

ومع ذلك فان الخطبة لا تزال تشتمل على نقائض من حيث التفكير المستقيـم (كاستعمال كلمتـي « سـلب » و « نـاح » الانفعاليتين) ، ولكنها في صيغتها الجديدة المعدلة تمتاز بأنها تقول تماما ما يراد بالمعنى الصحيح من غير تشويش نتيجة تبديل المعاني . بيد أنها لهذا السبب بعينه قد فقدت قيمتها الدعائية .

وفي استطاعة المرء بطبيعة الحال الاتيان بما يوضح هذا النوع من التخبط في التفكير بشكل جيد مماثل لما سبق وذلك عن طريق وضع خطبة وهمية يتكلم بها خطيب من الجانب الاخر . فيقول مثلا : المانيا موطن الشعراء والموسيقيين هي الان في خطر مميت . فهي تقاتل حفاظا على وجودها ضد عصبة من الاعداء يحسدونها لعظمتها الى اخره » . وهذا الكلام أيضا كلام فارغ ، لان كلمـة « المانيا » وما ينوب عنها من الضمائر في الخطبة ليس لها معنى واحد فيجميع المواضع . فكلمة « المانيا » الاولى تشير بوضوح الى المساحة الارضية المبينة على الخريطة جغرافيا باسم المانيا ، لان

هذا وحده هو ما يمكن أن يقال عنه انه موطن الشعراء والموسيقيين ولكن هذه المساحة الارضية ذاتها لا تقاتل ، والضمير في « تقاتل » في الجملة الثانية يشير الى قسم من السكان الكبار منخرط في القوات المقاتلة أو مشغول بشكل نشط في المجهود الحربي . ولكن الضمير المتصل في « وجودها » لا يمكن أن يعني أيا من هذين المعنيين . ولا أن الاراضي او السكان يمكن أن تتوقف عن الوجود او الحياة نتيجة للهزيمة في الحرب . والمعنى المقصود هنا هو المعنى الاكثر تجريدا الدال على الكيان القومي الواحد المعروف باسم « المانيا » ، فان هذا الكيان قد ينتهي وجوده اذا حدث أن جزئت هذه الامة الى وحدات صغرى أو ادمجت في امة اخرى ، بالرغم من أن سكانها الاصليين ومساحتها الارضية الاصلية بقيتا في الوجود كأجزاء مؤلفة للوحدات القومية الجديدة . ولا يخفى أن خطبة هذا الخطيب لا يبقى فيها كثير من التوافق بعد أن نكون قد فحصنا فحصا تمحيصيا ناقدا كل معنى لكلمة « المانيا » في كل مرة استعملت فيها .

والخطبتان الواردتان آنفا تختصان بطبيعة الحال بتاريخ ماض وتتعلقان بنزاع لم تعد له اهمية باقية ، ولكن المشكلة نفسها لم تمت ... فنحن لا نزال نفكر ونتكلم عن بلادنا أو عن المجموعة القومية التي نكرهها أشد الكره في الآونة الحاضرة بنفس خطر طريقة التخبط الفكري الناجم عن عدم ادراكنا تماما على أي شيء يدل اسم الامة أو الدولة كلما ورد ذكره . وكلما نرى أو نستعمل عبارة مثل «ص» فعل كذا وكذا أو « عظمة ص » أو « مصالح ص » فاننا نستطيع أن نقوم لانفسنا بالتمرين الذي يمكننا من معرفة المعنى الذي يستعمل فيه اسم (ص) في كل مرة (وص هنا اسم لامة أو لدولة) . وينبغي بشكل خاص أن يكون واضحا في ذهننا متى تدل (ص) على جميع السكان من دك أوكار فلاديمير (١) مع

---

١ ـ من الواضح أن المؤلف قد استخدم هذه الاسماء الثلاثة لتدل على ثلاث جنسيات هي على التوالي : الانجليزية والالمانية والروسية .

نسائهم وأولادهم ، ومتى لا تدل على ذلك . وقد تكون أو لا تكــون « مصالح ص » ذات علاقة بمصالح زيد وعمرو وخالد مع نسـائهـم وأولادهـم ومع ذلك فان هـذه المصالح قد تكـون من الاهميـة بمكان عظيم بحيث أن الناس يكونون على استعـداد التضحيـة بنفوسهم في سبيلها ، ولكن يحتمل أن لا يحدث ذلك .. والافضل لنا أن نعرف ما يدل عليه (ص) قبل أن نستعد لتضحية النفوس في سبيل مصالحه . وقد تكون هذه المصالح منحصرة بفئة صغيرة من الرجال في مراكز الحكم او ذوي نفوذ يمارسونه بفضل غناهم وثروتهم . وعلينا في هذه الحالة ان لا نشعر بأننا معنيون بمصالح هذه الفئــة .

وعادة استعمال الكلمات التي لها معنيان او اكثر وليس من السهل التمييز بينها قد يؤدي بنا الى كثير من التفكير الخاطيء . وثمة شكل اخر من نفس هذا المرض اسوأ من الشكل الاول بكثير وهو استعمال كلمة ليس لها معنى واضح وانما لها ، في دلالتها ، ميل عام في اتجاه معين . ونحن بمثل هذا الاستعمال نكون مذنبين بالغموض ، وهو عيب يستحيل معه اي تفكير دقيق صحيح وأية مباحثة معقولة .

وحتى تكون العبارة غامضة لا ضرورة لان يكون القول معمى أيضا . غير ان هذا كثيرا ما يحدث ، وعندها تكون التعمية المتعمدة غالبا ذريعة للغموض ، ويراد بها أن تكون تغطية له . ولكن ابسط الاقوال او الافكار يمكن أن يكون غامضا اذا لم يكن منطويا على معنى واضح في ذهن القائل أو المفكر . ويحتمل ، بشكل خاص ، أن يحدث هذا مع الكلمات ذوات المعاني المجردة أو مع أسماء المعاني . فمثلا الكلمات أمثال « مبدأ » و « ثروة » و « روحي » لها معان لا يمكن ابدا أن تكون ممثلة في الذهن بصورة عقلية لشيء خارجي او فعل او علاقة بين الاشياء أو الافعال الخارجية .

ومعنى هذه الكلمات الصحيح هو عبارة عن نوع من خلاصة مجملة أو تجريد معنوي للعديد من الاشياء الخارجية المختلفة .

ونسمع جميعا العديد من مثل هذه الكلمات التي لا تؤدي في بادىء الامر أي معنى ندركه على الاطلاق ، وقد يجوز أن ندخلها في جملة مفرداتنا قبل ان يكون لها معنى واضح لدينا . وللحصول على معان جلية لاية كلمات غير أسماء الاشياء العادية (اي الدالة على الاشياء ، بأعيانها ، التي لها وجود خارج الذهن) يقتضي بذل قدر من المجهود العقلي ، والتكاسل في هذا الباب يؤدي بنا الى الاكتفاء بادخال كلمات عديدة في لغتنا وتفكيرنا دون أن نكلف انفسنا عناء هذا المجهود العقلي .

ولننظر أولا في كيفية التخلص من الغموض في عقولنا وتفكيرنا نحن قبل النظر في كيفية مكافحتنا للغموض في حجة الخصم . وقد نبدأ هذا الامر بالرجوع الى تعريفات الكلـمات في القاموس . والرجوع الى القاموس كعادة متأصلة عند الوقوع على كلمة جديدة علينا لمعرفة معناها بالضبط قبل أن ندرجها في عداد مفرداتنـا اللغوية عادة مفيدة لانها تساعفنا ضـد تنامي الكلمات عندنا دون أن يكون لها معان محددة في مفرداتنا اللغوية .

ومع أن استعمال تعريف القاموس للكلمات هو وقاء مـن استعمال كلمات لها معان متحولة ومتباينة ، الا ان ذلك لا يؤدي بالضرورة لان تكون هذه الكلمات جزءا نافعا من عدتنا العقلية التي نستعين بها في التفكير المستقيم . ولنفرض مثلا أننـا وقعنا على مصطلح تقني جديد علينا ، ونريد ان نفهم هذا المصطلح اذا مر معنا في قراءتنا وأن نتمكن أيضا من استعماله على الوجه الصحيح اذا كتبنا أو تكلمنا . ولهذا ننظر معنى الكلمة في قاموس معتمد عام او في قاموس فني خاص بمصطلحات علم النفـس او الفلسفـة او الاقتصاد . فاذا كان القاموس جيدا فاننا سنحصل منه على شرح لا ابهام فيه ولا غموض عن كيفية استعمال الكلمة ، اما في الكلام

العام ويكون ذلك من قاموس معتمد عام أو في اي من أنظمة اللغات العلمية اذا كنا قد رجعنا الى قاموس علمي فني . وسنكتشف من القاموس كيف نصف استعمال المصطلح الجديد ... وسنعرف ايضا من التعريف القاموسي ان عددا من طرق استعمال الكلمة التي كان من المحتمل أن ناخذ بها قبلا هي طرق خاطئة .

ومعرفة الكيفية التي يوصف بها استعمال كلمة ما ــ حتى على هذا الاسلوب القاموسي ــ لا تكفي لضمان فهم استعمالها فهما صحيحا أو لضمان تمكننا من استعمالها على الوجه الصحيح . ويكون هذا الحال معنا شبيها نوعا ما بحالنا لو اننا قرانا مثلا وصفا دقيقا لسمكة من اسماك اعماق البحر ووجدنا أن هذا الوصف يقصر عن أن يمكننا من رسم صورة لهذه السمكة او حتى للتعرف عليها عند رؤيتها .

وقد نقع مثلا على مصطلح في علم النفس التحليلي مثل « العقدة النفسانية » (Complex) فننظر المصطلح في قاموس لعلم النفس فنجد هناك تعريفا كالتعريف التالي : « العقدة النفسانية هي مجموعة من الافكار غير الشعورية أو غير الشعورية جزئيا مترابط بعضها ببعض بحيث تتكون منها جميعا سلسلة في رد فعل سلوكي كامن » . وقد لا يكون هذا التعريف جيدا جدا ولكنه يكفي لاعطاء فكرة عن ذلك الشيء الذي هو مدلول هذه الكلمة . غير أنه ، في واضح الامر ، قاصر عن أن يمكن الشخص الذي يقع على هذا المصطلح في قراءته ، من أن يستعمله على الوجه المراد منه . فهذا الشخص قد يحتاج على الاقل الى بعض الشواهد او الايضاحات عن مجموعة الافكار التي تنطبق هذه الكلمة عليها .

وقد يحتاج الى أن يعرف أن مثالا علىالعقدة النفسانية يحتمل أن يكون كما يلي : رعب تملك النفس في يوم من أيام الصغر من قطار داهم ثم تنوسي الحادث لبعد الزمن ، ولكنه أحدث في النفس في حياة الانسان فيما بعد فزعا ملازما لا يجرؤ المصاب به ، بسببه ، على أن

يذهب بعيدا عن بيته ولو لبضع مئات من الياردات ، أو كمثال اخر بأن العقدة النفسية هي نقمة أو حقد تولد في نفس شخص من أيام الصغر على أبيه ثم تنوسي الحقد مع بعد الشقة وانقلب فيما بعد الى حقد ضد الملوك والقضاة والشرطة وكل من في مراكز السلطة . فبعد سماع هذه التمثيلات وما شابهها قد يرى الشخص انه يمكنه الان أن يقول لك : « الان بدأت أرى ما تعنيه بالعقدة النفسانية » . والمثالان اللذان قدمناهما آنفا على العقدة النفسانية لا يحتمل لهما وحدهما أن يحددا معنى الكلمة تحديديا يكفي لجعل هذا المعنى جزءا ينتفع به في جهاز هذا الشخص العقلي . وقد يعمل هذان المثالان مع التعريف كدليلين لاثراء تجاربه في دراسة الحياة العقلية الخاصة به وبغيره من الناس ويساعدانه في قراءاتـــه في كتب علم النفـــس التحليلي ، الى أن يحصل نتيجة ذلك على فهم محدد للكلمة ولكيفية استعمالها . وهكذا ، فان الاثر الجماعـــي للتعريف والتمثيـــل والايضاح والتجربة يؤدي الى اكساب المرء معرفة بمعنى المصطلح « العقدة النفسانية » يقيه من خطر استعماله استعمالا غامضـــا وكذلك من خطر استعماله دون اشارة الى اي شيء حقيقي موجود في العالم من حولنـــا .

واعطاء الشواهد وسيلة نافعة لابقاء تفكير الانسان على اتصال وثيق بالواقع . وثمة خطة سليمة تتبع في أثناء القراءة أو الحديث أو التفكير وهي أن نطالب أنفسنا على سبيل التحدي بأن نأتي بأمثلة معينة تكون شواهد العبارات العامة تزيدها ايضاحا وتبيانا . والا فان المصطلحات المجردة التي نستعملها قد لا يكون لها معنى عندنا الى حد أن تنقطع الصلة بسبب ذلك بين تفكيرنا والواقع .

وقد نقع مثلا في قراءتنا لكتاب في علـــم النفس على ما يلي : « قيمة تحويل الغريزة من حيث الفائدة الاجتماعية هي انهـــا تهيىء منفذا لا يكون ضارا اجتماعيا لبعض الاتجاهات السلوكية التي تكون مستهجنة لولا ذلك » . وهنا نقف ونفكر ونقول : « من

الخير لزيد من الناس أن يلعب بكرة القدم لانه بهذا اللعب يكون قد قلل من احتمال حدوث الازعاج الذي قد يسببه اذا اشتغل بمقاتلة الغلمان الاخرين من امثاله او بالقاء الحجارة على فوانيس الشوارع » . هذا مثال واحد على معنى العبارة التي اقتبسناها آنفا من كتاب علم النفس ، وبذا نكون متأكدين من اننا لم نحد عن معنى المؤلف . ولا حاجة بنا في هذه الآونة ايضا الى أن نقف ونفكر في جميع الاشياء الاخرى التي تعنيها العبارة مثل : قيمة كتابة الشعر بالنسبة الى الشاعر الانكليزي (شلي) وقيمة العاب الفروسية ومبارياتها بالنسبة الى فرسان الملك آرثر وقيمة اقتناء القطط بالنسبة الى الاشخاص الذين يستشعرون الوحدة في حياتهم ... وامور كثيرة اخرى .

وفي متابعتنا للقراءة في كتاب علم النفس نقع على فقرة اخرى نجد أنفسنا مدفوعين الى التوقف لنتأكد اذا كنا قد فهمنا المعنى . والفقرة كما يلي : « الحرمان من الغريزة الغذائية مدمر للاهتمامات الثقافية العليا » . ونفكر بأن الرجل الذي ليس لديه من الطعام ما يكفيه لا يحفل بالشعر واللوحات الفنية .

وننتقل الى كتاب اخر فنتوقف عند الفقرة التالية : « الالم واحاسيس اللذة تعطينا عقلية الغريزة ، ومحتوى وظائف الشعور الديناميكية كوحدة العمل الغريزي » .

وهنا نحاول أن نفكر في شيء معين يمكن أن تعنيه هذه العبارة . فالكلمات الاربع الاولى لا نلاقي منها صعوبة ، ولكنها بعد ذلك نعجز لاننا لا نفهم ما قيل ، ولا نستطيع بسبب ذلك ان ننتفع به في تفكيرنا . ونعود الى تفسيرات سابقة للمصطلحات المستعملة بقصد فهمها ، وقد نلجأ حتى الى قراءة الكتاب بأسره مرة ثانية املا في ان يتضح لدينا الامر عند قراءته للمرة الثانية او الثالثة . ولكن اذا لم يظهر لدينا بعد هذا كله شيء معين يكون تمثيلا او شاهدا لمعنى

العبارة وموضحا لها وجب علينا حينئذ أن نستنتج ولو عن غير رضى منا اننا لم نفهم العبارة . وقد يكون السبب في عدم فهمنا خطأ المؤلف او خطأنا .

ويجب بطبيعة الحال أن لا نخطىء فنظن أن مثالا بسيطا بمفرده يفي بتوضيح معنى فقرة تجريدية . ذلك أن المصطلحات المبنية على التجريد تكون عادة عبارة عن طريقة اختزالية تستعمل للاعراب عن مجموعة كبيرة من الامور الواقعية المعينة . والنجاح في التفكير التجريدي يعني أننا قادرون فعلا على التفكير في صنف من الاشياء برمته على اساس المظاهر المشتركة بين جميع الافراد وليس فقط على أساس مظاهر بعض الافراد التي نختارها كأمثلة او ايضاحات . وما لم نتوفق في اداء ذلك على هذا المنوال فاننا لا نكون قد ارتقينا الى مستوى التفكير التجريدي . ولا غنى لنا عن المقدرة على التفكير بكلمات ومصطلحات تجريدية في معناها ، وهي من جملة المهارات التي يجب علينا اكتسابها . ويبدأ تعلمنا طريقة التفكير التجريدي في المدارس وينبغي أن لا نتوقف عن المضي بتعلمها سائر حياتنا .



الفصل الثامن
التعريف
وبعض الصعوبات التي تعترضه

اذا اردنا لتفكيرنا أن يكون واضحا واردنا أن ننجح في ابلاغه للناس الاخرين وجب أن تكون لدينا طريقة نحدد بها معاني الكلمات التي نستعملها . فاننا اذا استعملنا كلمة ، وكان معناها غير مؤكد جاز لسائل أن يسألنا تحديد تعريفها . وهناك طريقة تقليدية نافعة لتحقيق ذلك هي الرجوع الى الصنف الذي ينتمي اليه كل ما يشير اليه اللفظ وكذلك الى الخاصية المعينة التي تميز هذه الفئة عن جميع أفراد نفس الصنف الاخرين . وعلى هذا يمكن مثلا أن نعرف الحوت بأنه « حيوان بحري يمج الماء » (١) ، ففي هذا التعريف تشير عبارة « حيوان بري » الى الصنف العام من الحيوان الذي ينتمي اليه الحوت ، وعبارة « يمج الماء » تدل على الخاصية المعينة التي تميز الحيتان عن بقية الحيوانات البحرية مثل الاسماك وعجول البحر والهلاميات والسراطين وغيرها . وبهذه الطريقة نفسها يمكننا أن نعرف العدد الزوجي بأنه عدد صحيح مثناه يقبل القسمة على (٢) ، أو أن نعرف الديمقراطية بأنها نظام من الحكم يكون الشعب فيه هو الحاكم .

وثمة طرق اخرى بطبيعة الحال تتخذ للدلالة على معاني الكلمات . مثال ذلك أننا قد نجد من العسير اعطاء تعريف مناسب لكلمة « حيوان » ، ولذلك نقول ان الحيوان هو شيء كالارنب

---

١ ـ أوردنا التعريف كما جاء به المؤلف رغم انه غير دقيق علميا .

والكلب والسمكة الخ . . ونقول في تعريف الدين انه نظام كالمسيحية والاسلام واليهودية ، والعلم المسيحي Christian Science (٢) وغير ذلك . ومن الواضح ان هذه الطريقة في تعريف الشيء وتحديد معناه بتعداد عدد من الاسئلة من جنسه ، طريقة نفعها محدود . فاذا دللنا على استعمالنا لكلمة « حيوان » باتخاذ هذه الطريقة فان مستمعينا قد يساورهم الشك بشأن زنابق البحر أو البزاقة هل هما من صنف الحيوان . ولكن هذه الطريقة تفيد كتكملة للتعريف اذا كان التعريف نفسه محددا دون أن يكون فهمه سهلا . فاذا حاولنا مثلا تفسير ما نعني بكلمة « الدين » بقولنا ان « الدين مجموعة من المعتقدات والممارسات المتصلة بعالم روحي ، كالمسيحية والاسلام واليهودية والعلم المسيحي وما الى ذلك » ، فاننا ننجح بتعداد الامثلة في زيادة معنانا توضيحا اكثر من نجاحنا لو أننا اكتفينا بالتعريف فقط دون تمثيل .

والاخفاق في محاولة وضع تعريف يفي بالغرض المقصود منه ، قد يكون بسبب تقديم سمة معينة في هذا التعريف على أنها علامة فارقة ، في حين أن هذه السمة اما انها لا تنتمي الى جميع الاشياء التي يراد للتعريف أن يشملها واما أنها تنتمي الى بعض الافراد في نفس الصنف العام ، وقصد من التعريف الا يشملهم ، فاذا فكرنا مثلا في أوضح فرق بين الارنب ونبات الملفوف (الكرنب) فقد نجد في أنفسنا دافعا يدفعنا الى تعريف الحيوان بانه كائن حي قادر على التحرك هنا وهناك . وهذا يجمع الخطأين المذكورين سابقا لان بعض الحيوانات (كبعض الحيوانات الصدفية والمرجان) لا تقدر على الحركة هنا وهناك في جميع فترات حياتها او بعضها ، كما ان بعض النباتات (كالالجا الفولفوكس Volvox) تسبح من مكان الى

---

٢ ــ طائفة من طوائف المسيحية ، ظهرت في امريكا في القرن التاسع عشر ، وما زال لها انصارها .
المترجم

مكان وبطبيعة الحال فان اي شخص استعمل التعريف الماز ذكره قد يدعي بأنه انما اتى في تعريفه للحيوان بتعريف جديد مبتكـر يشمل الجا الفولفوكس ويستثني بعض الصدفيات ، ولكنه يكون قد فاته الاتيان بتعريف يحدد الاستعمال المعتاد لكلمة « الحيوان » .

والاكثر من ذلك شيوعا أن تخفق محاولة التعريف لانها لا تشير بطريقة الى الصنف العام الذي ينتمي اليه الشيء المـراد تعريفه . فقد يقع الانسـان مثلا في كتابات من علم النفـس على تعريف كالتعريف التالي : « الذكاء حالة من حالات العقل تتميز بالقدر على التعلم وعلى حل المشكلات » . فالقسم الثاني مـن التعريف لا غبار عليه ، ولكن كلمة « الذكاء » لا تستعمل لحالة من حالات العقل ، والشخص الذي يعرف « الذكاء » على هـذه الصورة لا يستعمل هو نفسه هذه الكلمة فعليا لتدل على حالة من حالات العقل . اما الحالات مثل **اليأس والتركيز والتيقظ والامـل فيمكن تسميتها حالات ذهنية** . وكلمة « الذكاء » تستعمل لنوعية من نوعيات العقل وليس لحالة من حالاته . ولذلك فانه لو وضعت كلمة « نوعية » مكان كلمة « حالة » في التعريف السالف لاصبـح التعريف دالا بوضوح على الاستعمال الجاري لكلمة « الذكاء » في النسق اللغوي لعلم النفس . ومع ذلك فان هذا الاستعمال قد لا يكون مطابقا تماما للاستعمال الجاري في حديث الناس يوميا ، لان معنى الذكاء في حديث الناس هذا يكون على الارجح أوسع من ذلك واقل تحديدا .

ومن السهل الاشارة الى أسماء الاصناف التي تستخدمها طريقة التعريف حين تندرج الاشياء بسهولة تحت أصناف متميزة . ولكنها تكون أصعب من ذلك اذا كنا نعالج أشياء لا تنتظم بسهولة في أصناف واضحة . وعندئذ يقع المفكر غير المنتبه في عثرات كثيرة . وفي المنطق قانون محترم يطلق عليه اسم « قانون الوسط المرفوع » وهو أن شيئا (أ) يكون اما « ب » أو غير « ب » . فالورقة مثلا هي

اما بيضاء او غير بيضاء . وهذا القول صحيح ولا شك من جهة ما ، غير ان نوع التفكير الذي ينطوي عليه هذا القانون قد ينطوي على خطر ، وقد يكون مضللا اذا طبق على سلسلة معينة مألوفة من الامور الواقعية .

ولننظر مثلا في حالة الورقة البيضاء . ان بياض هذه الورقة يتوقف على مقدار الضوء الذي تعكسه الى اعيننا . وقد نقول عن ورق هذا الكتاب انه « ابيض » لانه يعكس الشيء الكثير من الضوء ويمتص الشيء القليل جدا منه . ومع ذلك فهو لا يعكس جميع الضوء . ولو طلينا الورق بمواد كيماوية معينة لانعكس عنه مزيد من الضوء ، ولكن لا ينعكس عنه جميع الضوء الساقط على سطحه . واذا طليناه طلاء خفيفا جدا بمادة تجعله اقل عكسا للضوء فاننا مع ذلك قد نظل نقول عنه انه ابيض . ولكن لو كثفنا هذا الطلاء لامكن في الحال تقليل شدة استضاءة سطح الورق الى حد يجعلنا نصف الورق بانه اشهب (رمادي) خفيف ، ثم يصبح لون الورق اشهب قاتما ، الى ان يتحول لونه اخرا الى السواد . ولكن وصفنا له بانه اسود لا يعني ان سطحه لا يعكس شيئا من الضوء . ولو طلينا الورق بسنا ج السراج فان ما يعكسه من الضوء يكون اقل من ذلك ، ومن ثم يكون اشد سوادا ، ومع ذلك فانه يظل يعكس شيئا من الضوء الساقط عليه .

ويظهر من هذا ان الورق الابيض والاشهب والاسود لا يمكن فرزه الى اصناف منفصلة ، طبيعيا . والمشكلة في هذه القضية ان البياض خاصية تكون في الورق ولكن بكميات او على درجات مختلفة ، وانه ليس من ورقة يكون فيها البياض ١٠٠ في المئة ، وانه لا يوجد خط او حد فاصل قاطع بين الاوراق التي تحتوي على هذه الخاصية بهذا المقدار . ومع ذلك فاننا نريد ان نستعمل الكلمات « ابيض » و « اشهب » و « اسود » لانها كلمات تدل على

فروق حقيقية ومهمة ، واذا أردنا استعمالها على وجه الدقة فيجب اتباع وسيلة كالتعريف لتكون معانيها واضحة .

وفي أغلب اغراضنا العملية لا نجد ضرورة للدقة التامة في استعمال هذه الكلمات ، ولا يهم كثيرا ان يقول شخص عن الورقة انها « شهباء ، خفيفة الشهبة » وان يقول شخص اخر انها « بيضاء غير نقية » ، ولكن قد تكون هناك اغراض ينبغي فيها الا يكون هناك مجال للشك في استخدامنا لهذه الالفاظ ، كأن تكون الاوراق لازمة لتزيين جدران غرفة من الداخل . وهذا امر يضطرنا الى وضع خطوط فاصلة من عندنا نحن نقسم بها الالوان الى أصناف ، والى تعريف نضعه مثلا لمعنى الورقة البيضاء بأنها الورقة التي تعكس من الضوء الساقط عليها (٨٠) في المئة ، وتعريف اخر لمعنى الورقة السوداء بأنها الورقة التي لا تعكس من الضوء الساقط عليها اكثر من (٦) في المئة ، وتعريف ثالث لمعنى الورقة الشهباء بأنها الورقة التي تكون بين هذين الطرفين .

ومع أن ما صنعناه في وضع هذه التعريفات هو شيء مناسب وقد يكون مفيدا ، الا أننا ادخلنا بعض الخطر من الوقوع في التفكير الاعوج ، لاننا استعملنا ثلاث كلمات هي « ابيض » و « أشهب » و « أسود » كما لو أنها تدل على أصناف متميزة ، مع أن الاختلاف فيما بين الاوراق اختلاف متواصل بفروق يصعب ادراكها تتدرج من الابيض الناصع الى الاسود الفاحم . وهذه الطريقة في التفكير قد تقود فكرنا الى التخبط ، لانها قد تسوقنا الى اغفال حقيقة واقعة وهي أنه قد يكون لدينا ورقتان بيضاوان (أحدهما مثلا تعكس (٨١) في المئة والاخرى تعكس (٩٥) في المئة) وورقة شهباء (تعكس (٧٩) في المئة) بحيث يكون الفرق بين الشهباء واحدى الورقتين البيضاوين أقل بكثير من الفرق بين البيضاوين . وقد تسوقنا الطريقة بعبارة اخرى الى الاعتقاد بأنه توجد فروق ادق من الفروق الموجودة فعلا .

وفي مقدورنا مع ذلك ان نعالج هذه الامور الواقعية بطريقة اخرى نتحاشى بها هذا الخطر . فقد ننظر الى البياض على أنه خاصية ممتدة على امتداد خط مستقيم أحد طرفيه يمثل خاصية عكس النور ١٠٠ في المئة (وهو البياض الناصع) وطرفه الاخر يمثل خاصية عكس النور (صفر) في المئة (وهو السواد التام) . وبين هذين الطرفين يمكننا ان نرسم مقياسا يبين في تقسيماته جميع المقادير النسبية المئوية لانعكاس الضوء . ويمكن بهذه الطريقة أن نعين لكل نوع من الورق الابيض والاشهب والاسود موضعا على هذا المقياس . وبهذا نستطيع عند ذاك أن نقول عن قطعة من الورق معينة انها تعكس (٩٥) في المئة من النور الساقط عليها وعن قطعة ورق معينة أخرى انها تعكس (٨٥) في المئة . وعن قطعة ثالثة انها تعكس (٦٥) في المئة ، وعن رابعة انها تعكس (٥٠) في المئة وعن خامسة انها تعكس (١٠) في المئة . ونكون بهذه الطريقة قد توصلنا الى ابراز الحقائق الواقعية بدقة تزيد على ما قد نتوصل اليه بطريق التسمية بقولنا عن قطعتي الورق انهما بيضاوان وعن القطعتين التاليتين بأنهما شهباوان وعن القطعة الاخيرة انها سوداء . . وفي نفس الوقت نحتفظ بالكلمات « أبيض » و « أشهب » و « أسود » لانها كلمات ملائمة في الاستعمال العادي ، مع التنبه الى أن هذه الكلمات لا تدل في واقع الامر على اصناف من الخاصيات يمكن فصل بعضها عن بعض فصلا حاسما .

والتخبط في التفكير اذا نتج عن اغفال هذه الخاصية في التغير تغيرا متواليا متدرجا في البياض والشهبة والسواد لا يكون له بطبيعة الحال شأن مهم . ولكنه يكون مهما اذا حدث في مجالات تفكيرية أخرى على شبه هذا المنوال تماما . فمثلا نشاهد في جميع نواحي الحياة البشرية خاصيات تتغير تغيرا متواصلا على التوالي ، ونجد (كما في قضية استعمال الابيض والاسود) أن هذه الحالة من التغير التدريجي تختفي تحت ستار من الكلمات المستعملة التي

تطمسها وتعطي الانطباع الضمني بوجود فروق حاسمة وتمييزات فاصلة بين هذه التغيرات . ومن ذلك قولنا : « عاقل » و « مجنون » و « جيد » و « رديء » ، و « ذكـي » و « بليد » ، و « عامـل »ـ و « راسمالي » . فهذه الأزواج من الأضداد مثال يبين لنا معنى التغير المتواصل . فاستعمالنا للكلمتين المتقابلتين في المعنى وهمـا « عاقل » عند الكلام عن انفسنا أو عن جيراننا و « مجنون » عند الكلام عـن الاشخاص منكـودي الحظ المحصورين في مستشفيات المجانين يشعر ضمنا بأن بين الحالتين انقطاعا تاما وينسينا ما بينهما في الحقيقة من تواصـل واستمرار . والفـرق الجوهري بـين « العاقل » و « المجنون » هو مقدار ما يستطيع الشخص به ان يتلاءم ويتكيف مع بيئته . فهـذه الاستطاعة في التلاءم والتكيف مع البيئة بنجاح تختلف اختلافات متدرجة على التوالي بـين فـرد وآخر ، فلا يوجد شخص له هذه الاستطاعة كاملة ولا يوجد شخص فاقـد لها تماما . وقد نرتب الناس في وصف متواصل متـدرج في تناقص القدرة على التكيف مع البيئة ، وذلك بوضع من هم أعقل الجميع على راس الصف ووضع مـن هم اشد الجميع جنونـا في مستشفيات المجانين في آخر الصف . وهنا يصبح من غير المعقول ان يقال قول كالآتي : « الانسان اما أن يكون عاقلا أو مجنونا ، فاذا كان مجنونا فلا بد ان يكون عاجزا عـن التفكير المعقول » . وكـل قضية تبدأ على هذا الوجه تكون جزءا خطرا من التفكير الاعوج الذي ينكر وجود واقع الاستمرارية .

وقد ذكرنا الذكاء كأحد الامثلة في معرض الكلام عن الاشياء ذوات التغير المتواصل التي تخفى معالمها وتنطمس في غمرة التفكير العادي . وعندما نستعمل كلمات مثل «معتوه» و «أبله» و «متخلف» و « عادي » و « ألمعي » و « نابغة » تكون ميالين للظن بأن الناس منقسمون بحسب مواهبهم الفطرية الى هذه الاصناف المتميز بعضها عن بعض . ولكن قياس ذكاء الناس باختبارات الذكاء يدل

على ان الامر على غير ذلك . فلو أخذنا الف ولـد وقسنا ذكاءهم لوجدنا بينهم افرادا يمثلون كل درجة من درجات الذكاء على اختلاف مقاديرها من نحو (٣٠) في المئة من الذكاء العادي الى (١٧٠) في المئة منه ، ووجدنا أيضا أن الغالبية تكون في الوسط (أي حول الذكاء العادي) وأن القلة تكون على الطرفين : من شديدي الذكاء في طرف ومن ضعاف الذكاء في الطرف الاخر . ولكن من الطرف الاول الى الطرف الثاني درجات من الذكاء تتناقص مقاديرها بالتدريج حتى الوسط ثم تستمر في التناقص بلا انقطاع حتى تدخل في درجات البلادة وتصل الى أحط الدرجات في الذكاء . ويكون هذا التدرج متواصلا لا انقطاع فيه . وعلى هذا فانه لا توجد خطوط طبيعية تفصل بين الاصناف مثل « معتوه » و « ابله » وغير ذلك . واذا نحن رسمنا مثل هذه الخطوط الفاصلة للتمييز بين الاصناف فاننا انما نرسم خطوطا وهمية لا وجود لها في الواقع . وفي بعض الاحيان قد يكون وضع مثل هذه الخطوط الفاصلة مفيدا وملائما من ناحية عملية لولا أنه ضللنا فوهمنا بأن الفرق الحقيقي بين « ناقص العقل » و « العادي » من الاولاد هو فرق دقيق كالفرق بين الكلمات التي نستعملها ، ويؤدي ذلك بنا الى التفكير الاعوج .

والخطأ هنا هو اننا باستعمال كلمات مختلفة مستقلة للتمييز بين طرفين متباعدين بينهما تغيرات متواصلة نكون قد جعلنا الامر يبدو وكأن تمييزات فاصلة حادة موجودة مع أن لا شيء من ذلك موجود حقيقة . ولعل قدرا كبيرا من تفكيرنا يجب أن يعاد النظر فيه اذا كنا سنعترف بوجود التغيرات المتواصلة بين العقل والجنون، وبين الذكاء والبلادة ، وبين الجودة والرداءة وبين الاجرام والسلوك المراعي لآداب المجتمع، وبين التدين والكفر، وبين المدنية والبربرية. وتعرف صعوبة هذا الامر في كلام الناس اليومي بأنها صعوبة معرفة « أين ينبغي وضع الخط الفاصل » . واذا لم يكن هناك في الحقيقة خطوط فاصلة فان استعمال كلمات مختلفة اختلافا حادا للتمييز

بين اصناف من الحقائق الواقعية التي تتغير بصورة تدريجية متواصلة قد يشوه الحقائق التي يدور كلامنا حولها .

ويمكن التمثيل بالصورة التالية على الطريقة التي يقودنا بها اهمال التغيرات التدريجية المتواصلة الى الاعوجاج في جدالنا : لنفرض أن متكلما يحاول أن يفرض علينا تمييزا حادا فاصلا على شكل مشكلة كالمشكلة التالية : « أنت ولا شك تقر بأن الولد اما أن يكون قابلا للتعلم والاستفادة من مدرسته واما أن يكون معتوها » . ثم يمضي هذا المتكلم فيقول انه من السفه تهيئة مدارس خاصة لمن يكونون متخلفين فكريا ، حتى وان لم يكونوا معتوهين ، أو اعتماد طرق مختلفة لتعليم الاولاد العاديين اذا اختلفت قابلياتهم وقدراتهم الفكرية ..! ولهذا فان جميع الحجج التي تبدأ بالقول « (ص) لا بد له من أن يكون اما (ع) واما غير (ع) » ينبغي أن تعد بأنها غير سليمة منطقيا اذا كانت (ع) صفة طبيعية يظهر عليها أنها تتغير تغيرا تدريجيا متواصلا ، والحجة من هذا النوع تعالج بأمر واحد وهو التدليل على أن هذا التمييز الحاد الفاصل بين (ع) وما هو غير (ع) الذي يظنه المتكلم ضمنا لا يتوافق مع الوقائع .

هذا اول نوع من التفكير الأعوج الذي قد نجر اليه ونحن نعالج امورا واقعية يظهر عليها انها تتغير تغيرا متواصلا ـ وهو التفكير بأن من الممكن أن نوجد تمييزات حادة فاصلة في كلامنا بينما هي في الحقيقة غير موجودة . وثمة نوع اخر من هذا التفكير الاعوج، على العكس من النوع الاول ، وهو أن ننكر حقيقة الفروق بين الاشياء المختلفة بسبب وجود هذا التغير التدريجي المتواصل فيها . ويجب ان نرفض حالا ، كأمر سخيف ، زعم من يدعي بأنه لا فرق بين الابيض والاسود لاننا ننتقل من احدهما الى الاخر بسلسلة من الخطوات الصغيرة المتدرجة المتتالية .. وكثيرا ما تستعمل حجة موازية تماما لهذه في انكار حقيقة الفروق في أمور أعظم اهمية من ناحية عملية .

ولدينا مثال قديم على نوع الخطأ الذي تشتمل عليه مثل هذه الحجة . فقد يلقي أحدهم الشك على حقيقة الفرق بين رجل ذي لحية ورجل اخر حليق ، وذلك بأن يبدأ العملية بالتساؤل عن رجل له شعرة واحدة على ذقنه هل يعتبر انه ذو لحية . والجواب بالطبع بالنفي . ثم يسأل عن رجل له شعرتان هل هو ذو لحية . والجواب هنا أيضا بالنفي . ثم عن ثلاث شعرات واربع وخمس .. . وهكذا . وفي كل مرة لا يستطيع الخصم أن يجيب « بنعم » لانه لو قال « لا » عن تسع وعشرين شعرة و « نعم » عن ثلاثين شعرة ، يكون من السهل على سائله أن يصب السخرية عليه لايحائه بأن الفرق بين تسع وعشرين شعرة وثلاثين شعرة هو الفرق بين ان يكون الرجل ذا لحية وبين ان يكون حليقا . ومع ذلك فان عملية زيادة شعرة كل مرة توصلنا الى عدد من الشعرات لا يسعنا الا أن نرى انها تكون لحية . والمشكل في الامر هو أن الفرق بين اللحية وعدم اللحية هو كالفرق بين الاسود والابيض ، وهو فرق بين طرفين متباعدين لا يوجد في الشقة بينهما خطوط فاصلة قاطعة وانما يوجد تدرجات صغيرة متواصلة .

ففي هذه الحجة استعملت الحقيقة الواقعية المتمثلة بالتغير المتواصل لهدم حقيقة وجود الفرق . فقد كان عدم وجود خط فاصل بين الحالتين سببا حمل بعضهم على القول بأنه لا وجود لفرق بينهما . وهذا ولا شك مثال من الحجة العوجاء التي لا يرجى لها ان تخدع شخصا وافر العقل ما دامت منحصرة في استعمالها في قضية كقضية اللحية وعدم اللحية ولم تخرج في استعمالها الى أمر يهمنا من ناحية نفسانية انفعالية اكثر من ذلك .

والخطأ هنا شبيه بالخطأ الذي يداخل رجلا كان يحمل على جمله قشة بعد قشة وأمله في ان وزن قشة واحدة لا يمكن ان يلحق ضررا بجمله . ولكن لما انكسر ظهر الجمل نسب هذا الانكسار الى

وزن القشة الذي زيد على الجمل اخر مرة . وافترض هذا الرجل ان عدم وجود خط حاسم فاصل بين حمل معتدل الثقل وحمل باهظ الثقل معناه عدم وجود فرق بين الحالتين . فهذه ايضا غلطة لا يغلطها شخص عاقل .

وكثيرا ما نسمع الحجة المستعملة ضد التمييز بين العامل والراسمالي التي تبدأ كما يلي : « متى يكون الشخص راسماليا ؟ اذا كان لدى العامل في البنك مبلغ (٢٠٠) دينار فهل يعد هذا العامل راسماليا ؟ » هذه الحجة هي عين حجة اللحية . فالذين لا ينخدعون بخدعة اللحية قد ينخدعون بسهولة بخدعة مماثلة لها تماما اذا كان الامر مما يهمهم مباشرة من وجهة نفسانية انفعالية ، وحقيقة الحال بالطبع ان الفرق بين من يملك راس مال ومن لا يملكه امر فيغاية الاهمية في مسألة الفروق الاجتماعية بين الناس ، مع أن الفرق بين من لا يملك شيئا ومن يملك الكثير يتغير تغيرا تدريجيا متواصلا ، ومن الخطأ ايضا الافتراض بأن هناك حدا فاصلا واضحا بين هاتين الطبقتين الاجتماعيتين والافتراض بانه لا توجد فروق بينهما ... والحجة في تبرير استعمال مصطلحي « عامل » و « راسمالي » في التفكير الاجتماعي هي الحجة بعينها في تبرير استعمال كلمتي « أبيض » و « أسود » ، وهذا الاستعمال في الحالتين يكون عرضة للاخطار نفسها تماما التي تجرنا الى إحداث أصناف ذات حدود فاصلة مميزة حيث لا وجود لأمثال هذه الاصناف في الواقع . غير ان هذا خطر لا يزول بانكار وجود الفرق .

والاحتجاج بحجة اللحية يستعمل احيانا ضد التمييز المهم بين كلمات محايدة مشحونة بالانفعال كما ذكرنا في الفصل الاول من هذا الكتاب . وقد قيل ان التمييز بين هذه الكلمات لا يمكن أن يكون تمييزا حقيقيا لان الكلمات التي نستعملها لا تخلو في قليل او كثير من أن تكون مشحونة بالانفعال بحيث لا نستطيع وضع خط فاصل

حاسم بين الكلمات المحايدة والكلمات المشحونة بالانفعال . وهذا بطبيعة الحال هو الواقع ، ولكنه مع ذلك لا يتنافى مع وجود فرق حقيقي مهم بين كلمة تكاد ان تكون محايدة تماما في عبارة « ليس بالسهل أن يتأثر بأقوال الغير » وعبارة مشحونة بالانفعال النفساني الشديد مثل « عنيد كالتيس » . وفي المستطاع التدرج شيئا فشيئا بين اشكال الحياة النباتية والاشكال الحيوانية ، ومع ذلك فلا بد أن يبقى فرق مهم بين الارنبة والخسة وهو الفرق الذي ندل عليه بتسمية الاولى باسم « حيوان » وتسمية الثانية باسم « نبات » .

وحجة اللحية تتمتع باحترام فكري غريب لا تستحقه ، لانها اكثر استعمالا لدى الاذكياء منها لدى البسطاء . وهي احدى عثرات التفكير التي لا يسقط بها الانسان الا اذا كان له عقل يغلب عليه الحذق والبراعة . وهي مغالطة شائعة وتبرز مرة بعد مرة في مناسبات مختلفة . وقد وجدت انا مثالا عليها في رسالة لاحد المراسلين نشرت في جريدة لها مقام بين الجرائد عن موضوع العقوبة البدنية . وذكر احد المراسلين هذا في حجته انه لا فرق في الحقيقة بين العقوبة البدنية والعقوبات الاخرى في المدارس لان كل عقوبة تؤثر في الجسم الى حد ما . فاذا حبس ولد في المدرسة فان جسمه هو الذي حبس ، واذا وبخ فان التوبيخ قد يكون له تأثيرات جسمانية كحمرة الخجل وغيرها .

وهذه الحجة هي ايضا نفس حجة اللحية . ومعنى العقوبة البدنية هو ايقاع العقوبة على الجسد ، كالضرب باليد أو بواسطة أخرى كالعصا أو السوط أو غيرها . وقد تكون هذه الطريقة في العقوبة احسن أو اسوأ من عقوبة كتابة عدد من الاسطر او حفظها في الذاكرة او الحبس أو التوبيخ . ولكن الامتناع عن رؤية حقيقة الفرق بين هذه الانواع من العقوبة على انها عقوبات مختلفة وعن رؤية واقع اخر وهو أن نوعا واحدا من هذه العقوبات قد يفضل على نوع اخر ــ هذا الامتناع انما يفضي الى الخلط في التفكير والى

زيادة الصعوبة في الوصول الى قرار معقول بشأن مزايا كل نوع من انواع العقوبات على حدة .

وفي هذه المجالات التفكيرية التي يكون فيها صنف من الاشياء متصفا بصفة تتغير تدريجيا وعلى التوالي بسلسلة تغيرات غير محددة تستمر الى أن تنقلب الصفة الى ضدها فانه من الضروري أيضا استعمال كلمات تكون لها دلالات دقيقة في معانيها . وقد نستعمل أيضا كذلك تعريفات تبين ما نعنيه ولو أن الضرورة تقضي احيانا بأن تكون تعريفاتنا دالة على افتراض خطوط فاصلة افتراضا تعسفيا (كأن نفترض مثلا أن « الابيض » هو الذي يعكس (٨٠) في المئة من النور ونضع لذلك خطا عند هذا الحد) . غير أن العادة المتبعة في وضع التعريفات والمصطلحات التي نستعملها لها مخاطرها لان من شأنها أن تخلق افكارا هي من الدقة الشديدة بحيث يتعذر تلاؤمها مع الواقع الذي استعملت بقصد الدلالة عليه ووصفه . وقد تكون هذه العادة مما لا يساعدنا على التفكير بجلاء ووضوح اذا كانت تؤدي الى فرز الاشياء فرزا حاسما قاطعا في الذهن في حين انها في خارج الذهن وفي حقيقة الواقع ليست مفروزة على هذا الشكل .

والوسيلة المتبعة المتمثلة في الالحاح على الخصم ودفعه لان يعرف مصطلحاته قد تكون من جملة الوسائل في الجدل الاعوج لانها تستدعي الخصم الى ان يأتي بأفكار محددة باتة لا تكاد تمت بصلة الى الوقائع المعقدة التي هي موضع النقاش . ولذلك فان بعض الناس يمتنعون احيانا عن اعطاء تعريفات رسمية لكي يتجنبوا الوقوع بمثل هذا الخطر ولكنهم يستعينون بطريقة ما غير هذه يتخذونها لتوضيح معناهم .

وثمة نوع من سوء استعمال التعريف لعله جدير بالذكر . ان الغرض من التعريف ينبغي أن يكون توضيح الكيفية او الطريقة التي تريد بها استعمال الكلمات وليس اظهار وجهة نظرك في الشيء الذي يراد تعريفه . والمثال النموذجي على التشويش والخلط في التفكير

من جراء عدم التمييز بين هذين الغرضين من التعريف يصدر عادة عن بعض الناس الذي يظنون بأنهم يبرهنون على اتساع في عقولهم حينما يعرفون « الدين » بانه « الشعور بالبعدية (ما بعد الحياة) » خلافا لبعض الناس الاخرين ذوى العقول الضيقة كالمستر ثواكم Thwackum (١) في رواية « تاريخ توم جونز » The History of Tom Jones الذي كان يعني كلما وردت كلمة « الدين » انـه الـدين المسيحي . وليس فقط الدين المسيحي وانما المذهب البروتسانتي منه ، لا وليس المذهب البروتستانتي فقط بل مذهب الكنيسة الانكليكانية بالتحديد .

وفي الحقيقة لا توجد قيمة أخلاقية متعلقة باستعمال الكلمة استعمالا واسعا او ضيقا ، فلا التسامح مع الناس الذين يختلفون عنا في الدين ولا البر بهم متوقف على طريقة استعمالنا للكلمة ، فالامر لا يخرج عن أن يكون الغرض منه السهولة العملية لا غير . واستعمال المستر ثواكم لكلمة « الدين » بمعناه الضيق غير ملائم من وجهين . الاول : استعمال كلمة « الدين » للدلالة على شيء متميز معروف باسم « الكنيسة الانكليكانية » وواضح هنا انه لا معنى لوجود كلمتين مختلفتين للدلالة على شيء واحد . والثاني : وهو أمر ذو شأن ، أن استعمال الكلمة على هذه الطريقة يحرمنا من اسم نطلقه على الصنف الذي يتضمن المسيحية والبوذية والاسلام واليهودية ، وعبادة الجدود والفودونية (١) وغير ذلك ، ويترك هذا الصنف من غير اسم . فاذا اردنا ان لا نستعمل كلمة « الدين » لهذا الصنف فيجب علينا أن نجد كلمة اخرى له . وعلى هذا فان كل ما

---

١ ـ ثواكم معلم في رواية « توم جونز » للروائي الانجليزي هنري فيلدنج (١٧٠٧ ـ ١٧٥٤) سخر فيلدنج من خلال هذا المعلم ومعلم اخر في الرواية من التعليم الديني في عصره . ص. ح.

٢ ـ الفودونية Voodooism دين زنجي افريقي الاصل يقوم على السحر وينتشر في جزر الهند الغربية ولا سيما بين الزنوج . ص. ح.

فعله المستر (ثواكم) هو انه أخذ كلمة من موضعها الذي كانت تؤدي فيه غرضا مفيدا ونقلها الى موضع اخر لا تؤدي فيه اي غرض . والذي كان يدور في خلد المستر (ثواكم) بطبيعة الحال هو ظنه بأن ديانة الكنيسة الانكليكانية هي الدين الصحيح الوحيد ، وهذا كان في الامكان التعبير عنه بوضوح من غير تغيير أو تبديل في معنى كلمة « الدين » .

وتوجد اعتراضات اخرى ، من ناحية الملاءمة للقصد والسهولة ، ضد تعريف « الدين » بأنه « الشعور بالبعدية » فان هذا التعريف مبهم غامض الدلالة بحيث انه لا يفي بالغرض الاول من التعريف ، وهو توضيح المراد منه تمييز المدلول الذي يراد ان يدل عليه . وأي شخص نظر الى النجوم وادرك ان هناك نجوما عديدة اخرى بعيدة وخافتة الضوء لدرجة انها لا ترى ، قد يقال عنه انه يشعر بالبعدية . وكذلك اي شخص يعد الاعداد من اولها الى عدد بعيد يدرك في النهاية ان بعد هذه الاعداد اعدادا اخرى ابعد منها لا يمكن ان يصل اليها عده ، فيقال عنه انه يشعر بالبعدية . ولا يبدو محتملا ان القصد كان ادخال هذه التصورات في معنى كلمة « الدين » عند تعريفه بأنه الشعور بالبعدية ، ولكن التعريف على هذا النحو يشملها . وثمة اعتراض اخر على هذا التعريف وهو نفس الاعتراض الوارد على تعريف المستر (ثواكم) : اذ اننا اذا اردنا استعمال كلمة « الدين » بهذه الطريقة فاننا نصبح من غير اسم نطلقه على الصنف الجامع للمسيحية والبوذية والاسلام وغيرها . ولا بد لنا بالطبع من اسم لهذا الصنف حتى نستطيع أن نفكر فيه او نتكلم عنه .

والتعريف عملية يقصد بها توضيح ما نفكر فيه وافهام كلامنا للاخرين . ولكن استعمال التعريف واسطة للدلالة على الآراء الخاصة او التقديرات الفردية لقيم الاشياء يؤدي الى عكس المقصود والى افساد الغاية الصحيحة منه .



الفصل التاسع

حيل الايحاء

بعض الطرق التي يستعملها الخطيب للحصول على موافقة سامعيه على ما يقوله شبيهة بالوسائل التي تستعمل لاحداث حالة نفسانية من الذهول تعرف باسم « حالة التنويم المغياطيسي » وهي التي يحدثها المنوم المغناطيسي بتوجيه نظره الى الوسيط بصورة حادة مركزة ثابتة ويخبره فيها بثقة واصرار بأنه يتماثل الى النوم . وبالمثل نقرأ أحيانا عن خطباء بلغاء يسحرون ببلاغتهم سامعيهم وكأن السامعين منومون مغناطيسيا فيحملونهم على تصديق ما يراد منهم تصديقه . ومثل هذا الامر ، بالطبع ، لا يمكن أن يكون صحيحا بحذافيره . ذلك ان حالة الذهول في التنويم المغناطيسي حالة تختلف اختلافا صريحا عن حالة التنبه التي يكون عليها الانسان في حياته اليومية ، واذا اعترى عددا من السامعين ذهول مغناطيسي فعلا فانه لا بد لهم من ان يستجلبوا الانتباه اليهم بمثل ما يستجلب الانتباه شخص سكران غلب عليه الشراب . فالكلام على هذه الصورة يجب ان يفهم على انه فقط من قبيل المجاز اللغوي غير الدقيق ، كأن نقول مثلا عن مستمعين اخرين انهم « في سكرة من الحماسة » . ولهذا فأن الافضل لنا أن نلتزم جانب المصطلح الفني والنفساني الاصح في هذا الشان ونسمي هذه الوسائل الخطابية باسم « حيل الايحاء » .

وحقيقة الايحاء الواقعية من وجهة نفسانية تتمثل في الواقع المعروف بأن الانسان اذا داوم على تكرير قول مرارا متوالية

بلهجة الواثق من قوله دون حجة أو برهان فان السامعين لهذا القول يميلون الى تصديقه والايمان به بصرف النظر تماما عن صحة القول أو بطلانه ، وعن وجود بينة على صحته أو عدم وجودها . ويكون السامعون على الاخص اميل الى قبول الايحاء الذي يوحي به خطيب يتمتع بمقام رفيع أو وجاهة في اعين الناس ـ كالهيبة المسلم بها التي تكون لاصحاب السلطان كالوزراء وكبار رجال الدين والبارعين في الالعاب الرياضية ورواد الفضاء والمؤلفين .. وغيرهم من مشاهير الناس .

والخطيب الذي يستعمل طريقة الايحاء يعتمد في ذلك على ثلاثة أشياء وهي : (١) تكرار القول الجازم ، (٢) طريقة واثقة مصرة في القول و (٣) الوجاهة .

وقبل كل شيء يجب أن نستوضح المعنى الذي نعنيه في عبارة « تكرار القول الجازم » . وفي هذا السبيل نحاول ان نقابل بين طريقتين نستعملهما عندما نحاول اقناع شخص ما بالموافقة معنا . واحدى هاتين الطريقتين هي أن ندلي بالسبب الذي يدعونا الى تصديق ما نعتقد به . فاذا فعلنا ذلك وجب أن نكون أيضا على استعداد للنظر في الاسباب التي تدعوه الى مخالفتنا وللموازنة بين قيمة أسبابه وقيمة أسبابنا . وواضح أن هذه طريقة فيها عناء ولا يحتمل لها أن تفضي بنا الى احساس بيقين مطلق قاطع بشأن المسألة التي هي مدار النزاع . غير انها ذات فائدة من حيث كونها الطريقة الوحيدة التي يرجى منها ان تساعد المتنازعين كليهما على رؤية الحقيقة مهما كانت الرؤية غير واضحة .

غير أن مثل هذه الفائدة لا تعطي هذه الطريقة ترجيحا ذا شأن لدى الاشخاص الذين يرغبون في النتائج العاجلة ـ أي الذين يفضلون أن يعمل الناس بتهور وباندفاع شديد تحت زعامتهم وارشادهم ، على ان يقوم الناس بتقرير الأمر بهدوء وروية . ولهؤلاء طريقة اخرى ميسورة وهي تكرار قول يطلب من الناس

تصديقه ، مرات عديدة متوالية . وهذه هي التي سميناها باسم « تكرار القول الجازم » .

ولا أحد يستطيع ، بما حصل عليه من اسس العلم الاولية ، أن يعرف بأن مجرد تكرار عبارة أو قول يجعل السامعين ميالين الى تصديق ذلك القول . فتلك حقيقة واقعية لا بد أن تكتشف اكتشافا — ونعني بها تلك الحقيقة التي يمكن وصفها بعبارة : « قابلية الانسان للانقياد الى الايحاء » . وهذا أمر يعرفه ويمارسه عمليا أشخاص يرغبون في التأثير في آراء الغير وتحويلها الى جانبهم ولو أنهم لم يكونوا قد سمعوا قط بمثل هذه العبارة عن الانقياد الى الايحاء ولا بكلمة الايحاء . وفي الماضي حين كان المرشح في الانتخابات البرلمانية يستطيع أن ينفق على الدعاية الانتخابية بالقدر الذي يريد كان في غالب الاحيان يغشي الجدران في شوارع مدينته باعلانات عديدة جدا يقول في كل منها : « صوتوا لزيد » أو « صوتوا لعمرو » . فاذا كان لهذه الملصقات الدعائية تأثيرها المقصود في زيادة ميل الناس الى انتخاب الشخص المذكور فان ذلك يكون بفضل استعمال الايحاء من نوع « تكرار القول الجازم » ، مع أن هذه الملصقات لم تعط اي سبب يفهم منه ان المرشح المذكور افضل لعضوية البرلمان من مناوئه . وكل ما فعلته هذه الاعلانات انها اعتمدت على الايحاء لا غير .

ويزيد من شدة الوقع الذي يحدثه الايحاء في النفوس أن يكون هذا الايحاء عن طريق الخطابة لا الكتابة ، ولهذا كان المرشح (زيد) يطوف في دائرته الانتخابية ويلقي خطبا يقول فيها مثلا : « سأفوز » و « الحكومة الرشيدة المستقرة لا يمكن ضمانها في البلاد الا بانتصار الحزب (س) » . وقد تكون خطبه رتيبة النغمة وعلى وتيرة واحدة مملة لو انه اكتفى باعادة هذه الاشياء مرات عديدة بعبارات واحدة دون تغيير ، ولذلك فانه كان يكرر هذه الاشياء بكلمات مختلفة . فيقول مثلا : « ان البلد سائرة الى الرخاء بقيادة

زعيمنا المكرم الامين « فلان او علان » أو « ان الشعب البريطاني لن يؤازر الحزب (س) الذي ليس له مبدأ اخلاقي يردعه كما لن يناصر التجارب الهوجاء للحزب (ص) » و « بلادنا في حاجة الى مدة من الحكم (وستحصل عليها الان) على يد رجال ذوي مبدأ سليم » . فهذه العبارات وان اختلفت صيغتها لا تحوي سوى فكرتين بسيطتين اثنتين ذكرناهما في أول الكلام هنا وهما « سأفوز » و « الحكومة الرشيدة المستقرة لا يمكن ضمانها في البلاد الا بانتصار الحزب (س) » .

فالخطيب هنا يستعمل طريقة التكرار بالرغم من أنه يكرر نفسه بكلمات مختلفة وذلك لتجنب الرتابة المملة من جهة وللتعمية على الطريقة المستعملة من جهة أخرى . وخطبة من هذا النوع اشبه بقطعة موسيقية مؤلفة من نغمة واحدة أو نغمتين قصيرتين ترددان مرة بعد أخرى على التتابع مع شيء من التباين . واذكر انني قمت مرة بتحليل موعظة دينية فوجدت أن الواعظ قد كرر بأشكال متباينة تماما فكرة واحدة لا غير احدى وثلاثين مرة في خلال ثلاث عشرة جملة .

واحدث من ذلك خطبة القاها رجل سياسي بريطاني وقد روي عنه أنه قال فيها : « حكومتك يا حضرة الرئيس لن تخسر فاننا سننجح بالتأكيد . فالشعب لن يخسر ان الشعب سيفوز . ان الامة لن تتردى . ان الامة ستبرز مظفرة » .

وبهذا الاسلوب يكون قد استعمل نفس اسلوب الواعظ الذي عماده التكرار مع التحوير في العبارات والكلمات . ففي العبارات المذكورة ثلاثة تحويرات لموضوع : « سننجح » وكل واحدة منها وردت في صيغة النفي مرة ، وفي صيغة الاثبات مرة اخرى . وصحيح أن هذا لا يعطي اكثر من ستة تكرارات في مجموعها ، ولكن يجب أن نتذكر ان هذه التكرارات كانت في مقتطفة واحدة فقط من

الخطاب ، ولو اخذنا الخطاب كله لوجدنا فيه تكرارات عديدة أكثر من ذلك .

ولا شك ان هذا الخطاب يكون مؤثرا وله مفعوله في النفوس اذا كان القاؤه القاء جيدا ، ويحتمل ان يكون السامعون قد انتهوا الى الاعتقاد بأن الحكومة ستنجح . ولكنه مع ذلك ينطوي على ضعف تتضمنه عادة جميع طرق المناشدة ذات الطابع غير العقلي ، وهو ان نفس الكلام بأسسه وجوهره يمكن أن يلقيه بنفس التأثير والمفعول ، ولكن من ناحية عكسية ، خطيب من الجانب المعارض ، كان يقول : « ان الحكومة لن تربح وستفشل بالتأكيد . ان الشعب لن يفوز وسيخسر حتما . ان الامة لن تبرز مظفرة . انها ستتردى » .

ولو ان هذه العبارات ألقيت بمثل قوة المعارضة التي للخطيب الاول والقاها متكلم له مثل مقام ذلك الخطيب ، لكانت على الارجح بمثل ما كان لتلك العبارات من قوة التأثير والاقناع . ولكن لا يتوقع لأي من الخطابين أن يكون له تأثير ذو شأن لو انه ألقي على جمع من السامعين يعرفون معرفة كافية الوسائل التي يلجأ اليها الخطباء في تبليغ افكارهم بالطرق العوجاء ، بحيث يتبينون ان الخطابين ما هما الا تدريب على اسلوب تكرار القول الجازم .

ولكن المتكلم او الخطيب لا يعتمد على التكرار وحده . وللتكرار اساليب عدة بعضها انجح من بعض . فالقاء الخطاب مثلا بتردد وهمة فاترة لا يكاد يكون له مفعول ايحائي . ولذلك يلجأ المتكلم الى كيفية عكسية ويتخذ مظهر الواثق من نفسه بصورة جريئة وقحة . ومهما كانت شكوكه وتردداته وتهيباته التي تساوره فانه لا يسمح لها بأن تظهر عليه في مسلكه . ولذلك فانه يدفع بصدره الى الامام ويرفع راسه ويتحدث بصوت عال مستمر . وهذا الاسلوب المطمئن الواثق هو المسعف الثاني على النجاح في الايحاء . والاحساس في سريرة نفس الشخص بأنه ، يقينا ، على صواب قد يكون عونا مهما

في احداث هذا الاسلوب المطمئن الواثق ، وان كان هذا الاحساس في الحقيقة غير ضروري لذلك . فالخطيب المحنك الذي تعلم حيلة الاسلوب المطمئن الواثق يستطيع أن يجعل ذلك لنفسه كالقناع . ولعل المرشح في انتخابات سياسية يجد هذا الاسلوب اكثر عونا له على النجاح من اي قدر من المعرفة والخبرة بأعمال الحكومة التي رشح نفسه ليتولاها .

ولكن يجب عليه أن يكون على حذر من مناوئيه (الذين يقطعون عليه كلامه بتعليقات لاذعة) لان هؤلاء قد يكونون على علم تام بكيفية القضاء على أسلوبه المطمئن الواثق في الكلام وهدمه . واذا كان في امكانهم أن يزجوا في اثناء خطاب هذا المرشح بسؤال قد يضحك الحاضرين منه أو قد يفقده تمالكه لنفسه ويغضب ولو قليلا فان أسلوبه الواثق المطمئن يصبح من العسير الاستمرار فيه والمحافظة عليه . وبعض الخطباء المتمرسين اذا لاقوا من يقطع عليهم كلامهم هكذا يتوسلون الى السامعين يناشدونهم عطفهم ضد معارضيهم . وقد ينجح هذا التوسل ، ولكن بعد أن يكون الاسلوب المطمئن الواثق قد فقد مفعوله بكامله واصبح من العسير استعادته والاستفادة منه مرة اخرى .

والمرشح في الانتخابات البرلمانية يعتمد هو أيضا على ما له من وجاهة . وقد يستعين في ابراز ذلك بمساعدات خارجية كاللباس الرسمي . ولما كانت تقاليد التواضع تحول بين المرء وبين حديثه لنا عن نفسه ومقدار عظمته ، فانه يلجأ الى تدبير اخر وهو ان يعين وكيلا انتخابيا عنه ويقوم هذا الوكيل بالاشادة بذكر المرشح وبما له من مقام رفيع وذلك بالثناء عليه وحمده قبل دخوله الى القاعة التي سيلقي فيها الخطاب . واشد شيء مفعولا في هذا السبيل لرفع المقام في أعين الناس هو أن ينجح المرشح في الحصول على احد النبلاء أو احد الوزراء ليتكلم عنه في الاجتماع . والسر في شدة المفعول هو أن الناس عامة اكثر انقيادا لاقوال الخاصة منهم لاقوال

العامة . وقد يكون الاحترام الذي يقابل به احد النبلاء ناشئا عن لقب شرفي ورثه عن أبيه وليس بسبب مزايا شخصية يتمتع بها ، ومع ذلك فان هذا لا يمنع من ان تكون اقتراحاته وآراؤه التي يوحي بها ارفع مقاما في اعين الناس من اقتراحات وآراء أحد الوزراء مثلا . وعلى ذلك فان هذه العمليات الفكرية ، كالانقياد لآراء الغير ، التي تجري عندنا بصورة أتوماتيكية ليست معقولة بشكل عام .

واذا اراد متكلم او خطيب ان يفهم او يبلغ سامعيه شيئا عن طريق الايحاء فمن دواعي حسن الحظ والتوفيق في مهمته هذه ان يكون له لقب شرفي أو منصب او مقام في الدنيا يعطيه الوجاهة المطلوبة . واذا لم يكن له من هذه كلها شيء ، فانه لا يبقى لديه ما يعتمد عليه بالضرورة الا مواهبه الخاصة في قوة العارضة الخطابية ، أو ان يختلق لنفسه اسبابا تضفي عليه الوجاهة من اي مصدر كان . واذكر انني قبل عدة سنوات رايت رجلا في سوق في انكلترا يحاول بيع ادوية مسجلة ومجازة ، وكان التعريف به انه استاذ علم وظائف الاعضاء (الفسيولوجيا) في جامعة شمالية مشهورة وانه من الثقات في الرياضة البدنية . وصعد هذا الرجل برميلا وبدأ الكلام باخبارنا انه لم يعتد الكلام من على برميل ولكن من سيارته الرولزرويس الخاصة . والواضح في الواقع انه لم يكن استاذا لعلم وظائف الاعضاء ، ولم يكن في الامر ما يدعو الى الظن بأنه صاحب سيارة فخمة من هذا النوع ، ولو صح انه كذلك لصح أن يكون من الاثرياء الناجحين في اعمالهم . ولكن ما قاله هو عن نفسه أو ما قيل عنه ليس الا من قبيل نسيج الخيال ولم يقصد به الا اصطناع الوجاهة او اعلاءها . لان الاساتذة لهم قدر معين من الوجاهة ، وربما كان الاثرياء اكثر وجاهة منهم .

ولم امكث في ذلك السوق طويلا حتى ارى مقدار ما باعه الرجل من تلك الادوية ، واكبر الظن انه لم يبع منها كثيرا . لان

اسلوبه في ايهام الناس بأن له عظمة الوجاهة لم يكن اسلوبا صالحا . وكانت هيئته وحركاته خالية من الثقة بالنفس ، وكانت ذقنه بحاجة الى حلاقة . ولعل حلاقة الذقن كانت أدعى الى رفع وجاهته ودعمها من حكاية سيارة الرولزرويس التي اختلقها .

ويوجد في هذا المجال طرق أخرى من الغش لدعم الوجاهة الشخصية . من ذلك مثلا حيلة استعمال الرطانة العلمية أو الفنية في النقاش كأداة أو وسيلة لاكتساب وجاهة بغير حق ، (عن طريق ايهام السامعين بأن المتكلم هو من المتبحرين في العلم والفن والصناعة ، بدليل هذه المصطلحات التي يرطن بها) . وفي رواية « قس ناحية ويكفيلد » The Vicar of Wakefield (١) رجل من سراة القوم تمكن من تفنيد رأي خصمه البسيط بقوله له متسائلا : « هل تحكم على الاستقصاءات التحليلية للجزء الاول من قضيتي المنطقية بأنها قاصرة من حيث الحوز (الزائد) أو من حيث الكور (الناقص) (واستعمل عبارات لاتينية ليدلل بها على معرفة باللاتينية وبالمنطق) .

واستعمال الرطانة العلمية او الفنية (أو عبارات توحي بانها رطانة فنية) بقصد ادخال الحيرة في عقول السامعين وسيلة لا تستعمل غالبا بمثل تلك المجاهرة الصارخة في المثال الذي اوردناه آنفا . ولكننا كثيرا ما نسمع بعض الناس يتحدث بطريقة غامضة لا ضرورة لها . وقد يكون هذا الغموض بسبب عجز المتكلم ، وقلة مقدرته على استعمال الكلمات او بسبب الكسل الذي يحمله على تجنب أي عناء للاعراب بوضوح عما يريد وقد يكون هذا ايضا عن عمد اعتقادا بان الناس يكونون عادة أقرب الى تقدير احترام ما لا يستطيعون فهمه .

---

١ ـ رواية للكاتب الايرلندي جولد سمث (١٧٢٨ ـ ١٧٧٤) وقد نشرها عام ١٧٦٦ (ص. ح.) .

ويجب أن لا يغيب عن بالنا ونحن نحاول حماية أنفسنا من مثل هذه الاساءة في استعمال اللغة ، ان عدم فهمنا لا يعني ضمنا بحكم الضرورة أن خصمنا يريد ان يحيرنا ويعمي علينا . اذ قد يكون استعماله للتعابير اللغوية الخاصة بفرع العلوم الذي يتحدث عنه استعمالا سليما محقا تماما . واستعمال تعابير علمية او فنية ، وان كان لا يفهمها شخص لا يجشم نفسه عناء فهمها والتمكن منها ، شيء لا بد منه في اي فرع من فروع العلم . ذلك ان هذه التعابير عبارة عن لغة للفكر مختزلة يتمكن بها احدنا من ان يقول بجملة واحدة ما قد يحتاج في تفسيره الى عدة من الصفحات . ولعل افضل رد نرد به ، اذا صادفنا في مناقشاتنا الشفوية غموضا في معاني كلمات الخصم ، هو أن نطلب اليه أن يفسر ما يعني بعبارات مبسطة . فاذا لم يستطع الافصاح عن مراده بلغة بسيطة ، ولو فسح له مجال القول بتوسع واسهاب ، فقد تكون محقين اذا اشتبهنا بأنه هو نفسه لا يفهم ما يعني وما يريد . ولا يلزم من هذا بحكم الضرورة أن يكون هذا الشخص قد استعمل المصطلحات العلمية او الفنية لكي يوهم مستمعيه بأن له وجاهة ، وانما يحتمل ان يكون قد استعمل هذه المصطلحات لعدم وجود المهارة لديه في استعمال اللغة للاعراب عن نفسه ببساطة . وفي اي من الحالتين فانه لا يجوز لنا ان نؤخذ بهذا الغموض الذي يستعمله فنظن انه علامة على تفوق الفهم عنده .

والغموض في المواد المعدة للقراءة امر اصعب من ذلك عند المعالجة وذلك لانه يتعذر علينا ان نطلب الى المؤلف ان يشرح لنا ما يعنيه . ولكن عدم فهمنا لما هو مكتوب ، كعدم فهمنا لما يقال شفاهة ، ليس في حد ذاته دليلا على ان المؤلف يحاول أن يدخل في روعنا انه عظيم الشأن عن طريق استعمال الغموض المتعمد . فقد يكون ، فيما يقوله ، سليم التفكير وانما استعمل لغة لا نفهمها نحن . ولكل علم من العلوم مصطلحات خاصة به وليس من المعقول

ان نتوقع لانفسنا ان نفهم كتابا في علم النفس او علم الطبيعة او الرياضيات دون أن نتعلم أولا اللغة الاصطلاحية العلمية لهذه العلوم باكثر من أن نتوقع لانفسنا ان نقرأ ونفهم كتابا في اللغة الهولندية اذا لم نتعلم اللغة الهولندية اولا .

ومع ذلك فان وجود اللغات الفنية يتيح فرصة يغتنمها الذين يريدون استعمال هذه اللغات بقصد اظهار الوجاهة ، وكثير من الغموض الذي نجده في الكتب عن معظم الموضوعات لا يرجع الى استعمال لغة علمية او فنية لان هذا الاستعمال هو الطريقة الاكثر اقتصادا في افهام قصد المؤلف وتبليغه . وتكون الكتب في معظم الحالات غامضة الدلالة لان الذين يكتبونها لا يفكرون تفكيرا واضحا او انهم يرمون الى جني ثمار الوجاهة باستعمال الغموض . ثم ان المؤلف من جهة ثانية قد يكون غامضا في عبارته لانه قد يجد في نفسه مشقة وعناء في تبليغ مراده ، وقد يرى أن هذا التبليغ لا يتم الا اذا استعمل لغة خاصة به . فقد كان الفيلسوف العظيم (كانط Kant) غامض العبارة ، وهذا ما حدا بعديد من معاصريه الى القول عنه بسبب ذلك انه مبهم الفكر ولا معنى لكلامه . وهم في قولهم هذا على خطأ . ولكن ، بشكل عام ، اذا حكم جماعة ، تمرسوا بالتغلب على الغموض العادي المشروع في المصطلحات العلمية او الفنية ، على شيء بانه غامض وفارغ من الفكرة فان حكمهم هذا يكون على أرجح الاحتمالات صحيحا . والكتب الغامضة غموضا لا يرجى اصلاحه وفارغة نسبيا من المعنى كثيرة العدد ، انها اكثر مما يظن القارىء الحسن الظن .

ليس من طريقة مأمونة لتمييز كتاب منها عن آخر . ومن بين الكتاب عدد لهم كتب يراها طلاب العلم انها ذات قيمة حقيقية ، وأن ما فيها من غموض يجب أن يتغلب عليه القارىء وأن يبذل في سبيل ذلك مجهودا . وطالب العلم يعرف ايضا اسماء عدد من الكتاب اكبر من ذلك ، يكون في كتاباتهم غموض ، وهي لا تساوي

الجهد الذي قد يبذل لتوضيح الغموض وفهمه . وهذه المعرفة في التغلب على الغموض أو توضيحه لا يرجى لاحد منا أن يحوزها الا في حيز علمي صغير جدا . واذا خرجنا عن هذا الحيز وجب علينا الاعتماد على حكم الآخرين المختصين ورأيهم ، والا كان علينا ان نكون مستعدين لاضاعة جزء كبير من وقتنا سدى .

وكثير من حيل الغش في الجدل التي سلف وصفها يمكن العمل بها بنجاح اذا دعمت بالوجاهة . ومن ذلك مثلا أن طريقة تحويل الانتباه (كما ورد في الفصل الثالث) يمكن إمرارها بنجاح ، كما يمكن استعمال مغالطة دون ان ينتبه اليها ، اذا كان الشخص الذي يستعمل هاتين الوسيلتين في جدله يتمتع بوجاهة أرفع في المقام من وجاهة مجادله ، (كأن يكون الجدل مثلا بين أستاذ وطالب ، أو بين عضو من البرلمان وأحد الناخبين في دائرته الانتخابية) .. وفي الحقيقة أن الوسيلة الوقائية المأمونة التي اقترحت ضد الكلام المعمى ـ وهي وسيلة الاقرار بعدم الفهم ثم طلب التفسير لرفع الابهام ـ يمكن أن تصبح سلاحا مميتا عماده حجة غش في يدي رجل معتمد على ما له من وجاهة وهيبة . ولنفرض مثلا أن أستاذا سئل سؤالا محرجا من أحد طلابه وانه فضل الانتصار الرخيص بدلا من البحث الصادق . فيمكن أن يقول للطالب مثلا : « آسف ان اقول يا زيد ، أنني لا أستطيع فهم ما تعني . فأنت عميق جدا بالنسبة لي » .. ولا يخفى أن الوقع الذي يتركه هذا القول في نفوس السامعين هو أن الطالب لا بد وانه كان يهرف في قوله ، لانهم ما كانوا ليظنوا بالمقابل أن الاستاذ يعجز عن فهم سؤال الطالب .

ولعل احسن طريقة للرد على هذه الحيلة والتصدي لها هي الطريقة التي اقترحها شوبنهاور Schopenhauer : وتتلخص في أن يكون الطالب كالمصارع الياباني الذي يحاول بدلا من التصدي لثقل الخصم ومجابهته مباشرة ، أن يمتص ضغط الثقل بالتراجع معه ، ليكون بالوسع طرحه أرضا والتغلب عليه ، وهكذا فان

الطالب يستطيع ان يروغ قليلا ثم يعود للتغلب على الاستاذ . فقد يقول مثلا : « لا بد أن تكون الغلطة غلطتي لانك لم تفهم قولي . ساحاول ان اضع السؤال في صيغة اخرى » . وهنا يستطيع الطالب ان يشرح مراده شرحا وافيا واضحا بحيث أن ابسط الحاضرين لا بد أن يدرك أن الطالب قد ادى المهمة بنجاح .

وثمة وسائل أخرى مثيرة للجدل يكون عمادها الايحاء ، وهي التي يملي فيها السؤال الجواب ، بطريقة ما ، أو يحدده . وهذا يحدث في ابسط الحالات حينما يوحي السؤال بجوابه أو يفرضه ، كأن يقول احدهم لمخاطبه : « حتما انت قابل بمبدأ الاصلاح الديني ؟ » أو ان يقول : « أنت قابل بمبدأ الاصلاح الديني . اليس كذلك ؟ » .. فاذا لم تجد هذه الطريقة مع شخص ما لانه متنبه لحيلة الايحاء ويبدي بشكل معتاد مقاومة لها ، فان بالوسع استعمال هذه الطريقة معكوسة معه بحيث يتضمن السؤال جوابا مضادا للمطلوب ، بمعنى أن يصوغ السائل سؤاله بحيث يظهر انه يحاول فرض جواب بالنفي بينما ما يريده من خصمه هو جواب بالايجاب .

ولهذه الطريقة نفسها صورة مغايرة اخرى وهي الحيلة المعروفة جيدا في صوغ السؤال بحيث أن اي جواب مباشر عليه سيتضمن اعترافا يضر بقضية المجيب . مثال ذلك : « هل الزراعة في البلاد ستستفيد من زيادة الاسعار التي ستنجم عن فرض الضرائب على المواد الغذائية المستوردة ؟ » وواضح أن الجواب الصريح عن هذا السؤال بالايجاب « نعم » أو بالنفي « لا » يعني ضمنا اعترافا بأن ضرائب من هذا النوع ترفع اسعار المواد الغذائية، وهو أمر قد لا يكون الشخص المنازع في هذا الجدل راغبا في الاعتراف به . ويمكن الوصول الى الغاية نفسها بالسؤال عن اشياء مختلفة عديدة في سؤال معقد واحد يقتضي جوابا واحدا كان يقال في سؤال مثلا : « هل تقر بان العدو قد قتل الاسرى الذين في

حوزته وضرب بالقنابل المدن العزلاء واطلق النار على الصليب الاحمر واغرق سفن الاستشفاء ؟ أجب : نعم أم لا !! » . والواضح أن المسئول قد يكون راغبا في الجواب بالايجاب « نعم » عن بعض هذه الاسئلة ، وفي الجواب بالنفي (لا) عن بعضها الاخر ، وفي ابداء بعض التحفظات أو التعديلات بشأن الاسئلة الاخرى الباقية . وأي جواب واحد ينتزع منه ، سواء بالنفي أو الايجاب ، يوقعه في اعترافات لا يريدها .

ومن الجلي ان الحيلة الاولى يمكن التغلب عليها بالامتناع عن الاذعان للايحاء ، ويمكن التغلب على الحيلة الثانية والثالثة بتجزئة السؤال والاجابة عن كل جزء منه على انفراد . وهذا الحل واضح جدا بحيث أن الانسان يتعجب كيف يمكن لمثل هذه الحيل أن تنجح أصلا . ولعل السبب في أنها تجوز على كثير من الناس هو انها تستعمل باسلوب طاغ من الايحاء ، اذ بدون ذلك لا يكون لها أية قوة ، وبالاستجابة لها يكون الوصول الى الجواب الصحيح صعبا صعوبة تقرب من الاستحالة .

ويبدو أن العلاج لهذه الحالة يجب أن يكون عن طريق تحرير انفسنا بقدر المستطاع من تأثير الايحاء . وهذا التحرير يكون في بعضه قضية تربية ذاتية . وكلما ازدادت معرفتنا بطبيعة الايحاء من ناحية نفسانية قل سلطان هذا الايحاء على نفوسنا في الاحوال العادية لحياتنا اليومية . ولا جرم اننا قد لا نستطيع الافلات من آثاره في جميع الاحوال حتى وان كان فهمنا له ولطبيعته جيدا . وقد نجد انفسنا مثلا في وضع توجه الينا فيه أسئلة من شخص ليس فقط له اسلوب المهابة والسلطان ، بل وله سلطة حقيقية علينا (كأن يكون قادرا على حرماننا من وظيفتنا او الزج بنا في السجن) . فهذا الشخص اذا استعمل احد اساليب الايحاء المستمد من الوجاهة فان آثار هذا الاستعمال تكون اشد وقعا لان هذا الشخص يتمتع بهذا الوضع المناسب من المهابة والسلطان .

وقد ننجح في تخفيف هذه الآثار والتقليل من شدتها اذا قاومناها باستعمال اسلوب الوثوق بأنفسنا عند الكلام دون أن نتجاوز الحد الذي نرى أن من الحكمة والسلامة الوقوف عنده . وقد تحدث بعضهم عن نجاح استعمال الوسائل التحليلية للاقلال من مهابة السائل ، كالتخيل مثلا كيف يكون وضع السائل المهيب لو انه تجرد من ثيابه كلها ووقف عاريا .

ويوجد مع ذلك ايضا مواقف تكون فيها الظروف والاحتمالات اكثر رجوحا في صالح السائل . واكثرنا يود لو يسعده الحظ فلا يمر في مثل هذه الظروف والمواقف ، ولكننا قد نقرأ عنها في كتابات اشخاص وقعوا في ايدي الشرطة في بلاد تمارس فيها عملية غسل الدماغ Brainwashing على المتهمين السياسيين . ففي هذه الحالة لا يكون السائل في موقف السلطة بحكم الوجاهة فحسب ، وانما يكون له ايضا القدرة على أن يبقي الشخص المستجوب مسجونا أو أن يعذبه أو يميته . وقد يزداد انقياد المستجوب الى ايحاء السائل اذا طال سؤاله أو اذا اجبر على القيام على قدميه ساعات عديدة أو اذا حرم من النوم او اذا اعتراه القلق على نفسه او اعزائه او اذا استعملت معه المخدرات . ولا ندري ــ وهذا مشكوك فيه ــ اذا كان مجرد فهم المستجوب لهذه العملية وطبيعتها النفسانية يمكنه من مقاومة تأثيرها في اخر الامر ، مع أن مثل هذا الفهم قد يكون مساعفا في مراحل الاستجواب الاولى .

وفي الناس اشخاص يكونون بطبيعتهم أقدر على مقاومة مثل هذه الاوضاع من غيرهم . ومما روى هؤلاء ، الذين هم أقدر على المقاومة ، عن تجاربهم في الاستجوابات هذه نتبين أن الحفاظ على موقف أو اتجاه لا يكون المرء فيه منساقا عاطفيا ، هو عنصر هام في مقاومة عملية الاستجواب . ونعني بعدم الانجرار أو الانسياق أن يمتنع المستجوب عن الرد على غضب السائل بغضب من عنده

او على لطف السائل بالعرفان . وقد أخبر بعضهم انهم كانـوا يستطيعون المحافظة على عدم الانسياق انفعاليا على هذه الصورة بالمداومة على موقف الاحتقار لاسئلة السائل ، واخبر بعضهم الاخر انهم حافظوا على عدم الانسياق انفعاليا باتباع سبيل اشق من ذلك ، ولعله أبعد اثرا ، وهو المداومة على موقف التسامح والمودة نحو السائل .

والمحتمل انه لا يوجد حل تام لمشكلة المقاومة ضد الايحاء وكيف يمكن ممارسة هذه المقاومة في مثل هذه الظروف القصوى . واغلبنا يرى في عملية غسل الدماغ موقفا يكون فيه لقوى الغشم اليد الغالبة . والعظة او الدروس التي يمكن استنتاجها من ذلك ، كما يظهر ، هي أنه ينبغي علينا أن نجهد في سبيل الحيلولة دون نشوء مثل هذه الظروف والاحوال . ويجب أن نعقد العزم على أن نحتفظ بشكل من الحكم لا يستعمل هذه الطرق ولا يحتاجها .. وينبغي أن نستمر في مقاومتنا لأي تغيير سياسي يؤدي الى دولـة بوليسية سواء كانت هذه الدولة يمينية او يسارية .

وسبق لنا في هذا الفصل أن تحدثنا عن الايحاء من خـلال الوجاهة المبنية على أسس كاذبة او مصطنعة . وقد يكون هذا الايحاء على أسس أحسن بكثير (من الاسس الكاذبة) ولكنه يكون ضارا رغم ذلك . فألقاب الشرف والمناصب العالية والدرجات والشهادات الجامعية جميعها دعائم صحيحة ترفد بها الوجاهة ولكن من السهل أن يساء استعمالها . ان الـذي حذق موضوعا مـن الموضوعات وتمكن منه له ان يدعي بأنه حجة فيه الى حد معقول . فاذا أبدى عالم فيزيائي بارز رأيا في موضوع تجريبي اختلفت حوله الآراء فقد نرى من انفسنا قبولا معقولا لرايه نظرا الى ما يتمتع به هذا العالم من الحجة ، ولو اننا عاجزون عن تتبع الخطوات العقلية التي أفضت به الى هذا الرأي . وقبولنا لهذا الراي ليس فقط بسبب كون العالم المتحدث ذا مركز علمي جامعي (اكاديمي) يبـرر

ضمنا القول بانه على قدر خاص من العلم بالموضوع المطروح للبحث، بل لان العلماء الاخرين يستطيعون ايضا تتبع الخطوات العقلية لهذا العالم والتحقق من صحتها او بطلانها . ولكن لو فرضنا أن هذا العالم أعطى رايا في مزايا الاشتراكية او في حرية الارادة الانسانية (كونه مخيرا أو مسيرا) ، فان الاعتبار او التقدير الذي توليه لهذا الرأي هو عين الاعتبار الذي قد توليه لرأي شخص اخر يكون ذكيا ولديه المعلومات والوقائع نفسها عن هذا الموضوع . ويتعين علينا ان لا نستشهد بأقوال لهذا العالم حول مثل هـذه الموضوعات على أنها حجة يعتد بها او كلام ثقة يستند اليه .

ودعنا نطلق على الحجة التي تبنى على قول او عبارة احد الثقات ، دون أن يكون هناك ما يستند اليه هذا القول سوى وجاهة قائله اسم : « الاستشهاد بمجرد قول الثقة » تمييزا لها عن « الاستشهاد بأقوال الثقة المعقولة » . وكانت العادة في زمن من الازمان أن يتذرع المجادل بحجة شائعة كل الشيوع وهي اللجوء الى الاقوال المنقولة والاستناد عليها، وكان يظن ان مجرد الاستشهاد بأن « أرسطو قال كذا وكذا .. » دون النظر فيما اذا كان لارسطو من الاسباب ما يدعوه الى قوله هذا وما اذا كانت هناك اسباب أفضل تدعونا الى القول بعكس ما قاله . فالنظر يجب أن يكون في أساس القول واسبابه لا في القول نفسه . ولا يزال بعضنا يكتفي في تسوية الامور والقضايا المتنازع عليها باللجوء بالطريقة نفسها تماما الى الاستشهاد بالمأثور عن ماركس أو القديس بولص أو حتى الى الاستشهاد بما سمعناه اخيرا من احد المحاضرين .

وحدث في زمن من الازمان أن الاستشهاد الاكثر شيوعا كان باللجوء فقط الى أقوال قيلت في الماضي . فالقول بأن : « فلانا كان دوما موضع الثقة والتصديق » ، كان يعتبر برهانا كافيا على أن العبارة المستشهد بها عنه صحيحة وصادقة . ونحن في الوقت الحاضر أميل الى أن نولي الثقة للآراء الحديثة المعاصرة وأن نعتبر

الحكم بأن « فلانا مصدق من الناس الان » ، سببا كافيا لقبول ما يقوله ولتصديقه على انه صحيح . على انه ينبغي في جميع هـذه الحالات أن لا نخدع بالنقل عن الغير ، بل يجب أن نسأل ، في الحالة الاولى ، هل كان لاسلافنا ، في هذه المسألة بعينها ، اسباب معقولة بنوا عليها آراءهم ، وان نسأل ، في الحالة الثانية ، عما اذا كان الانسان المعاصر اكثر معرفة بهذه المسألة بالذات من آبائه ، ونتيجة ذلك يكون الاحتمال اقوى بانه على صواب . ومن الواضح أن الانسان في العصر الحديث اقرب أن يكون على صواب في رايه حول مسائل من مثل طبيعة السدم في الكون والطرق التي تغيرت فيها الاشكال المختلفة من الحيوان والنبـات في أدوار التطـور النشوئي ، وذلك لان كثيرا من الحقائق التي لم تكن معروفة في الماضي قد اظهرتها الاكتشافات الحديثة في هذه المجالات . ولا يبدو بمثل هذا الوضوح أن الانسان الحديث في وضع آفضـل مـن اسلافه فيما يتعلق بالوصول الى آراء صائبة في مسائل الدين او الاخلاق . ومع ذلك فانه في مثل هذه المسائل بالذات يغلب بشكل خاص ان يستشهد بأقوال الانسان الحديث على انها اقوال حجة وثقة . ومع أن الاستشهاد بالغير وبخاصة القدامى ، اذا كـانت الاقوال المنقولة فيه مؤسسة على المنطق والعقل ، يمكن ان يكون عاملا قويا عظيم القيمة في الوقاية من قسوة الاستغلال التجاري بالغش والاحتيال ، الا انه يجب ان لا ننسى أيضا انه استعمل في الماضي ضد التفكير الجديد .

وبمثل ذلك استعملت وجاهة اساتذة الجامعات ورجال العلم في الماضي كثيرا لمقاومة حركات الاكتشافات العلمية في اول عهدها . ومن ذلك مثلا ان صوت جمهرة علماء العالم الثقات وقف في وجه العالم (هارفي) (Harvey) ، حينما اكتشف الدورة الدموية ، فكان ذلك سببا في ارجاء القبول بهذا الاكتشاف جيلا كاملا . واكتشف (لستر) (Lister) استعمال المعقمات المنقذة للحياة في الجراحة

فقام الثقات في ميدان الطب يعارضون هـذا الاكتشاف في اول الامر . وأقرب الى زماننا هذا ، قيام رجال الثقة من ذوي الوجاهة راسخة القدم بالارعاد ضد الاكتشافات الانقلابية في علم النفس على يد عالم الطب النفساني (فرويد) Freud النمساوي . وعلى غرار ذلك ما جرى للاستاذ (راين) (Rhine) حينما اكد ما اكتشفه من قبله الباحثون في قضية التخاطر : وهو أن العقل قد يكتسب المعرفة دون استعمال الحواس وقد يعطي أخبارا مضبوطة عن حوادث تقع في المستقبل ، فقد اكتفى عدد كبير من علماء النفس باسقاط النتائج التي حققتها تجاربه وشجبها معتمدين في ذلك على الثقة والهيبة المعترف بهما لهم من غير ان يحاولوا اعادة التجارب بانفسهم أو أن يعكفوا على دراسة ابحاثه .

ويجب بطبيعة الحال أن لا يغيب عن الذهن ان كون الانسان حجة أو ثقة في باب من أبواب العلم له ما يرجح كفته بشيء ما . فليست جميع الآراء الجديدة في أي فرع من فروع المعرفة والعلم تتبين عن فائدة ، اذ كثيرا ما يتضح أن مبتكرا انما يسعى وراء شيء كالسراب . ولهذا فليس من المستهجن عقليا من أشخاص لهم خبرتهم في فرع من فروع المعرفة ان يقولوا مثلا : « لقد شاهدنا مرات عديدة ما خيل الينا بأنه مجموعة من آراء جديدة المعية ثم تبين انها مجموعة من الاغلاط . وهذا الاقتراح الجديد اقتراح تحملنا خبرتنا في الموضوع على أن نتوقع منه أن يكون عديم الثمرة ». وكثيرا ما كان هؤلاء الاشخاص محقين في قولهم هذا ، ولكنهم مع ذلك في بعض الاحايين قد يخطئون خطأ وبيلا . وعلى أي حال فان هذا الموقف يبرر رفض الراي الجديد بل يدعو الى اتخاذ موقف حذر تجاهه في بادىء الامر مع عرض هذا الراي على محك الاختبار الشديد قبل قبوله وتصديقه . ولكن استعمال وجاهة الثقات من اجل كم الآراء الجديدة واخمادها ليس على أساس معقول كالاساس الذي نتحدث عنه . بل لعل ما يقوله الثقات في الموضوع اعتمادا

على وجاهتهم هو في خلاصته كما يلي : « نحن بحكم كوننا ثقات في الموضوع نعلم أن هذا الراي سخيف حتى دون أن نجري عليه فحصا مفصلا » .

وفي رايي أن الايحاء عن طريق الوجاهة اخذ يفقد ما له من أثر وقوة ، وأحكام « الثقات » أخذت تلاقي الان مزيدا من الانتقادات الذكية وتناقصا في قبول هذه الاحكام بخشوع ودون تمحيص وإعمال فكر ، وهذا خلاف ما كان الحال عليه في زمن من الماضي . وقد سمعت أستاذا يستنكر ما يبديه الطلاب المعاصرون من عدم توقير واحترام لاساتذتهم .. وانا اقول « معاذ الله أن يكون كما يريدهم هذا الاستاذ . ذلك أن جزءا من واجب الاستاذ التربوي أن يتحقق من أن طلابه دائما في وضع من اليقظة الناقدة تجاه ما يقوله لهم بدلا من أن يكونوا في حالة من التوقير الذي هو حالة انفعالية تصحب الرضوخ لايحاء الوجاهة وتصديقه . وخير المعلمين من لا يستعمل وجاهته ومركزه لحمل تلاميذه على قبول ما يقوله ، بل ان خيرهم من ينمي ، حتى اخر أيامه ، في طلابه روح طلب العلم بحيث يكونون دوما على استعداد للاستزادة من العلم ، وبحيث يتوقع منهم خلال تعليمه لهم أن يجادلوه ويناقضوه وأن يقوموا فوق ذلك كله بفحص خال من الهوى للحقائق عن طريق الاختبار .

وبعد أن ذكرنا كل ما نستطيع من قول ضد استعمال حيل الايحاء ، فانه لا يزال من الصحيح القول بان بعض الوسائل قد تستعمل في الخطابات العامة وتكون داعية الى احداث تأثير ايحائي في نفوس السامعين . فلو أن خطيبا يقرر في نفسه حرصا على اتباع التفكير المستقيم انه لن يتكلم في خطابه بلهجة الواثق من نفسه المطمئن الى كلامه وانه لن يذكر اية نقطة الا مرة واحدة ، فانه ، اذا فعل ذلك ، لن يكون خطيبا ناجحا . لان سامعيه سيتولاهم السأم واغلب الظن ان تداخلهم قناعة بعدم كفايته اكثر من قناعتهم بأمانته . وقد لا يغني خطيبا شيئا أن يحاول التخلص من جميع التأثيرات

الوجاهية بأن يقنع رئيس الجلسة بابلاغ السامعين صراحة عن عجزه التام وعدم كفايته في ان يقدم شيئا يستحق الذكر في الموضوع الذي يخطب عنه .

وينبغي ان نسعى جهدنا للتقليل من الانقياد لايحاء الغير عن طريق توجيه عملية التربية والتعليم نحو تدريب الطلاب على الاستقلال في الحكم على الامور وكذلك تبيان فراغ العدد العديد من مظاهر الوجاهة ، ولكن اذا دعينا الى الكلام في المحافل العامة فيقتضي علينا ان نخاطب سامعينا بلهجة المتثبت من قوله المطمئن في نفسه ، وان نستعمل طريقة التكرار المتنوع في ظلال هالة من الوجاهة يضفيها رئيس الجلسة علينا بحسب ما يراه مناسبا .

وينبغي أن لا نفعل ذلك بقصد استغلال ما لدى السامعين من ميل الى تصديق الايحاء والتأثر به ، وانما لان ذلك هو السبيل الوحيد الذي يرجى منه أن يؤثر بفاعلية في الخطب العامة . والايحاء مع ذلك لا يمكن تفاديه لانه حاصل ، سواء أردنا أو لم نرد ، ويغلب على السامعين أن يقبلوا ما نقوله لهم بصرف النظر تماما عن صحة ذلك واستناد هذه الصحة على اسس معقولة أم لا . فالامانة الفكرية اذن تقتضي من الخطيب بعض المتطلبات المعينة : ومنها انه يجب عليه ابدا أن لا يقول أمام الناس شيئا لا يكون هو متمسكا به في جداله الخاص . ويجب عليه أن لا يطرح قولا على انه مؤكدا بينما يعتقد هو أن هذا القول محتمل الصحة فقط . ويجب عليه أن لا يستعمل ابدا حيلة السياسي المبتذلة وهي حيلة هزيمة معترض مخلص في اعتراضه عن طريق الغش في الرد دون أن يكون الرد أو الجواب من شي يدعمه سوى حيل الايحاء .

والامانة الفكرية لا يلزم منها بحكم الضرورة أن تتنافى مع الخطابة العامة ، وليس من مبرر يحمل أصحاب الاستقامة الفكرية على أن يخلوا ميدان الخطابة العامة في العالم بأجمعه ويتركوه في

أيدي محتالين ومستغلين لوسائل الايحاء يفعلون فيه ما يريدون .
ولا ننس مع ذلك أن البيئة المحيطة بمنصات الخطابة العامة لا توافق الامانة الفكرية ولا تصلح لها ، وكل الدواعي تدعو الخطيب في المحافل العامة والخطب الشعبية أن يفتش ضميره تفتيشا دقيقا على هدي ما يعرفه من مداورات الايحاء . واحسن شيء يحمي الخطيب هو أن يكون سامعوه يقظين نقادين واقل انقيادا الى الايحاء نسبيا ،وعلى دراية تامة بحقيقة الحيل الايحائية وبالفرق بين هذه الحيل وأساليب الجدل الامينة السليمة .





الفصل العاشر

عادات التفكير

كان الفصل السابق يبحث في قوة الايحاء الذي قد يؤثر به الاخرون في عقولنا ليجعلونا اقل عقلانية . غير أن هناك ، بالاضافة لذلك ، قوى في داخل عقولنا تؤدي الى التفكير المعوج واثنتان من هذه القوى هما عاداتنا الفكرية وتحيزاتنا وهاتان القوتان مختلفتان ولكنهما من نوع متشابه الى حد ما . وقد استعملت عبارة « عادات التفكير » للاشارة الى تلك الاتجاهات التي يتجهها عقلنا عادة ، واستعملت عبارة « التحيز والمحاباة » للدلالة على طرق التفكير المقررة سلفا بتأثير عوامل انفعالية قوية تعمل لصالحها ، او بتأثير المنفعة الذاتية (حقيقة كانت او موهومة) ، أو ارتباطات المرء الاجتماعية مع جماعته أو الجماعات الاخرى ، وما شابه ذلك . وكلا الامرين : عادات التفكير والتحيز يمكن استغلالهما من المختصين بالدعايات بطرق متشابهة الى حد ما .

ان تكوين العادات التفكيرية عندنا جزء من تلك العملية المالوفة ، عملية تكوين العادات في حياتنا ، فمعيشتنا اليومية توجهها الى حد كبير انماط معتادة من السلوك تأصلت كعادات ، اذ اننا في كل يوم ننهض من النوم ونتناول فطورنا ونخرج الى العمل على طريقة واحدة تقريبا . وتكون هذه العادات على هذه الصورة له قيمة نفسانية من حيث أنه اقتصاد في الجهد ، أما إعمال الفكر في اختيار السبيل المناسب كل يوم ولحظة ففيه عناء ، والافضل ان يحتفظ به ليستفاد منه في اتخاذ القرارات ذات

الشأن . ونفس الشيء يصدق على طرق تفكيرنا وتكوين آرائنا . فعندما نقرأ جرائدنا ، نقرأ فيها اخبارا عن مشكلات التمييز العنصري في جنوب أفريقيا ، وعن التظاهرات العنيفة هنا وهناك، وعن اختلافات الراي بين حكومتي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وهلم جرا . واغلب الظن أننا نكون قد جزمنا في انفسنا برأي من قبل حول كل قضية من هذه القضايا من حيث نقط الحق ونقط الباطل فيها (أو أن غيرنا كون لنا رايا في ذلك) ولذا لا نكون في حاجة الى تكوين راي جديد عنها . فمن شأن عادات التفكير عندنا أنها تجنبنا ضرورة اتخاذ قرارات جديدة حول القضايا الخلافية التي تقوم عليها هذه الاخبار في الجرائد . وهذا يؤدي الى الاقتصاد في الجهد الفكري ، الذي هو الفائدة الكبرى من تكوين العادات التفكيرية .

غير انه يوجد ، من الناحية الاخرى ، في العادات التفكيرية عائقان خطيران على الاقل . الاول ان صاحب الدعاية اذا علم بالعادات التفكيرية لدى سامعيه يستطيع استعمالها سلاحا له . والثاني أن عادات التفكير قد تولد فينا ميلا الى اغلاق الذهن دون الآراء الجديدة .

فالخطيب الذي يريد استغلال عادات مستمعيه التفكيرية ، يكون على علم كاف بهؤلاء المستمعين بحيث لا يجد صعوبة كبيرة في أن يبدأ خطبته باقوال تلائم تماما تلك العادات وتضرب على نغمتها . وهو يعرف أنه قد نجح في ذلك من التصفيق الذي تحصل عليه هذه الاقوال . والخطيب الحاذق يبدأ خطبته بسلسلة متوالية من هذه الاقوال . فهو يشير الى « التقاليد البريطانية في حب العدالة والانصاف » (تصفيق) والى « حسن الادراك المتين لدى الشعب البريطاني » (تصفيق اكثر) والى « روح قومنا التي لا تقهر » (تصفيق اكثر واكثر) . والى هنا يكون الخطيب قد احدث في نفوس سامعيه موقفا ينساقون معه الى قبول ما

يقوله عن طيب خاطر . ومن هنا يستطيع أن يمضي الى قول اشياء ، كان من المحتم أن يكون نصيبها الرفض من سامعيه بتأثير عادات تفكيرهم ، لو انه قالها في باديء الامر . وبذا يكون بوسعه ان يقول مثلا أن التشريع الاجتماعي العطوف (عطف جدتنا) قد حول البلاد الى تكية (يوزع منها الطعام) أو ان مجد جامعة الشعوب (الكومنولث) البريطانية قد ضعف نتيجة الاخلاد الى الكسل ومعاقرة الخمر . وفي كل ذلك يكون السامعون ماضين في قبول ما يقوله دون اعتراض . فالمعارضة التي كان السامعون سيبدونها حتما لهذه الاقوال لو أنها قيلت في مطلع الخطاب قد ذللتها الوسيلة البسيطة وهي البدء بأقوال يسهل على السامعين قبولها .

وهذه الوسيلة نفسها يمكن استعمالها من مدع يدعي المداواة النفسانية . فهو يقول لسامعيه ان للعقل سلطانا كبيرا على الجسم ، وهو أمر صحيح . ثم يمضي بعد هذه البداية الى اعطاء الشواهد على قوله وذلك بسرد قصص قد تكون هي أيضا صحيحة . فقد يحكي لهم مثلا عن ناس كان يظن بحسب الظاهر انهم بكم أو مشلولون ثم تعافوا وصحوا بعد أن تعرضوا لتأثير ازمة انفعالية . وقد يمثل لهذه القوة التي للعقل على الجسم باجراء تجارب بسيطة . فاذا انس من سامعيه حالة تقبلية مطواعية ، فانه يمضي في القول الى ذكر أمور اخرى كانوا سيجدون صعوبة في تصديقها لو انه لم يمهد لذلك . وهكذا فقد يقول لهم ان لديه طريقة جديدة يشفى بها جميع امراضهم وعللهم الجسمية والعقلية ، وانه مستعد الى الكشف عن هذه الطريقة لجماعات صغيرة في مقابل اجرة معينة . واذا نجحت وسيلة تليين النفوس هذه ، باللجوء أولا الى عادات التفكير واستغلالها ، فان المستمعين يستمرون في تصديق الخطيب حتى انهم يصدقون ما ادعاه عن طريقته في الشفاء وان لم يكن لهذا المدعى من سند او اثبات ،

وهذا كله لان الاشياء التي قالها في باديء الامر تراءت لهم بأنها صادقة واضحة . وهنا يكونون قد خسروا مالا ولعلهم لن يكسبوا صحة .GOAL

ولهذا فاننا لو سمعنا اقوالا متوالية مثل ا ، ب ، ج ، د يقبلها عقلنا على الفور وبحماسة ، فانه يجب مع ذلك أن نكون على حذر من قبول راي خامس (هـ) . فقد لا تخرج تلك الاقوال الاربعة ا ، ب ، ج ، د عن انها مغواة لا غير يقصد بهـا احداث عادة تصديق كل شيء يقوله المتكلم ، (أو هي طعم كطعم صـيد السمك) . والقول الخامس (هـ) قد يخفي الصنارة .

ويجب مع هذا أن يتمادى بنا الحذر حتى الى أبعد من ذلك . فان السهولة والسرعة التي نقبل بها الاقوال (ا ، ب ، ج ، د) ليست ضمانا بأنها ، حتى هي ، اقوال صحيحة . والافكار التي سبق أن فكرنا بها مرارا تمر خلال عقولنا بسهولة متزايدة الى ان تبدو واضحة . والانفعالات التي سبق ان اثيرت بسبب افكار معينة ، تزداد سهولة اثارتها بتكرار تلك الافكار الى ان يبدو لنا أن ثمة علاقة ضرورية لازمة بين الانفعال والفكر . وهكذا فان تفهمنا لعلم النفس جدير بأن يؤدي بنا الى رفض البديهية الفلسفية القديمة التي تقول بأن الذي لا نستطيع الشك فيه لا بد أن يكون صحيحا . والامر الذي لا نستطيع الشك فيه يحتمل أن يكون ناشئا عن عادة تفكيرية راسخة متأصلة فينا ، ويجوز ان يكون هذا الامر باطلا .

مثال ذلك أن اجدادنا من قديم لم يستطيعوا ان يشكوا في ان الارض ساكنة لا تتحرك ولا في ان الشمس هي التي تتحرك حولها كل يوم . ويحتمل أن نكون نحن قد وجدنا صعوبة مماثلة في الشك بأن هناك معنى دقيقا محددا في القول بأن حادثتين تقعان في وقت واحد في مكانين مختلفين تكونان متزامنتين . وقد تبين ان هذين الزعمين كليهما باطلان ، وهما مبنيان أساسا على عادات راسخة

في التفكير . وقد نقض الزعم الاول العالم الفلكي كوبرنيكس (Copernicus) حينما بين بأن الواقع يمكن تفسيره على وجه احسن اذا افترضنا أن الارض تدور على محورها في الحقيقة بدلا من أن نفترض أن الشمس تدور حول الارض كما يتراءى لنا . ونقض الزعم الثاني العالم آينشتاين (Einstein) الذي احدث انقلابا في علم الطبيعة حينما جاء بنظريته في النسبية الخاصة .

وكلنا يعرف لمحة عن نظرية اينشتاين في النسبية من الجرائد ، وهذا يسمح لي بأن آتي منها بمثال اخر عن سلطان عادات التفكير وكيف أن هذه العادات تعوق العقل عن الوصول الى حقيقة جديدة . ففي نظرية النسبية العامة ذكر آينشتاين قولا مؤذيا لادراكنا الحسي العام (أي عاداتنا التفكيرية) ، وهو أن الفضاء في جوار المادة ليس أقليدسيا (كما نعرف من هندسة أقليدس) ، وهذا معناه ان المثلث في هذا الفضاء لا تكون زواياه الثلاث مساوية في مجموعها لزاويتين قائمتين .

والفرضية القائلة بأن مجموع زوايا المثلث تساوي قائمين فرضية لاقليدس في الهندسة ، ولكن اقليدس نفسه اعترف بأن هذه الفرضية غريبة في بابها . فقد كانت ضرورية للبرهنة على جل ما اثبته في الهندسة فيما بعد ، وان كانت هي مستندة على فرضية أخرى لم يستطيع أحد اثباتها بالبرهان . ولذلك اعتبر أقليدس هذه الاخيرة بأنها بديهية ، ولو انها لم تكن بينة بذاتها . وحاول هندسيون اخرون بعد اقليدس البرهنة على هذه البديهية ولكنهم أخفقوا في وضع برهان سليم ، فقرروا اخرا أن ايجاد برهان سليم لها أمر مستحيل . ولذا فان علماء رياضيين اخرين بنوا ما أطلقوا عليه اسم « الهندسات غير الاقليديسية » . وقد بنيت هذه على الافتراض اما بأن مجموع زوايا المثلث يكون أكثر من زاويتين قائمتين أو أقل . ولو افترضنا أيا من هذين الافتراضين فان بوسعنا ان نبني هندسة كاملة على أساسه . وقد لا تصدق

هذه الهندسة على المكان او الفضاء الذي نعرفه، ولكنها تكون هندسة متكاملة يستقيم بعضها مع بعض ، وتصدق على فضاء أو مكان ممكن وان لم تصدق على المكان أو الفضاء الذي نعيش فيه .

وقد يسأل سائل : « وما نفع هذا النوع من التفكير النظري ؟ . فاذا كنا نحن نعرف أن مجموع زوايا المثلث قائمتان فما النفع من الافتراض بأنه ليس كذلك ؟ » والجواب على ذلك هو « ان الامر ليس كون الزوايا تبلغ في مجموعها قائمتين أم لا وانما هل هذا المجموع لا بد منه بمعنى أنه هل يجب وجوبا ان يكون مجموع زوايا المثلث قائمتين ؟ . فاذا كان لا بد منه حتما فان نتائج اقليدس تصدق على جميع الافلاك والاكوان ممكنة الوجود ، أما اذا كان ذلك من قبيل المصادفة فقط وان اقتناعنا بأن الزوايا الثلاث يجب ان تساوي قائمتين حتما ليس له من أساس سوى أساس عاداتنا التفكيرية فانه مما يجدي حقا ان نتعرف ما هية النتائج التي تنجم عن الافتراض المضاد » . والنتيجة العملية التي اسفر عنها هذا التفكير النظري هي انها مكنت من قبول نظرية اينشتاين (التي كانت صحيحة وكان لها عواقب عملية أمكن تحقيقها) . ولو أن الناس استمروا على اقتناعهم بأن كل مثلث لابد من أن يطابق قانون أقليدس تماما لما تمكنوا من الوصول الى نظرية اينشتاين العامة في النسبية . وهكذا كان من الممكن استلهام حقيقة جديدة بتحطيم عادة تفكير قديمة .

وليس في عاداتنا التفكيرية ، التي قد يطلب الينا أن نرتاب في سلامتها ، عادة يمكن أن تكون من الوضوح بمثل وضوح القناعة عندنا بأن هندسة أقليدس يجب أن تكون صحيحة حتما . ووضوح القناعة ظاهريا بأمر ما لا يكون ضمانا لصحته . فاذا اقتنعنا بهذا فانه ينبغي علينا أن نكون على استعداد لان نجري

بجراة تجارب تهدف الى التشكيك في صحة ما يتراءى لنا من الحقائق القائمة على عاداتنا التفكيرية وحدها .

ونظرية النسبية الفيزيائية مثال بالغ النفع في الدلالة على خطر العادات التفكيرية في اغلاق أذهاننا امام كل حقيقة جديدة ، لان هذا الخطر يبلغ منتهاه فيما يتعلق بواقع النظرية النسبية في معناها الاعم . ويغلب علينا جميعا أننا نحكم على الامور والمشكلات من موقف محدود معين ــ وهو الموقف الذي تحدده لنا ظروفنا واحوالنا في الحياة . فنحن نسكن وطنا معينا خاصا بنا ، ولنا تقاليد دينية وخلقية معينة ، ولذا نكون ميالين الى أن ننسى كم من أحكامنا هي فعلا أحكام نسبية تستند الى موقف واحد معين، وليست أحكاما مطلقة .

اننا نبدأ فقط برؤية الى اي مدى لا تكون آراؤنا عن الحق والباطل وغيرها من الامور في مستوى الحقائق العلمية ، عندما نبدأ بدراسة الديانات وشرائع الاخلاق دراسة مقارنة ، ونكتشف عندها ان آراءنا هذه هي أحكام حقيقتها نسبية ومنبثقة عن وجهة النظر الخاصة المعينة التي بنيت عليها . (بينما الحقائق العلمية صحيحة بالنسبة لجميع الاشخاص في جميع الاحوال) . واذا عودنا عقولنا على الدراسات المقارنة وعلى تكوين عادة النظر في المشكلات على أسلوب يسقط من هذا النظر اي تأثير لوجهة نظرنا فاننا نكون بذلك قد تخلصنا بعض الشيء من هذه النسبية في آرائنا واحكامنا .

وفي حكاية جرت قبل عدة سنين أن قائد احدى السفن الحربية البريطانية كلف بمهمة القيام بزيارة لجزيرة في البحر الجنوبي وبتقديم تقرير عن آداب السكان فيها وعاداتهم . ولما قدم تقريره تبين أن التقرير كان موضوعا في عبارات كالعبارات التالية : « سكان هذه الجزيرة ليس لهم آداب ، أما عاداتهم فشنيعة وحشية » . وليس من الصعب أن يرى المرء ان هذا الكلام ليس

تقريرا موضوعيا وانما هو نسبي لنظم الآداب والعادات التي تعود عليها هذا القائد ، ويمكن اعادة صوغ عبارات التقرير على الصورة التالية : « لم تكن آداب سكان الجزيرة ولا عاداتهم مما أتوقع أن يكون موجودا على ظهر سفينتي » . ولو ان أحد علماء علم الاجناس البشرية المحدثين قام بهذه الدراسة لكان من المحتمل ان يكون قد اكتشف أن سكان الجزيرة لديهم شريعة آداب اجتماعية متكاملة ومدروسة بعناية كبيرة ، ولكان سجل عاداتهم تلك كحقائق واقعية دون أن يعني أو يشغل نفسه بموضوع التساؤل عن اي من هذه العادات يعجبه وأيها لا يرضيه .

والناس اذا زاروا بلادا أجنبية فان تقاريرهم عنها تكون في اغلب الحالات شبيهة بتقرير قائد تلك السفينة ، كأن يقولوا مثلا : « سكان جنوب أوروبا قذرون » أو « الفرنسيون يأكلون اطعمة غريبة مستهجنة » أو « الشعب الفلاني لا يتذوق النكتة والفكاهة » . واذا نظرنا الى هذه الاقوال نظرة موضوعية فاننا نرى أنها جميعها لا تخرج عن كونها نسبة الى عاداتنا الخاصة التي نقيس بها غيرها . فالتقرير الاول من هذه التقارير يقول (صدقا او كذبا) ان الناس في جنوب أوروبا يتسامحون من بعض المناحي في وضع المادة في المكان الخاطيء اكثر من تسامح الشعب الذي ينتمي اليه السائح . والتقرير الثاني يقول ان الفرنسيين يأكلون اطعمة تخالف الاطعمة التي تعود على أكلها هو . والتقرير الثالث يعني أحد أمرين ، اما أن الشعب الفلاني لا يضحك بقدر ما يضحك هو واما (وهو أكثر احتمالا) أنه يضحك من أشياء غير الاشياء التي يضحك منها هو .

ويجب علينا على الخصوص في الشئون الدولية أن لا ننسى هذه النسبية في نظرتنا . فلو حدث نزاع بين بوليفيا وبيرو مثلا فان معظمنا يستطيع ابداء حكم على النزاع وما له وما عليه ، دون انحياز الى جانب ، اذا توافرت معلومات وافية عن الوقائع ،

تساعدنا على اصدار هذا الحكم بطريقة علمية موضوعية . ولكن لو كان النزاع بين وطننا وبلد اخر فاننا لا نستطيع اصدار الحكم بتلك الطريقة .وما لم نر القضية من وجهة نظر الاخرين كما نراها من وجهة نظرنا فان أحكامنا لا يمكن أن تقرب بشيء من الصحة العلمية . ويلاحظ أن معظم الناس لا يدركون ذلك ، ونحن عند انتهاء الحرب نفترض لانفسنا ولحلفائنا ليس مجرد القدرة على ان نقوم بعمل محامي الادعاء ضد اعدائنا في تلك الحرب بل وأن نكون قضاتهم أيضا . والمعروف أن القاضي عليه ان يصدر احكاما بموضوعية وصحيحة على كل صعيد ، وهذا لا يمكن ، بواضح الامر ، أن يتم الا اذا كان القاضي مستقلا عن نزاعنا كاستقلالنا عن النزاع بين بوليفيا وبيرو .

والتجربة التي نتعلم منها هي ان نأخذ قولا يعرب عن وجهة نظرنا في موضوع نشأت حوله عادات تفكيرية مستحكمة ، ثم نبدل الامور المعينة المبحوث عنها في هذا القول بأمور مشابهة لها ولكن لنا حولها عادات تفكيرية مختلفة دون اجراء اي تبديل اخر . وبعد ذلك ننظر في صيغة القول الجديد وفي موضوعاته الجديدة لنرى اذا كان موقفنا منها ظل كما كان . وبهذا نستطيع ان نحكم على موقفنا تجاه القول الاصلي الى اي مدى كانت فيه موضوعية أو صحة علمية ، والى اي مدى كان مقبولا لدينا لمجرد أنه كان متطابقا مع عاداتنا التفكيرية .

ويمكن اجراء هذه التجربة على الفقرة التالية المأخوذة من خطاب عثرت عليه مصادفة في خلف قصاصة من احدى الجرائد . وهي فقرة مثيرة لكوامن النفس ، ولذلك فانها مناسبة من حيث الموضوع لتجربة يقصد بها معرفة مقدار الاثارة (اذا كانت هناك اثارة) هل هو مستقل عن العادات التفكيرية والانفعالات التي يهيجها ام لا ، والفقرة كما يلي :

« ما لم تقم بدورنا كجنس مستعمر (امبريالي) فليس أمام الجنس البشري سوى الخراب . (تصفيق) . ومع ما يجري من الغليان في العالم اليوم فان القوة الوحيدة في رايي التي تستطيع الابقاء على المثل الاعلى للحرية المنظمة هي السبعون مليون شخص أو نحو ذلك من الجنس الابيض في الامبراطورية البريطانية . والسبعون مليون شخص الذين يكونون الامة الامريكية الحقيقية صريحة النسب . وهذه المئة والاربعون مليونا من البشر الذين يتكلمون اللغة الانكليزية ويقرأون الكتاب المقدس بالانجليزية وكتابات شكسبير الانكليزي ولهم أفكار تجسمت من الاصل في الماغنا كارتا (Magna Carta) [1] ـ هؤلاء الناس بما لهم من خلفية مشتركة من المدنية عليهم أن يتقاسموا المسئولية للابقاء على المدنية بين الـ ١٨٠٠ أو ١٩٠٠ مليون من البشر على الكرة الارضية » .

وهذا خطاب مثير لكوامن النفس ولا يزال كذلك ، ولو انه يقل الان من هذه الناحية عما كان عليه حينما القي لاول مرة ، وسبب ذلك أن عاداتنا التفكيرية قد تبدلت وتغيرت منذ ذلك الوقت . فلم يعد يسهل علينا أن نرى انفسنا بأننا المثل الاعلى لحملة المدنية والنظام والمسئولون عن تعميمهما في جميع العالم . ولكن لو تذكرنا أن هذا التفكير على هذه الطريقة كان شائعا في الجزء الاول من القرن الحالي فاننا نجد صعوبة في ادراك السبب الذي من اجله قوبل هذا الخطاب بالتصفيق عند القائه . وعاداتنا في التفكير حتى في الوقت الحاضر لم تتبدل تبدلا كافيا يجعلها تفقد جميع سلطانها علينا ، ولذلك اذا اردنا أن نمتحن القيمة الحقة لهذه الفقرة فان علينا أن نختبرها مرة ثانية ولكن في وضع نكون فيه قد كونا عادات تفكيرية مختلفة .

---

١ ـ الماجنا كارتا اي العهد الكبير وهو الميثاق الذي حصل عليه الانجليز والخاص بالحرية الشخصية والسياسية من الملك جون في عام ١٢١٥ (م.ح) .

ولنفرض أن هتلر القى في سنة ١٩٣٩ خطابا كالخطاب التالي :

« ما لم تقم نحن الالمان بدورنا كجنس مستعمر (امبريالي) فليس امام الجنس البشري سوى الخراب . ومع ما يجري من الغليان في العالم اليوم فان القوة الوحيدة في رايي التي تستطيع الابقاء على المثل الاعلى للحرية المنظمة هي السبعون مليونا أو نحو ذلك من الشعوب الآرية في المانيا وخمسة الملايين من الالمان صريحي النسب في النمسا . هذه الخمسة والسبعون مليونا من البشر الذين يتكلمون اللغة الالمانية ، ويقراون الكتاب المقدس بالالمانية وكتابات (غوثه) ولهم أفكار ورثوها عن اسلافهم النورديين (Nords) ـ هؤلاء الناس بما لهم من خلفية مشتركة في المدنية عليهم أن يتقاسموا المسئولية للابقاء على المدنية بين الفي مليون من البشر على الكرة الارضية » .

هذه الفقرة هي عين الفقرة السابقة ولكن في ملابسات مختلفة . وبدلنا الملابسات السابقة بملابسات اخرى لنا فيها عادات تفكيرية مختلفة . فاختلفت عندنا ردود الفعل . فبدلا من أن تكون الفقرة بيانا رصينا عن مسئولية الامبراطورية انقلبت في ظاهرها الى جنون المباهاة بالعظمة القومية . وكيف يكون وقع هذه الفقرة على زائر محايد عن سكان المريخ مثلا ؟ .

واحدى المشكلات العملية ذوات الاهمية القصوى التي اذا لم ننظر فيها الى الوضع من وجهة نظر غير وجهة نظرنا الخاصة كانت العاقبة وبيلة هي مشكلة نشوء الشجار وتولده بين الناس . فان هذه المشاجرات اذا كانت بين الامم فقد تكون عاقبتها الفاجعة الحرب . وكيفية نشوء هذه المشاجرات لا تختلف كثيرا من بعض الوجوه عنها في المشاجرات التافهة التي تجري بين الافراد .

لنفرض أن زيدا من الناس وجد قطة جاره (عمرو) تنبش المشتل في بستانه . وكتب مذكرة الى (عمرو) يحتج فيها على

ذلك . فاستاء (عمرو) من المذكرة وارسل ردا مغضبا . وهذا زاد من اغتياظ (زيد) فنصب شبكة من الاسلاك بين البساتين واثبت الشبكة على السياج الذي هو ملك (عمرو) . فأثار هذا العمل حفيظة (عمرو) على (زيد) بسبب التشويه الذي احدثه في منظر سياجه ، وقطع الشبكة . فأقام (زيد) دعوى قضائية على (عمرو) يطالب بالتعويض عن الضرر في شبكته وأقام (عمرو) من جانبه دعوى قضائية على (زيد) يطالب بالتعويض عن الضرر في سياجه .

امامنا الان شجار مستكمل . ووجهة النظر عند كل من الطرفين هي أن جاره كان المعتدي ولاسباب تافهة ، أما هو فقد اتخذ اجراءاته لمجرد حماية نفسه . ولو أحيل هذا النزاع الينا بوصفنا مشاهدين محايدين لنقرر من هو المعتدي لوجدنا صعوبة في الجزم بأي قرار . وقد نفضل أن نقول ان الطرفين وجدا انفسهما في وضع غريب كانت العداوة المتبادلة بينهما فيه تتزايد مع كل خطوة تتخذ . وقد نحكم بأن كلا من الطرفين ملوم لان الاسباب التي نشأ عنها الشجار كانت تافهة جدا بحيث أن أحد الطرفين كان في استطاعته أن يقطع سلسلة النفور بالامتناع عن اتخاذ خطوة دفاعية حتى لا تؤدي الى اثارة خطة دفاعية يتخذها جاره بالمقابل . ولو أن هذا الشجار حدث في حضانة الاطفال لجرت تسويته على الارجح قبل أن يتمادى ويتطور وذلك بصفع المتشاجرين وصرفهما الى الفراش .

وقد ينجم وضع مماثل لذلك بين أمتين . فالامة (س) تخاف من خطر حرب مع الامة (ع) ، ولذلك فانها اي (س) تعزم على زيادة قواتها المسلحة . وترى (ع) في هذا تهديدا لسلامتها وامنها فتزيد هي من قواتها المسلحة . وتوقن (س) من تصوراتها بأن (ع) تريد أن تثير حربا معها فتزيد هي من قواتها وتعقد معاهدة دفاع متبادل مع بلد مجاور (ص) . وهنا تصبح (ع) على يقين بأن (س) لها نيات عدوانية ضدها ويعتريها احساس بأنها في بداية تطويق لها يقوم به فريق من أعدائها ، فتصنع دبابات وطيارات

وسفنا بأعداد متزايدة وتعقد تحالفا مع جاراتها ليكون لها قوات اضافية لحمايتها ومطارات جديدة ، وغير ذلك . ويجري هـذا في الوقت الذي يسارع السياسيون المسئولون في الحكومة في كلتا الدولتين الى طمأنة العالم بأن رغبتهم الخالصة هي في السلام وبأن اشتغالهم في الاستعدادات الحربية على كره منهم ليس الا لحماية انفسهم من النيات العدوانية للامة الاخرى .

والوضع من وجهة نظر (س) هو أن (ع) هي التي تستعد للحرب وانها هي اي (س) انما تتخذ الحيطة والاجراءات لحماية نفسها لا غير . والوضع من وجهة نظر (ع) هو أن (س) تهدد بالحرب في حين انها (أي ع) انما تستعد لصد عدوان (س) لا غير . والوضع من وجهة نظر مشاهد محايد شبيه بالوضع بين (زيد) و (عمرو) ، ذلك أن الطرفين يجدان انفسهما في وضع غريب تكون كل خطوة دفاعية يتخذها طرف من الطرفين معتبر من الطرف الاخر بأنها تهديد ، فتؤدي هذه بدورها الى خطوة اخرى مماثلة معتبرة هي أيضا بأنها تهديد ، وهكذا .

فالموقف في هذه الحالة موقف مضطرب بشكل متزايد ، وقد يؤدي في اية لحظة الى التعجيل في الحرب . والتوازن القلق قد ينقلب فعلا في مرحلة مبكرة من مراحل هذه العملية اذا احست (س) او (ع) ، بعد اقتناعها بأن الامة الاخرى ناوية على الحرب في اي وقت ، بأن الخطر عليها من الهزيمة اشد في السنة القادمة مما هو الان وأن الافضل لها أن تبدأ الحرب الان دون تأخير ، على اساس مبدأ الحرب الوقائية .

ومن سوء الحظ أن سلسلة الاسباب المؤدية لحدوث الحرب في هذه الحالة الدولية يكون قطعها اصعب من قطع السلسلة في قضية (زيد) و (عمرو) التي ذكرناها آنفا وذلك لان الامر المختلف عليه بين ذنيك الشخصين كان امرا تافها . اما الامر بين الدولتين فمختلف اذ لو حدث أن وزيرا في دولة (س) لم يتخذ خطوات

مناسبة في مقابل الاجراءات التي يعتبرها بأنها استثارية من جانب دولة (ع) واندلعت الحرب فعلا ، رغم ذلك ، بين الدولتين (س) و (ع) فان اللوم الشديد سيقع على ذلك الوزير لانه لم يتخذ الخطوات الضرورية للتحرز من هزيمة بلده . وقد يدعي البعض بأنه كان من الافضل للوزير أن يخاطر بالهزيمة ولا ان يخاطر باحداث الحرب . وقد يكون هذا صحيحا ، مع العلم بأن الامر يتوقف في واضح الحال على مقدار المخاطرة نسبيا في الحالتين . وهذا ما يصعب على ذلك الوزير الحكم عليه . وعلى اي حال فان قراره صعب . لان عليه أن يوازن في الاهمية بين ان يتخذ الاجراءات الدفاعية ويثير بذلك الدوافع على الحرب عند الطرف الاخر وبين ان يغفل هذه الاجراءات ويتعرض بذلك الى خطر الهزيمة .

ويغلب على المواطنين في وطن الوزير ان يكون التشديد والاهتمام عندهم منصبين على وجوب اتخاذ الاجراءات الدفاعية التي من شأنها أن تكون استثارية في نظر دولة (ع) ، لان شعبه (وهو معهم) يرون الموقف من وجهة نظر دولته (س) ، وهو أن (س) ترغب في السلم وأن (ع) تنوي العدوان وليس في الامكان تعطيل هذه المجموعة من الاسباب الداعية الى الحرب وابطال مفعولها ما لم يتبصر وزراء الدولتين (س) و (ع) وشعباهما في الامر ويبطلوا عاداتهم التفكيرية وينظروا الى المشكلة من وجهة نظر الطرفين لا من وجهة نظر طرف واحد .

واذا كانت حالات العداوة بين الامم اصعب في فضها من الشجار بين الجيران الذين يتشاجرون بسبب حيواناتهم الاليفة ، فذلك أدعى الى ان تفض العداوات بين الامم حتى لا يهدد خطرها تهديدا متزايدا بوقوع حرب كبرى بالاسلحة الحديثة تؤدي الى نكبة لا يمكن تلافيها ويذهب ضحيتها الجنس البشري . ولذلك فان الذين ينظرون الى حوادث التوتر بين الدول من وجهة نظر تختلف عن وجهة نظر

مصالحهم القومية الخاصة يؤدون خدمة حقيقية للجنس البشري . ومما يزيد في حدة سوء التفاهم بين الدول على الدوام تلك الخطب الحماسية الوطنية التي تلقى في دولتين تكون احداهما في حالة نزاع مع الاخرى . وسكان العالم لا يزالون بعيدين عن هذا الوضع من التفكير الصريح بعدا يمنعهم من ان ينظروا الى مشكلات الدول الاخرى وكانها مشكلات لهم . وتنمية القدرة على هذا التفكير تهيىء لنا الوقاية من الحروب باحسن مما تهيئه لنا مخاوفنا من الحرب وما نصنعه من أسلحة تتزايد قدرتها على الافناء والتدمير .

وهذا ميدان واحد من ميادين مختلفة يؤدي ارتيابنا في سلامة عاداتنا الفكرية فيها الى التعمق في فهم حقيقة وضع من الاوضاع والى سلوك مسلك له حظ اوفى من الرجاحة والمعقولية . وعلى العموم فان عاداتنا الفكرية يجب أن لا تقبل سلبيا بل يجب أن تعرض على محك التمحيص والانتقاد حتى يتبين صلاحها . وكم من أمر كنا نشعر شعورا جازما بصحته أصبح مثارا للتساؤل والشك ، ولا يضيرنا أن نستمع لهذه التساؤلات والشكوك وذلك لكي تكون اعتقاداتنا الراسخة أشد الرسوخ مبنية على قناعة محققة وممحصة لا على عادات فكرية لا غير . ومن المفيد مثلا أن يقرأ الانسان الجرائد والكتب التي تمثل وجهة نظر ليست وجهة نظرنا الخاصة . فالمؤمن المسيحي يحسن به أن يقرأ ما يقال ضد المسيحية من منتقدين لها كالفيلسوف (نيتشه) والفيلسوف (برتراند رسل) . والمحافظ في مذهبه السياسي يفيده أن يقرأ كتابات (ماركس) أو (كروبوتكن) Kropotkin (١) أو (ماو) . والذي له أفكار سياسية تميل الى التحرر من الخير له أن يقرأ ما يقال من الناحية الاخرى في الصحف المحافظة أو ما يقوله الخطباء اليمينيون . والذين يؤمنون بأنظمة الزواج كما هي مقررة في تقاليدنا العامة لا يضيرهم أن يقرأوا ما

---

١ - كربوتكن (١٨٤٢ - ١٩٢١) روسي من قادة الحركة الفوضوية من كتبه « العلم الحديث والفوضوية » و « العون المشترك » ص . ح .

تقوله عنها جرمين جرير Germaine Greer في كتابها « الانثـى الخصية » The Female Eunuch .

فهؤلاء جميعا قد يعتريهم بعد القراءة احساس مزعـج بأن عاداتهم التفكيرية الراسخة قديمة العهد قد تزعزعت . ولا يخشى ، بعد القراءة من انتكاس في آرائهم ، ولكن هذه الآراء لن تبقـى بعد ذلك مبنية على تلك العادات التفكيرية التي ظلت طول الوقت راسخة لا شك فيها ، بل تصبح اثبت منطقيا وافضل ، نتيجة كونها اصبحت على صورة اقتناعات قائمة على العقل وصادرة عن عقول حرة . والذين يقفون تجاه ما يعتبرونه هداما في الكتابات والكلام موقفا يدعوهم الى وجوب طمس ذلك واخماده (ولـو بالقوة) لا يكون لهم من الايمان في معقولية الاعتقادات التي يحرصون هم على حمايتها الا الاقل من القليل .

وفي اللغة المتداولة عـادة بين النـاس كلمة يعبـر بها عن الاحساسات الممضة التي تعترينا حينما يعرض لنا شيء يتنافى مع عاداتنا الفكرية العزيزة علينا . فاننا نقول عندها اننا « صدمنا »، ونحن بطبيعة الحال نستنكر أن نصدم وكثير من الناس يؤمنـون بضرورة فرض الرقابة على الروايات القصصية والمسرحيات والكتب والافلام والاحاديث المذاعة ، لان هذا يقيهم من خطـر الاحساس بالصدمة . وهؤلاء يتجنبون قراءة الكتب او الذهـاب لمشـاهدة المسرحيات من النوع الذي يمكن أن يصيبهم بصدمة . ومن آبائنا من كان يحدب اشد الحدب على عاداته التفكيرية ويرعاها اشد الرعاية ، فكان يتجنب قراءة كتب للكاتب المسرحي (ابسـن) (Ibsen) أو لبرناردشو Bernard Shaw اعتقادا منه بأن هذين وأمثالهما انمـا كانوا يتقصدون صدمهم . ونحن لا نرى في هذه الكتابات ما يصدمنا في ظاهره بشكل خاص ، لانهم نجحوا في هدفهم ، وهو زعزعـة العادات التفكيرية عند الناس بنجاح كبير حتى أن الآراء التي اوحوا بها لم تعد مخيفة ، بل على العكس اصبحت مألوفة . وقد تتراءى

لنا بعض الآراء بأنها صحيحة وان البعض الاخر غير صحيح . ولكن الآراء جميعها تكون عند التفكير فيها والحديث عنها قد فقدت كل ازعاج كان لها عند الناس .

ونستطيع الحصول على مثل هذه الفائدة اذا قرانا ما يكتبه المؤلفون الاكثر تجديدا في عصرنا ، والذين يبدو ، للوهلة الاولى ، ان كل ما يعملونه هو أن يشككوا بشكل شاذ في ما يعرف كل انسان مدرك بانه صحيح . فهؤلاء المؤلفون يسدون الينا حسنة عظيمة (كالحسنة التي اسداها الى علم الطبيعة الكتاب والباحثون في الهندسة غير الاقليديسية) وذلك بانهم يحملوننا على التشكك في صحة معتقداتنا القديمة ويؤدون بنا الى حالة فكرية نستطيع معها اختيار ما هو صحيح من هذه المعتقدات ونبذ ما هو باطل ، وكل ذلك بحرية في الراي وعن فطانة ، وبذا تكون عقولنا مستعدة لرؤية حقائق جديدة غريبة وغير معتادة .ومعظم الناس ليسوا في حاجة الى ما يحميهم من الصدمة ، بل لعلهم في حاجة الى صدمات اشد واكثر بكثير مما يتعرضون اليه الان .

ولعل الحاجة الى ذلك اصبحت الان في راي العموم معترفا بها اكثر مما كانت حينما كتبت اول مرة كتابي هذا « التفكير المستقيم والتفكير الأعوج » . وعلى كل فان (السبعينات) شهدت كتابات من التي تحدث صدمات زادت كثيرا على ما كتب في أوائل هذا القرن . وتضمنت هذه الكتابات تشكيكا في العادات التفكيرية المقبولة بشكل عام وكان هذا التشكيك ابعد اثرا مما كان عليه الامر من قبل . ومع ذلك فان ما يجري الان هو ان الذين يولون اهمية كبيرة للطرق التفكيرية المعتادة الرتيبة لا يزالون يلحون على ضرورة ابقاء الرقابة على المنشورات والمؤلفات التي تكون شديدة في صدمها لاحساساتهم . ولا شك طبعا في وجود دعوى معقولة تسوغ منع نشر الكتابات من نوع معين ولكن هذه الدعوى يجب أن لا تقوم على اساس أن هذه الكتابات يجب منعها لانها تحدث صدمات في

بعض النفوس . والاساس الافضل للمنع هو أن يكون نشر هذه الكتابات ممنوعا لان قراءتها قد تؤدي الى تعليم الناس السلوك الشرير الخبيث . ولكنه ليس من السهل الحكم فيما اذا كانت قراءة كتاب معين ستؤدي او لا تؤدي الى هذا السلوك الشرير الخبيث . ويكون هذا الحكم على اسس تختلف عن الاسس التي يكون عليها الحكم في كتاب ما : هل هو مما تستفظعه النفوس ويسبب صدمة لها ام لا ؟ . وفي اللغة الانكلوسكسونية مثلا كلمتان من اربعة حروف تصف باحداهما المجامعة بين الرجل والمراة وبالاخرى قضاء الحاجة بالتغوط . وهاتان الكلمتان من جملة الكلمات التي يتحاشى الناس ذكرهما في المحادثات المؤدبة . وعلى ذلك فان استعمال هاتين الكلمتين في كتاب يصدم ولا شك بعض القراء ، ولكن لا يوجد من الاسباب ما يدعو الى الظن بأن سلوك هؤلاء قد يتاثر بالسوء من جراء هذه القراءة . بل ان حجة المنع تكون اقوى ضد الكتابات التي تعنى بوصف اعمال القسوة ، ويحتمل كثيرا أن تحدث قراءة هذه الكتابات آثارا سيئة تتبدى في سلوك القراء . والذي يصح من ذلك كله في رأيي هو أن فرض الرقابة على النشر والمطبوعات من أي نوع كان ، يجب ان يكون على أساس اعتبار واحد وهو تأثيرها في السلوك وليس على اعتبار أنها تحدث صدمة في النفوس عند بعض الناس .

وما تحدثه الكتابات من الصدمات في النفوس له قيمة ، ذلك ان لمعظم الناس عددا من العادات التفكيرية تنصبغ بها آراؤهم بشأن سلسلة من المشكلات ، التي يسوءهم تعريضها للشك . وهذا التعريض هو الذي يعطي لهذه الكتابات قيمة . ومن هذه المشكلات مثلا مسألة الزواج بزوجة واحدة هل هو نظام مرض أم هل يجب ادخال تغييرات عليه ؟ ، واذا اريد ادخال تغييرات فالى أي مدى تكون هذه التغييرات ، وكذلك مسألة السكان من حيث الزيادة والنقصان وهل يجب تحديد النسل ووضع حد أعلى لعدد أفراد العائلات بحيث تكون الزيادة العامة في السكان صفرا ؟ . وما هي

الاجراءات الاجتماعية التي يجب أن تعمل لاولئك الذين يعشقون امثالهم من ذكور أو اناث دون الجنس الاخر ؟ . وهل الافضل أن يكون معظم الثروة في بلد ما في أيدي افراد أم في يد الدولة ؟ وهل من المجد أن يقاتل الانسان ويموت في سبيل وطنه ؟ هذه كلها مسائل لو اثيرت بين الناس لاثارت عادات تفكيرية ملتبسة التباسا وثيقا بانفعالات نفسانية تحول دون بحثها بحثا معقولا مما يجعل اتخاذ قرار معقول بشأن كل منها امرا مستحيلا . ومع ذلك فانه ليس من مسألة ينبغي للناس العقلاء أن يحجموا عن التساؤل حولها ، ولا من فكرة مهما بلغت من شدة الافظاع يجب أن تمنعهم من النظر فيها نظرا مليا حتى يصلوا من خلال ذلك الى قرار حصيف حول ما اذا كانت صحيحة أم باطلة .

ويجب أن لا نظن اننا قد ننجو من خطر السجن الذي تفرضه علينا عاداتنا التفكيرية بمجرد التخلي عن عاداتنا التفكيرية القديمة ، التي هي في أكثرها عين عادات الناس الاخرين ، ثم الشروع في اتخاذ عادات تفكيرية جديدة . والذين لهم أفكار مغايرة للخط المستقيم المتبع في أمور الدين والتقاليد المتعارف عليها يواجهون خطرا مماثلا يغلق عقولهم في وجه الحقائق الجديدة بسبب استمرار اثر عاداتهم التفكيرية القديمة وهو خطر يعادل الخطر الذي يتعرض له الملتزمون بالخط المستقيم في أمور الدين والمتمسكون بالعرف والتقاليد . وهم أيضا في حاجة من وقت الى اخر الى صدمات تعتري عاداتهم التفكيرية وتخرجهم عنها حتى يظلوا محتفظين بالمرونة في عقولهم .

وثمة خطر اخر يتهدد الذين يرفضون عادات تفكيرية مقبولة لدى الجميع ، وهو أنهم قد يتربى عندهم عادة الكفر بالامور عنادا، لا لشيء الا لان الناس الاخرين يؤمنون بها . هؤلاء يصدق عليهم عند الجميع لقب « المشاكس » الذي يخالف حبا في الخلاف فقط . والمشاكس لا يكون خاليا من عادات تفكيرية خاصة ، ولكنه شخص كون لنفسه مجموعة من العادات التفكيرية التي يحتمل أن تكون

معيقة له بنفس القدر الذي يعيقه نظام عادات تفكيرية معاكس ، أي العادات التفكيرية التي تدفع المرء لقبول ما يعتقد به الناس بعامة .

ويجب ان يكون من اغراض التربية والتعليم احداث فضيلة في النفس نسميها « المرونة العقلية » ، وهي قدرة يمكن بواسطتها ارتياد سبل جديدة في التفكير والوصول الى افتراضات خارجة عن المألوف . ومعنى ذلك أنه يجب أن نكون قادرين على طرح عاداتنا التفكيرية القديمة جانبا . وكان العلماء الرياضيون معتادين عادات تفكيرية مبنية على الحقيقة الواقعية بأن مجموع زوايا المثلث الثلاث ، كما عهدوها دهرهم ، تساوي قائمتين ، ولكنهم مع ذلك كان بوسعهم أن يتساءلوا : « ولكن لو حدث انها لا تساوي قائمتين ، فماذا يكون الحال ؟ » وهذا معناه انه يجب علينا أن نحتفظ لانفسنا بالقدرة على التجريب الفكري . فنحن نرى في كل مكان اناسا يؤدون اعمالا في مقابل اجور أو رواتب . وهذا يحملنا على أن نتساءل : « هل هذا قانون ضروري لا محيص عنه أم انه يجوز ان نتصور مجتمعا بشكل ما يكون الحافز النقدي فيه غير مسيطر ويكون في الامكان مع ذلك انجاز العمل في العالم ؟ » وشبيه بذلك أننا معتادون على طراز معين من العلاقات الزوجية ، وقد ينبغي لنا أن نتساءل : « هل هذا الطراز هو الطراز الوحيد الممكن ؟ وهل في الامكان وجود علاقات زوجية أخرى تكون أفضل او أسوأ في تأمين الغايات من وجود الزواج ؟ » ومن ناحية الدين فقد نكون مثلا قد ربينا ونشأنا في حضن تقاليد دينية معينة تبدو لنا تعاليمها صحيحة وبينة لذاتها. ولكن قد يكون مع ذلك من المفيد ان نحاول تجربة التفكير في أن نعايش فكريا احد انظمة المعتقدات الدينية الاخرى وذلك لكي نستطيع قطع شوط نحو التمكن من رؤية تلك التعاليم بأعين المؤمنين بنظام المعتقدات الدينية الاخرى هذه وبقلوبهم ، ولا يلزم أن تكون هذه مجرد فرقة من الفرق الدينية المسيحية بل قد تكون خاصة بدين اخر كالبوذية أو الاسلام مثلا . فهذه التجربة قد لا

تبدل معتقداتنا ، ولكنها قد تغير من موقفنا تجاه الناس الاخرين الذين لهم معتقدات اخرى خلاف معتقداتنا .

وواضح أنه ليس من المستحب ولا من الممكن ان نتخلى عن جميع عاداتنا التفكيرية ، فتكون العادات التفكيرية في النفس أمر لا مفر منه كتكون العادات الجسمانية وكلتاهما في النفع سواء . ومع ذلك فان من الواجب علينا أن نكون على استعداد باستمرار لاعادة النظر في هذه العادات . لان بعض العادات التفكيرية التي خدمتنا في الماضي قد تكون عائقا أو مانعا لنا عن ادراك حقائق جديدة . ونحن مختلفون عن الحيوانات الادنى منا رقيا بأن لنا دماغا معقدا خصبا . وهذا الدماغ يجب أن يكون لنا اداة تعطينا مرونة وقدرة على التكيف في سلوكنا . واذا ما سمحنا لانفسنا بأن نكون صنائع لعاداتنا اصبحنا كالحيوانات الدنيا نعمل اوتوماتيكيا وبصورة ميكانيكية . ونكون بذلك قد سمحنا لادمغتنا بأن ينحط مستواها وتصبح عبارة عن ادوات ميكانيكية بدلا من ان تكون لدنة قابلة للتكيف كما قصد منها اصلا .

ويقول لنا علماء الفلك ان الجنس البشري لديه ملايين السنين الاخرى سيقضيها على هذه الكرة الارضية اذا هو لم يقض على نفسه بالحروب أو بتلويث البيئة أو بتكاثر السكان الى ما لا حد له . وليس لنا أمام هذا الخطر الداهم الاالمرونة العقلية التي تمكننا من الاستمرار في تكييف انفسنا بحيث نتلائم مع البيئة التي لا تفتأ عن التبدل والتغير .. ان عدم مرونة العقل قد تؤدي الى افناء الجنس البشري .





الفصل الحادي عشر

التحيز

ليست العادات التفكيرية هي العوامل الداخلية الوحيدة التي تجعلنا ميالين الى التفكير الاعوج . ففي الامر ايضا تحيزاتنا التي هي ، كما سبق لنا تعريفها ، طرق في التفكير تقررها سلفا قوى ودوافع انفعالية شديدة كالتي يكون مصدرها منافعنا الذاتية الخاصة أو ارتباطاتنا الاجتماعية . فهذه قد يكون مفعولها في نفوسنا انها تزهدنا في التفكير تفكيرا مستقيما حول موضوعات معينة . وقد يحدث أن يتوصل أحد الناس ، ولو لم يسمع قط شيئا عن قواعد المنطق ، الى نتائج صحيحة عن مقدار الاحتمال مثلا في ان يسحب ورقة سوداء من أوراق اللعب في مجموعة كاملة مقابل الاحتمال في أن يسحب ورقة حمراء منها اذا سحب سحبة واحدة لا على التعيين . في هذه الحالة تكون الحقائق الواقعية بسيطة ويكون التفكير المنطقي فيها سهلا . ولكن قد يحدث من الجهة الاخرى أن متبحرا مؤلفا لكتاب دراسي في علم المنطق قد يكون عاجزا تماما عن التوصل الى نتائج صحيحة في مسائل تلتبس التباسا وثيقا بمصالحه الخاصة ، كمسألة التبرير الاقتصادي لفرض نوع من الضرائب اذا كان يتأثر به تأثرا كبيرا .

والتعليم بذاته لا ينجينا من هذا العجز . ويجب أن يساعدنا على السلوك في اتجاه يؤدي الى التخلص من التحيز ، ولكنه في الواقع لا يفعل ذلك بحكم الضرورة . فغالبا ما يكون المتعلمون المثقفون مقيدين بتحيزاتهم كغيرهم من الناس . وقد يدافع الرجل

المتعلم المثقف عن تحيزاتة المنافية للمعقول بحجج في صور وقوالب منطقية صحيحة ، في حين أن الرجل غير المتعلم يدافع عنها بحجج غير منطقية . فالفرق هنا ، كما هو واضح ، لا يرجح كثيرا كفة الرجل المتعلم المثقف . ذلك ان قدرته على حشد الحجج صحيحة الصورة والقالب في الدفاع عن آخطائه قد يجعلها أكثر منعة ضد الحجج المعارضة لها وضد الخبرة المخالفة لها ، ولكن هذا التمكن من صناعة المنطق لايعطي آراءه المنافية للمعقول شيئا سوى انها تكون أصعب في التفنيد .

وبالطبع يمكنك ، ما دمت خاليا من التحيزات المماثلة لتحيزات هذا المتعلم المثقف ، ان ترى الخطأ في الاسباب التي يتخذها للتمسك بآرائه ، ولكن هذا الخطل يجوز كل الجواز ان لا يكون في شكل الحجج نفسها أو في صيغتها . وانما يجوز أن يكون في الاشياء التي يفترضها ويؤمن بصحتها ، أو يكون في اختيار أمور معينة من بين جميع الامور والاقتصار عليها دون غيرها في جدله . ولا اريد أن أوحي بقولي هذا ان التفكير الصحيح القائم على أمور واقعية صحيحة يمكن ان يؤدي الى الضلال ، وانما الذي اريد ان الح اليه هو أن السبل الى الضلال كثيرة ولا تقتصر على انعدام المنطق كما ان أكثر العقول منطقية اذا انساقت وراء الاهواء والتحيزات قد تضل السبيل نتيجة سلوكها سبيلا من هذه السبل الاخرى .

وفي الماضي كان عند الناس راي (لا يزال ساريا حتى الان) مفاده ان المجنون شخص مصاب بنقص في قوة الحكم عقليا على الامور . والمعروف انه لا يحتمل لاي قول عام عن المجانين ان يكون صادقا لان كلمة « الجنون » تعم أنواعا مختلفة عديدة من الاختلال العقلي . والنوع المقصود عموما من الاختلال العقلي في القول المذكور هو النوع الذي يصاب به شخص يقال له « المهووس بجنون الاضطهاد أو العظمة » (Paranoiac) وأكبر علامات الاختلال عنده هي انه يتمسك بفكرة سخيفة كالفكرة بأن روح ملك مات من زمن

قديم قد حلت أو بأن جماعة من الناس منهمكة الان في تدبير مكيدة للايقاع فيه . فهو بعبارة اخرى مصاب بالهوس او الضلال العقلي .

واذا لقينا فعلا رجلا مهووسا بجنون العظمة وناقشناه في أمر اعتقاده بأن روح نابليون او يوليوس قيصر أو المسيح قد حلت فيه فاننا لا نجد عنده انعداما في قوة المحاكمة أو المحاجة العقلية ، بل على العكس من ذلك نجد انه يحاج في القضايا التي ضل عقله حولها بعزم واصرار وان نوعية هذه المحاجة تتقرر بمدى تطوره الفكري . فاذا كان عقله منطقيا وذهنه حادا فانه في محاجته العقلية يكون منطقيا وحاد الذهن . ويكون في مقدوره استعمال المحاجة العقلية في الدفاع عن ضلاله العقلي كاستعماله اياها ، اذا كان عاقلا ، في الدفاع عن مواقفه المعقولة وعلى مستوى واحد . وقد يكون هذا المستوى رفيعا وقد يكون منحطا ، ولا غرابة في ذلك فان الاشخاص العاقلين كثيرا ما يكون لهم في محاجتهم العقلية مستوى منخفض . واذا سألنا رجلا من عرض الناس لماذا يعتقد بأن الارض كروية ، فانه قد يعطيك جملة من الاسباب الباطلة جدا . ولو سألنا رجلا مهووسا يعتقد أن الارض مسطحة لماذا يعتقد بذلك ، لاعطاك اسبابا أوجه من أسباب الشخص العادي ذلك أن ملكة المحاجة العقلية عنده قد شحذتها المناظرات المتواصلة مع الناس الاخرين الذين يؤمنون بالراي المتعارف عليه . ومع هذا كله فانه على خطأ والرجل من عرض الناس على حق وان كان منطقه باطلا أو قاصرا . فالرجل ذو الراي الخاطيء لا يكون بالضرورة الاسوا في الحجة العقلية .

وشبيه بذلك شخص مصاب بضلالات عقلية جنونية ، فقد لا يظهر عليه اي فقدان لملكة المحاجة العقلية . وعيبه الوحيد انه يتمسك بآراء فاسدة جدا ، وانه يستعين بهذه الملكة لدعم هذه الآراء الباطلة لتمحيصها وانتقادها . ومصدر هذه الآراء مناف للمعقول ، وهي تكون بمجموعها نوعا من التحيز يفوق الانواع الاخرى .

واذا كان احدنا يتمسك بمثل الآراء التي قلنا عنها أنها من قبيل التحيزات أو الاحكام بوحي الهوس والغرض ، فان جزءا من عقله مصاب بحالة كحالة الهوس الذي يصاب به المجنون . ونحن أيضا لا نألو جهدا في الدفاع عن اهوائنا وتحيزاتنا بالحاجة العقلية ، ولكن هذه الحاجات لا تكون السند الحقيقي لهذه الآراء ، وانما تكون قائمة على أسس اخرى (غالبا ما تكون مجانبة للعقل) .

واذاجادلنا بشكل مباشر ضد معتقدات باطلة لشخص ما مصاب بجنون الهوس العقلي ، فاننا نجد أن الحجج المناقضة التي ندلي بها تعجز عن زعزعة هذه المعتقدات عنده . لان هذه الحجج ليست موجهة ضد الاسباب الحقيقية لهذه المعتقدات . وقد يكون، مع ذلك ، لانجح الحجج عندنا نتيجة خطرة علينا ، لانها قد تفجر عنده غضبا عنيفا ، وسببه أن الانفعالات الكامنة في أعماق نفسه ، التي تحميها وتقيها بعناية بالغة جملة من الاعتقادات الباطلة ، تستمد الحماية من اللجوء الى الغضب والى استعمال العنف الجسماني اذا تعرضت مجموعة المعتقدات الو قائية الى خطر يهددها في أية صورة من الصور .

ويصدق هذا ، بقدر أقل من ذلك ، على آراء شخص عاقل تكون آراؤه مبنية على حاجاته العاطفية أو العملية . فهو لا يسمح ولا يرضى لهذه الآراء الضرورية لراحته الفكرية بأن تنقض أو تتهدد ، واذا شرعنا بحججنا في تهديدها فاننا بذلك نثير غضب هذا الشخص أو أننا ، على الاقل ، نسبب له ضيقا في الخلق . واذا هو بدأ في اظهار غضبه بدلا من استعمال المعارضة المعقولة ضد حججنا فهذا يتيح لنا فرصة يجب ان نبادر الى اغتنامها ، لان هذا علامة على أن معتقداته قد بدأت تضعف أمام حججنا .

واستعمالنا هذا لمظاهر غضب الخصم الناجم عن احساسه باننا اصبنا منه نقطة ضعف في حجته وسيلة مشروعة تماما أثناء محاجته . ولكن هناك في الجدال وسيلة اخرى غير شريفة تستعمل

في مجال غضب الخصم . وهي الحيلة التي غايتها تعمد اغضاب الخصم واثارة نفسه لكي يكون أقل مقدرة على المجادلة المتينة نتيجة حالة الغضب التي تعتوره بذلك في وضع أدعى الى التفوق عليه . واغضاب الخصم لهذا الغرض لا يكون فقط بالالحاح في الجدل على نقطة ضعيفة في حجته ، بل أيضا باتخاذ موقف مؤذ لشعوره أو فيه سفه أو وقاحة كالاستهزاء بأمور له بها تعلق عاطفي شديد أو كاستعمال حيلة يغتاظ منها مثل ابداء اعتراضات لا تمت بصلة للموضوع .

ومعرفة حقيقة هذه الحيلة والقصد منها تهدينا الى العلاج الواضح لها . وأول شيء في هذا العلاج هو اننا يجب أن نكون دوما مصرين على أن لا نغضب لأي شيء اثناء الجدال ، وأن نحتفظ دائما بهدوء الطبع لان خصمنا مهما كان مثيرا لغيظنا فان السبيل الافضل للتغلب عليه هو تمالك النفس وكبح جماح الغضب . واذا شعرنا ببوادر الغضب تتزاحم في نفسنا للظهور ، فان هذا يجب ان يكون اشارة لان نكون اكثر لطفا وأدبا مع الخصم ، واكثر نقدا لموقفنا . وقد نستفيد من بداية الغضب ، اذا اخذ يتمخض في صدرنا ، في اكتشاف مواطن الضعف في وضعنا كما استفدنا منها في اكتشاف مواطن الضعف في وضع خصمنا .

وللتعبير بصورة مختصرة عن تأثير الهوى والتحيز في آرائنا نقول اننا نكون تحت هذا التأثير ميالين الى تصديق ما نرغب في تصديقه أو ما نحتاجه أن يكون صحيحا والى انكار ما نرغب في انكاره أو ما نحتاجه أن يكون باطلا . والدليل على أمر الرغبة هذه اننا لو راهنا على حصان في السباق ودفعنا اخر دينار لدينا وكان حظ الحصان في الفوز بنسبة واحد الى مئة فاننا نكون على ايمان مخلص بأن الحصان سيفوز ، ونكون على استعداد لمعارضة صديق معارضة حامية اذا ادعى أن الحصان لا يستطيع مجاراة غيره وأنه قد يأتي اخر حصان في الحلبة . وشبيه بذلك ما يجرى في نفس

شخص مصاب بمرض عضال فان هذا الشخص يرفض أن يصدق بأن مرضه يمكن أن يكون مميتا ، وذلك لان له رغبة في البقاء على قيد الحياة ، وان هذه الرغبة تجعله ممتنعا عن قبول البينة الطبية على ان شفاءه غير محتمل .

وقد يحدث احيانا ان يتضح لدينا كيفية نشوء الانفعالات النفسانية التي تقرر قبولنا بعض المقترحات وتقرر رفضنا للمقترحات الاخرى . فالانسان مثلا بصورة عامة يرغب في المال وفي الدعة ، ويرهب الخراب والموت ، ولذلك فانه يميل الى قبول المقترحات التي اذا صدقت تكون ضامنة للمال والدعة وامن العيش والى رفض المقترحات التي اذا صدقت تكون مصدر خطر عليه من هذه الناحية . ويتبين لنا أن هذا القانون عام اذا لاحظنا ان القاعدة عند جميع الناس تقريبا هي أن اصحاب الاملاك (ولو كانت قليلة) يقفون دوما في جانب الذين يريدون الابقاء على النظام الحاضر ، وأن الثوريين من الناس الذين يريدون قلب النظام يكونون على العموم من بين الذين لا ملك لهم .

وقد تكون العلاقة بين الانفعالات النفسانية والتحيزات احيانا أكثر غموضا . فقد يكون الانفعال القابع وراء التحيز بقية من الحياة العاطفية في أيام الطفولة الاولى . فمحبتنا للأب في الطفولة أو نقمتنا على تشديده في الطاعة والنظام قد تكون العلة التي تحملنا في كبرنا على احترام السلطة أو عصيانها. فأي من هذين العالمين يكون الاقوى من الاخر في الطفولة يكيف سلوكنا بحسبه ، بحيث نكون ملكيين أو جمهوريين ونكون محافظين أو ثوريين . وبالمثل فان تعاطفنا مع الشعوب المظلومة ، قد يكون منشؤه ما كان يراود مخيلتنا في الطفولة من خيال لغوث الأم في كربتها .

وسواء كانت العلاقة بين التحيز والانفعال الذي نتج عنه واضحة ، كما هي الحال في الآراء السياسية التي يقررها مبلغ ما للانسان من أملاك ، أو كانت غامضة كما هي الحال في علاقة الطفل

بابيه المبنية على ذلك ، فان ادراك هذه العلاقة من صاحب التحيز قد لا يكون ممكنا . ذلك أن من طبيعة التحيز الاساسية أن تكون هذه العلاقة غير واضحة . فالشخص المتحيز لا يعتقد الا ان آراءه التي يتمسك بها قائمة على أسس معقولة منطقية . ولو انــه فهم ان آراءه هذه مبنية على أسس منافية للمعقول وتحقق من ذلك ؛ لتلاشى عنده التحيز وانتفى الهوى . وقد يظل متمسكا بموقفــه السابق أو قد يتخلى عنه ، ولكنه على اي حال يكون قد جعل موقفه قائما على أسس غير الاسس التي كان قائما عليها حينما كــان متحيزا . وشدة التحيز تعتمد على الحقيقة الواقعة بأن المتحيز لا يستطيع أن يعي الاسس غير المعقولة التي بني عليها هذا التحيز . وكلما كان خفاء هذه الاسس عن وعيه اكثر ، كان تمسكه بتحيزه اشد واقوى .

ولنفرض ان رجلين كانا يتجادلان حول اقتراح لفرض ضريبة على راس مال الافراد اذا كان راس المال هذا فائضا على مبلــغ معين ، وكان احدهما ميالا الى فرض هذه الضريبة ، وكان يحتج في تحبيذ الضريبة بأسباب جميعها عامة ، ويتذرع بحجج منطقية من حيث تأثيرات الضريبة على الاقتصاد بشكل عام . اما خصمه فكان يحتج باحتداد ضد الضريبة ويستعمل في احتجاجه حججا عامــة ايضا مثل حجج الرجل الاول . ولم يجادل أحد منهما في القضية من حيث تأثير الضريبة فيه شخصيا وكيف يكون هذا التأثير في نظره ، وكان كل منهما يأبى ويرفض اي تلويح مفاده أن تأثير الضريبة في أحواله المالية كان عاملا في تقرير موقفه منها . ومع ذلك فاننا ونحن نشاهد ما يجري يجب أن لا نستغرب اذا علمنا أن الرجل الذي كان يدافع عن فرض الضريبة ليس له راس مال ، في حين أن الــذي كان يدافع ضد فرض الضريبة ينعم بدعة من العيش بسبب راس المال الذي ادخره او الذي ورثه . ولا يحتمل لنا أن نكون مبتعدين عن جادة الصواب اذا اعتبرنا أن هذه الامور الخاصة بما يملكه كل

من الرجلين هي من حيث التأثير في وجهة نظرهما وآرائهما أهم كثيرا من أية حجج منطقية كانا يدليان بها في جدالهما بشكل مقنع مؤثر .

أو قد نلقي نظرة على رسائل القراء في احدى الجرائد في اقتراح يتعلق باقامة مدرسة للقاصرين عقليا من الاولاد او اقامة مركز لشفاء مدمني المخدرات وذلك في حي شارع لندن Linden السكني .. ومعظم الرسائل التي تنتقد المشروع ولا تحبذه تستخطئه لاسباب عمومية ، منها ان حركة السيارات في طريق لندن Linden ذات خطر على أولاد المدارس او ان أولاد شارع لندن يشمئزون من رؤية الاولاد المعوقين جسميا او عقليا ، يمرون امام بيوتهم او ان من الخطر عليهم ان يكون في جوارهم مدمنو مخدرات . وقد تناصر الرسائل الاخرى هذا المشروع على اعتبار أنه نافع للاولاد المعوقين ذلك انه يمكنهم من تلقي تعليمهم في منطقة بهيجة او لان المحيط او البيئة في سكة لندن خير مكان لشفاء مدمني المخدرات . ولم يكن بين المراسلين من ذكر اسبابا شخصية ضد المشروع او معه ، تدفعه الى رفضه أو قبوله ، ولكن لما نظرنا في عناوين مرسلي الرسائل وجدنا أن معظم الذين عارضوا المشروع كانوا من بين السكان في شارع لندن أو في جوارها ، وأن الذين صوبوا المشروع كانوا من سكان الاحياء الاخرى . فيصح أن نفترض أن مقدار ما يتأثر به أي من الجانبين من الناحية الشخصية البحتة ويجعله ميالا الى هذا الراي أو ذاك له وزن ، في تقرير موقف أي من الجانبين من المشروع، أكبر من وزن الاعتبارات التي أبداها كل منهما في مجادلته محتجا بها . اي أن الاسباب المذكورة كانت من قبيل التعلل لستر السبب الحقيقي الشخصي .

ومع ذلك فيجب ان لا نخطيء في الافتراض بأنه اذا كانت الآراء مبنية خلافا للمعقول على الشهوات او الكراهات الشخصية وكانت

مدعوة بحجج ظاهرها معقول فان هذا يكون من قبيل الرياء في ابسط معانيه العادية . لان الشخص الذي يحمل مثل هذه الآراء يكون بشكل عام غير واع بأن الاساليب التي يبني عليها معتقداته هي اسباب منافية للمعقول ، بل انه يؤمن عن اخلاص بأن حججه معقولة وبأنها الاسس الحقيقية المعقولة لما يؤمن به . وقد تثور حفيظته مخلصا اذا ما قيل له ولو تلميحا ان آراءه في المسألة المتنازع عليها لها مساس باعتبارات شخصية تؤثر فيه . وسبب ذلك أن الاسس الحقيقية لما يعتقده ، تكون مخفية في سريرته لا يشعر بها شعورا مباشرا . ولذا فهو ليس مرائيا ، وانما يخادع نفسه فقط .

ودعم المعتقدات بهذه الصورة العقلية ان كانت الاسس منافية للمعقول يسمى « تخريجا » . أي تبريرا بالمعقول لغير المعقول . ويحدث عندما تسوقنا رغباتنا الى قبول معتقد ما ، ان تقوم عقولنا ببناء مجموعة من الاسباب المعقولة في الظاهر تحملنا على الظن بأن هذا المعتقد صحيح . ولكن المعتقد لا يكون مع ذلك من مستلزمات هذه الاسباب ، وانما تكون الاسباب من مستلزمات المعتقد . وهذه الاسباب ليست الا من قبيل التخريج أو التبرير المنتحل لمعتقد يكون التمسك به على أسس منافية للمعقول . وفي مقدور أي شخص له ذهن حاذق ان يخرج أي معتقد مهما كان المعتقد سخيفا . وفي استطاعة بعض الناس مثلا ان يقدموا من التخريجات ما يثبت في رايهم الاعتقاد بأن البريطانيين هم من نسل الاسباط العشرة الاسرائيلية المفقودة ، او ان بعضهم يقدمون التخريجات يثبتون بها في رأيهم اعتقادهم بأن الارض مسطحة وغير كروية ، كما ان الاخرين قد يدافعون عن صيد الثعالب وبانه مستحسن على اساس ان الثعالب انفسها تحب ان تصاد . ان مقدرة الكثير من الناس على ان يخادعوا انفسهم عن طريق التخريج ليست سوى حاجز هائل ضد التفكير المستقيم .

وتوجد معتقدات اخرى من هذا القبيل هي وسط بين أوهام المهووسين وتحيزات الاشخاص العاديين . والطريف في ذلك على سبيل المثال اعتقاد البعض بأن نسبة طول محيط الدائرة الى طول قطرها (وهي النسبة المرموز اليها بحرف ط) يمكن وضعها في كسر عادي صحيح أو في كسر عشري محدود . وقد الفت كتب وتأسست جمعيات لاثبات هذا الاعتقاد مع انه اعتقاد باطل يمكن التدليل على بطلانه بسهولة . ولا يكون أصحاب هذا الاعتقاد او امثاله عادة من المجانين ، وانما هم شاذون لانهم يتمسكون بهذه الآراء تمسكا يصل الى درجة غير معقولة من الوثوق والتحقق ، وانهم يبدون قناعة غير معهودة ضد تصديق اية بينة مناقضة . فهم من هذه الجهة اقرب شبها الى المهووسين ، وأبعد في الشبه عنهم من وجهة أخرى . ويمكن وصف هذه الافكار باسم « المتهاوسة » باستعمال هذه الصيغة للدلالة على أن الافكار شبيهة نوعا ما بالضلالات العقلية الهوسية .

ولو كانت الافكار الهوسية مقتصرة على موضوعات مثل كون الارض مسطحة وغير كروية أو مصير الاسباط العشرة الاسرائيلية أو مقدار النسبة (ط) فان هذه الافكار تبقى عديمة الاهمية من ناحية عملية في معيشة الانسان العادية ، وان بقيت مهمة من حيث أنها شاهد على قوة المعقول وتأثيره في عقل الانسان . وتصبح هذه الافكار خطيرة اذا هي اتخذت شكلا يشبه الهوس الذي يصيب الانسان اذا كان تحت وهم باطل بانه مضطهد . والصورة الممثلة لهذا النوع من الهوس تكون كما يلي : « هناك عدو مجهول » « س » وهذا العدو مكار قوي خبيث وغرضه القضاء على حضارتنا . فهو المسبب لادمان المخدرات وللشذوذ في العلاقات الجنسية ولاضرابات العمال ولتظاهرات الطلاب وللحروب . فهذا العدو «س» يمكن أن نجعله ينطبق على جماعة معروفة أو أن نتركه غامضا مبهما . فقد نجعله ينطبق على اليهود أو على الشيوعيين او على الماسونيين أو

اليسوعيين او اية مجموعة من هؤلاء . وطريقة العمل عند العدو «س» قد تكون مؤامرة واسعة المدى والانتشار وقد يكون « المتحررون » من أبناء شعبنا ضالعين في هذه المؤامرة دون وعي منهم بذلك .

ويحسن بمن يقدرون الطريقة العقلية في معالجة القضايا السياسية والعرقية والدينية آن يتعرفوا طبيعة الدعايات المهووسة عندما تعرض لهم . وهذا يقتضي شيئا من التفهم لطبيعة التفكير الهوسي حتى يكون هذا التفهم مفيدا . ولا نكران انه توجد حجج معقولة ضد نظام الحكم الشيوعي كما توجد حجج معقولة عند الطائفة البروتستانتية ضد تعاليم الكنيسة الكاثوليكية في روما . ولكن هذه الحجج المعقولة ليست مدفوعة بوحي من تفكير هوسي يزعم ان نظام الحكم الشيوعي او الكنيسة الكاثوليكية في روما يدبران مكيدة شيوعية او مكيدة بابوية . وواضح أن مثل هذا الزعم ناشيء عن تفكير أعوج يعوق سبيل الوصول الى تقدير عقلي للقضايا الحقيقية .

ولما كان من الصفات الاساسية للتحيز أن تخفى دوافعه عن وعي الانسان ، فانه يبدو من المستحيل علينا ان نصبح واعين لتحيزاتنا الخاصة . وهذا الوعي هو السبيل للتحرر من تأثير تلك التحيزات . ومن العبث أن نحاول التحرر من تأثير تحيزاتنا بالنظر في اعماق عقولنا آملين ان نتعرف بذلك على تلك التحيزات ؛ لان هذه المصادر تظل دوما مستورة عن وعينا وتظل تبدو لنا شبيهة تماما بالمعتقدات المعقولة . ولكن في الامكان التعرف على المصادر او الدوافع المذكورة بطريقة اخرى – وهي أن نستعمل في الحكم على آرائنا المعايير نفسها التي نستعملها في الحكم على الاخرين اذا رأينا تحيزا منهم . فنحن اذا رأينا ، مثلا ، شخصا له آراء تتطابق مع شهواته حق لنا الشك بأن هذه الآراء هي من قبيل التحيز ، وكذلك اذا شعرنا في أنفسنا أن لنا آراء تتطابق مع

شهواتنا الخاصة فانه ينبغي أن يكون عندنا أسباب وأسس جيدة، كالاسباب السالفة ، للشك بأن آراءنا هي من قبيل التحيز أيضا

واذا وجدنا في انفسنا اننا نغضب اذا تشكك احدهم في معتقدات عزيزة علينا فيجدر بنا ان نظن أن تلك المعتقدات هي من قبيل التحيز المبني على أسس غير عقلية وعلى خلاف المعقول ، تماما كما نظن نفس الشيء اذا وجدنا شخصا اخر سريع الغضب او التأذي دون سبب معقول اذا تعرضنا بالتشكك في راي له . ولا يحتمل لنا أن نفهم فهما كاملا المصادر أو الدوافع غير المعقولة التي نستمد منها آراءنا ، ولكن يمكننا الحصول على بعض المعرفة بها اذا تفحصنا آراءنا بالتمحيص والانتقاد والابتعاد عن الممايلة والتعاطف كما نتفحص آراء الاخرين .

ومما قد يكون افيد من ذلك هو ان نحتفظ بوعي عام لحقيقة الاحتمال بأن عندنا تحيزات ، وأن علينا ان نتخذ أساليب كفيلة بمقاومة تأثيرها . واحدى نتائج هذا التأثير مثلا اننا قد نغفل عن اكتشاف التفكير في كتابات او خطب تتفق مع موقفنا وتصادف هوى في نفوسنا ، مع أننا تحت هذا التأثير نفسه نكتشف في الحال الاخطاء في الكتابات أو الخطب التي لا تتوافق مع موقفنا وآرائنا . ولهذا فانه يجب في جميع الامور الملتبسة التباسا شديدا بانفعالاتنا النفسانية الخاصة (اما معها أو عليها) أن لا نثق بأحكامنا عليها وأن نوازن بين هذه الاحكام واحكام الاخرين الذين يخالفوننا . كما أن تحيزاتنا تنحو أيضا الى أن تجعلنا ننسى الحقائق الواقعية التي ليست في جانب آرائنا أو معارضة لها . ومما يذكر عن (داروين) انه كان يدون جميع المعلومات الواقعية والآراء المخالفة للنتائج التي توصل اليها ، ولو لم يفعل ذلك لنسيها . ولهذا فانه لما نشر في آخر الامر ما توصل اليه من نتائج لم يكن لدى معارضيه شيء تقريبا من الاعتراضات لم يكن هو قد سبق أن نظر فيه .

ويجب علينا بصورة خاصة ان نحترز من الاستشهاد بقول ما على انه بينة تدعم رايا نأخذ به اعتمادا على ذاكرتنا . واذكر مثلا انني اورد في كتاباتي ، في معرض التدليل والاستشهاد لدعم رايي حوادث كنت قراتها من قبل في كتب وكانت واضحـة جليـة في ذاكرتي . وعندما عدت للاصول ادق فيها قبل ارسال المخطوطـة الى المطبعة تبين لي أن الذاكرة قد خانتني وأن صيغة الاستشهاد من الذاكرة كانت تختلف عن الصيغة كما هي في الكتب حقيقة وأن الصيغة الاصلية لم تكن مواتية لوجهة النظر التي كنت اسـعى لتدعيمها . وهذا هو السبب في أن اغلاطا مهمة وجدت سبيلها على هذه الصورة الى كتب عدة لم يدرك مؤلفوها ادراكا كافيا كيف أن الذاكرة قد تحرف الحقائق بدافع التحيز والهوى .

وهناك عيب شائع في الجدال ناشيء عن تأثير التحيز ، ويستعمل عمدا احتيالا ومخادعة ، وقد يستعمل عن غير قصد اذا كان المتكلم مخدوعا في كلامه بتحيزاته . وهذه الحيلة هي استعمال حجة في سياق معين ، بينما لا يسمح باستعمالها في سياق اخر حيث تؤدي اذا استعملت فيه الى النتيجة المعاكسة . وهذا ما يسمى « بالجواب الخاص » أو الحجة المعقولة ظاهريا .

مثال ذلك ان عظيما من رجال الكنيسة كان يعمل جاهـدا في سبيل اعطاء افـراد الكهنوت العاديين زيـادات في مخصصاتهم الضئيلة ، ولكنه اخذ في الوقت نفسه يؤنب عمال المنجم لانهم كانوا يطالبون بزيادات في الاجور . وحجته في قوله الاخير أن « زيادة الاجور دينارا واحدا في الاسبوع لا تعني آن سعادة العمال زادت بقدر ذلك الدينار » . وشبيه بهذا أن الذين لهم دخل كبير لم يتعبوا في تحصيله يجاهرون بأن اعطاء المعونات المالية والفوائـد التامينية للعمال العاطلين عن العمل شيء مستنكر في نظرهم لانـه يقوض روح الاعتماد على النفس بين العمال .

ومن قبيل الجواب الخاص أو الحجة المعقولة ظاهريا ، ان بناء البوارج الحربية يعتبر في نظر البعض أحيانا انه مسوغ على اساس انه يوفر العمل للعمال ، وهذه حجة يمكن استعمالها ايضا في تسويغ بناء الطرق الزائدة عن الحاجة أو تسويغ جرف الرمل من مكان على شاطىء البحر الى مكان اخر من الشاطىء نفسه بقصد ايجاد العمل للعمال أو (كما قال برناردشو بشأن بناء الطرق الزائدة عن الحاجة). بقصد تشجيع سائقي السيارات على صدم من يستطيعون صدمه من السابلة . ولا يخفى انه يمكن أن تكون الحجج المعقولة متوافرة ضد اعطاء مساعدات مالية للعمال العاطلين أو ضد زيادة أجور العمال لتسويغ بناء المزيد من البوارج الحربية ولكن هذه الحجج لا يمكن قولها الا اذا كان المبدأ التي تقوم عليه ينطبق على قضايا اخرى معينة بمثل ما ينطبق على القضية المعروضة للبحث .

ولا يملك المرء الا أن يلاحظ في النزاعات التي تجري حول الاجور والمرتبات كيف أن المتنازعين باستمرار يستعملون بعض الحجج في سياق ما ويستعملون بعضها آخر في سياق آخر . فأرباب الصناعة مثلا يقاومون زيادة الاجور بحجة أن هذه الزيادة تؤدي الى التضخم المالي ، ولكنهم يسكتون عن هذه الحجة ولا يستعملونها في معارضة زيادة المرتبات لمديري الادارة مع العلم بأن هذه الزيادة تؤدي هي أيضا الى التضخم المالي في النتيجة . وقد يتذرع بعض الافراد الموسرين من الشعب بحجة مفادها أن الدخل الكبير الذي يرد اليهم شيء مستحسن لان : (ا) ما يدخرونه من هذا الدخل يزيد من رأس مال البلد ، أو لان (ب) المبلغ الذي ينفقونه ولو على الكماليات ينفع التجارة ويوفر العمل للعمال . وقد يتذرعون ايضا بحجة اخرى وهي أن ابقاء أجور العمال على سوية معتدلة لا زيادة فيها شيء ينبغي الاخذ به لان (ج) البلد لا يسعه أن يتحمل أعباء الاجور العالية وأن (د) الفقر والمشقة تخلق الرجولة وصلابة الخلق وان (ﻫ) دفع زيادة في الاجور يحمل العمال على انفاقه على كماليات لا تفيدهم كاقتناء أجهزة التلفزيون الملون . ولا يخفى أن في هذا جوابا

خاصا (تذكر فيه القضية بشكل يناسب غرض المتكلم لا الكشف عن الحقيقة) . فان (ب) و (هـ) غير منسقين معا لان احدهما لا يستقيم مع الاخر ، والقول بأن انفاق المال على الكماليات له قيمته من الناحية الاجتماعية اذا كان عن طبقة اجتماعية معينة وبانه مضر من الناحية الاجتماعية اذا كان عن طبقة اجتماعية اخرى هو قول من قبيل الجواب الخاص . و (أ) ايضا لا ينطبق على العمال العاملين بأيديهم في حين ان (ج) و (د) لا ينطبقان على الجماعة التي ينتمي اليها المتكلم . ويمكننا ، بعد ، أن نتساءل عما اذا كان الشخص الذي يجادل على هذه الصورة معتقدا بصحة (أ) و (هـ) اللذين يعنيان ضمنا أن الشيء الذي له اعظم فائدة اجتماعية هو المال الذي يدخر أو صحة (ب) الذي يعني ضمنا ان الصواب هو عدم انفاق المال في اي سبيل كان . ومن العبث التساؤل عما يعتقده هو . لانه يعتقد بصحة الدعويين ، وهو مستعد لاستعمال كل منهما في مناسبات مختلفة . والناس أكثر اقبالا مما يظن على تصديق الدعاوى التي لا يستقيم بعضها مع بعض .

والطريقة الواضحة لمعالجة « الجواب الخاص » هي حمل الشخص الذي يستعمل هذه الوسيلة على الاقرار اولا بالمبدأ العام الذي تقوم عليه حجته ثم حمله على تطبيق هذا المبدأ على القضايا الجزئية المعينة التي يتجاهلها هو . مثال ذلك ان خطيبا جماهيريا اعترض في احدى خطبه على تشريع مقترح غرضه اعطاء الاولاد الفقراء كمية من الحليب لتغذيتهم وكان محور اعتراضه هو أن اعطاء هذا الحليب لهم يؤدي الى صيرورة الامة مجموعة من الاشخاص مترهلي الاجسام والنفوس . وقد يحق للمرء أن يسأل هذا الخطيب هل جميع الاولاد الذين يتناولون كفايتهم من الحليب يصبحون حتما اشخاصا مترهلين جسما ونفسا . فاذا قال هو بذلك فقد يوجه اليه سؤال اخر : هل هو اذن مستعد لان يحرم اولاده من الحليب لكي يضمن أن لا يصبحوا مترهلين .

ولأجل الكشف عن طريقة الجواب الخاص ونقضها يجب التحرز من اتهام الخصم ظلما بانه يحاول توسيع مدعاه (كما جاء في الفصل الثالث) . ففي المثال الذي ذكرناه عن الخطيب والحليب لم يكن قصد الخطيب أن يدعي أن جميع الاولاد يصبحون في حقيقة الامر مترهلين بتناولهم الكفاية من الحليب ، وانما قد يقصد ان أولاد الفقراء وحدهم هم الذين يصبحون كذلك أو أن الاولاد يصبحون كذلك اذا كان الحليب على حساب المجتمع . ويجب ان نفسح أمامه المجال ليخبرنا عن ماهية مدعاه العام الذي يريد الدفاع عنه ، وبعد ذلك نشرع نحن في مهاجمة هذا المدعى اما عن طريق اختباره في قضايا جزئية وهو ما سيرفضه الخطيب واما بالتدليل على بطلان المدعى من طريق اخر .

وقد يغتنم الخطيب معرفته بأهواء مستمعيه وتحيزاتهم فيستعملها بمثل الطريقة تماما التي تستعمل فيها عاداتهم (كما أوضحنا آنفا) . وقد يستطيع مثلا ان يسهل على مستمعيه قبول احد المدعيات المشكوك في صحتها بأن يصوغ المدعى بصيغة تروق للمستمعين وتوافق اهواءهم أو بأن ياتي بهذا المدعى عقب سلسلة من المدعيات الاخرى التي يكون المستمعون قد حبذوها عن رغبة وحماسة بسبب أهوائهم . فهذه الوسائل في المخادعة والطرق التي تتبع لمعالجتها واحباط مفعولها هي في جوهرها نفس الوسائل والطرق التي وصفناها في الفصل المخصص للعادات التفكيرية . فلا حاجة الى بحثها هنا .

وهناك ، مع ذلك ، صورة معينة للوسيلة الاولى من هاتين الوسيلتين جديرة بأن تذكر هنا بتفصيل أوفى . ونعني بها هنا حيلة تتخذ في تحبيذ مسلك معين او شجبه على أساس ان هذا المسلك له آثار محمودة او سيئة في حياة السامعين .

ومعظم الدعايات السياسية قائمة على هذا النوع من الترغيب او التنفير . فالخطيب الذي يهاجم الانفاق على التسلح او على الخدمات

الاجتماعية يثير في نفوس السامعين استجابة فورية حينما يربط بين هذا الانفاق وزيادة الضرائب على المستمعين . وزيادة الضرائب بطبيعة الحال أمر يمس كل شخص ويعنى به كل فرد ، ومعنى هذه الزيادة هنا هو أنها تقلل من المال الموجود في أيدينا للانفاق على انفسنا وافراد أسرنا . وحتى لو أن الخطيب قدم لدعواه اساسا ليس فيه مساس بشخصه او بأشخاص مستمعيه مباشرة ، كأن يقول مثلا عن تأثير الضرائب العالية الضار في الصناعة فان رد الفعل الاقرب الى الاحتمال هو أن المستمعين وهم يسمعون هذا القول سيفكرون أول ما يفكرون بتأثير ذلك في أحوالهم . وهذا ، ما يغلب على الظن أن يكون ، السبب الحقيقي لنجاحه في حمل المستمعين على الاقتناع بمدعياته .

ومع ذلك فان كل مستمع من المستمعين ، اذا تمكن من فصل نفسه عاطفيا عن شؤنه ومصالحه الخاصة ، يستطيع ان يدرك ، بصدق ، ان تأثير زيادة الضريبة في أموره الخاصة ليس الاساس الحكيم الذي يجب أن يعتمد لتتقرر على أساسه سياسة الامة جمعاء . وهو أساس ليس له اهمية من وجهة نظر المجتمع ككل ، فانفاق عشرة دنانير تكون في جيب المستمع سواء كان الانفاق من المستمع نفسه او من الامة لا أهمية له من وجهة نظر الامة . لان انفاقها من طرف الامة سيوجد أعمالا للعمال بمثل ما يوجد انفاقها من طرف المستمع نفسه ، وعلى هذا فان السؤال المهم هو اي الطريقتين في الانفاق تكون الفضلى في توفير الصلاح والخير للعموم . والخطيب في واقع الامر لا يحاج في الامر على هذه الصورة ، ولو أنه سعى لاستمالة مستمعيه واستهوائهم عن طريق اثارة الحمية الوطنية وحملهم على قبول الانخفاض في مستواهم المعيشي على اعتبار أن هذا يعود بالفائدة على الامة جمعاء ، فسيكون مصير مسعاه ولا شك الاخفاق . ومن غرائب العاطفة الوطنية أن الناس يقتنعون

بسهولة بضرورة التضحية بأرواحهم في سبيل الوطن ولا يقتنعون بمثل تلك السهولة بالتضحية بما تحويه جيوبهم .

واذا ادرك الناس أن كثيرا من آرائهم ، وحتى من أساليبهم العقلية التي تدعم بها هذه الآراء ، لا تستند الا على أسس انفعالية معروفة أو غير معروفة ، فقد يساورهم الشك في كل شيء وقد يتساءلون هل في الامكان ان يصدقوا شيئا على الاطلاق . وهذا الشك سخيف بطبيعة الحال اذ انه لا بد من وجود آراء صحيحة حتى وان كانت هذه الآراء عن أمور تتفاعل في أنفسنا عنها مشاعر شديدة خاصة قد تحول دون تعرفنا اياها والكشف عن حقيقتها . وقد يكون هناك طريقة لتوزيع المال بين الناس احسن من غيرها ، ومما لا شك فيه أن التفكير الصحيح هو الذي يساعد على كشف تلك الطريقة الفضلى ، حتى مع أن امتلاك المرء لثروة أو عدم امتلاكها يحتمل ان يكون اقوى اثرا في تقرير راي المرء القاطع بشأن هذه الطريقة الفضلى . وشبيه بذلك ما يتعلق بمصير الانسان عند الموت فلا بد من جواب صحيح متطابق مع الواقع عما اذا كان الانسان عند الموت يختفي كما يختفي نور الشمعة حينما تنطفيء أو أنه يستمر في حالة وجود واع مخلدا الى الابد .

واتخاذ موقف الاستقلال الفكري أمر يمكن تربيته ، بل ويجب عمل ذلك اذا كنا نريد الوصول الى نتائج صحيحة حول امور تمسنا شخصيا . وأول خطوة في هذا السبيل هي الاعتراف بوجود الدوافع النفسانية المخالفة للمعقول التي تتفاعل في تفكيرنا ، ويجب متى عرفنا ذلك أن ندخل هذه الدوافع في الحسبان . فاذا كنا اغنياء مثلا ، وجب علينا أن نتجرد من التفكير عن مفهوم الغنى ما أمكن وأن نحاول ارغام أنفسنا على أن نفكر في حل المشكلات الاجتماعية على اسس عامة ، دون ان نسمح لانفسنا بأن نتاثر بما لدينا من رغبات قوية في إن يكون لنا دوما الراحة والدعة والمال والامن في العيش . ومهما كانت ظروفنا الخاصة ، فانه يجب علينا

أن نتعلم اتخاذ نفس الموقف تجاه احزان الغير ومسراتهم كالموقف الذي نتخذه نحو أحزاننا ومسراتنا نحن ، وأن نتخذ موقفا تجاه أحزاننا ومسراتنا كالموقف الذي نتخذه نحو احزان الغير ومسراتهم. وهذا بالطبع أمر شاق وهو في الفعل اشق منه في القول . ولهذا فانه يجب أن نكون على استعداد دوما لان نعترف بأن ما نتوصل اليه من نتائج بشأن ما هو افضل للغير قد يكون على استعداد دوما لان نعترف بأن ما نتوصل اليه من نتائج بشأن ما هو افضل للغير قد يكون بوحي من التفكير في ما هو افضل لنا . ولكننا نستطيع ، وهو واجب علينا ، أن نبذل قصارانا في سلخ انفسنا عن كل تعلق بالدوافع الانفعالية التي تؤثر في آرائنا . واول خطوة في سبيل هذا الاستقلال هي الوقوف على هذه الدوافع وتفهمها .

كما انه يجب علينا ان لا نرتكب الخطأ الاحمق المتمثل في الافتراض بأننا نستطيع الفصل في المنازعات الجدلية اذا نحن عزونا الى خصومنا في النزاع أنهم انما يجادلون من خلال اهوائهم وتحيزاتهم،أو اذا وصمنا حججهم التي يدافعون بها بأنها من قبيل التخريج أو التبرير المصطنع . ومن الناس من يرى على ما يظهر أن الحجة التي تكفي ضد الاشتراكية هي القول بأن الاشتراكية قائمة على الحسد . اي أن الذين ليس لهم مال أو ملك يحسدون الذين لهم مال وملك ، وبأن الحجج التي تقدم للدفاع عنها فكريا ما هي الا تخريج لهذا الحسد أو تبرير مصطنع له . وهذه الحجة ليست بأفضل من الحجة المقابلة وهي أن مذهب المحافظين ليس له من أساس سوى اصرار أصحاب المال والملك على الاحتفاظ بما في أيديهم منه ، وأن الحجج للدفاع فكريا عن ذلك المذهب ما هي الا من قبيل التخريج لهذا الاصرار أو التبرير المصطنع له . وواضح بطبيعة الحال أن رغبة الفقراء في الحصول على الثروة ورغبة الاغنياء في الابقاء على ثروتهم دافعان شديدان يعملان من وراء أفكار الفقراء في تحبيذ الاشتراكية وفي افكار الاغنياء في تحبيذ الراسمالية . واذا

ما حسبنا حساب قوة اي من هذين الدافعين في الميل نحو هذا الاتجاه أو ذاك ، حسبما حبتنا به الظروف ، فان الامر يبقى مع ذلك متوقفا على معرفة اي من النظامين هو الافضل . وهو سؤال لا يمكن الفصل فيه بمجرد التعرض لاهواء خصومنا في الجدال وتحيزاتهم . واي راي في هذا ، سواء كان صحيحا أو فاسدا ، يمكن أن يستمد قوته من دوافع منافية للمعقول .



الفصل الثاني عشر

التبسيط المسرف في التفكير

بحثنا حتى الان في عدد من طرق التفكير الاعوج ، وبعض هذه الطرق راجع الى صفة يتصف بها الكثير من مظاهر التفكير الانساني ، وهي جديرة بالنظر فيها هنا واطلاق اسم خاص عليها . ونحن نعرف ان المسائل المعقدة حول الحقائق الواقعية لا يمكن ايفاءها حقها من القول في معظم الحالات والاعراب عنهـا بكلمات قليلة . ومن ذلك مثلا ان اعطاء بيان عن تاثير الغذاء او المناخ في صحة الانسان او عن تأثير ضريبة نفرضها على سلعة مستوردة بهدف الحماية الجمركية لسلعة ننتجها ، أمر يحتاج الى كلمات عديدة والى تقييدات كثيرة وتمييزات بين حالات مختلفة بالاضافة الى وجود امور اخرى غير مؤكدة . وأكثر الناس لا يعنون بهذه التعقيدات ولا يأخذونها في الحسبان . وانما يشعرون بأنهم واقفون على القضية وقوفا تاما وانهم الموا بها الماما تاما اذا هم استطاعوا أن يضعوا مسألة معقدة كما ذكرنا في قالب بسيط حذفت منه جميع التعقيدات والتمييزات والامور غير المؤكدة . ومما يذكر في هـذا الشان ان من القضايا التي كانت تختلف حولها الآراء في أوائل هذا القرن في الانتخابات البرلمانية قضية فرض ضريبة على مختلف الواردات ، وهل يجب ان يشمل فرض هذه الضريبة الواردات من مواد الغذائية . ان المسالة الصعبة والمعقدة الخاصة بتأثير مثل هذه الضرائب على الاسعار والاجور كانت تلخص في عبارات مثل « الضريبة على المواد الغذائية معناها غلاء المواد الغذائية » ، من

ناحية وفي عبارة مثل « الاصلاح في التعريفة الجمركية معناه توفير العمل للجميع » ، من ناحية أخرى .

ولنطلق على هذا الاتجاه في التفكير اسم « التبسيط المسرف » . ونجده عادة منتشرا عند الناس اذا جوبهوا بأمر له تعقيدات فكرية . ومن ذلك مثلا نظرية (داوورن) المؤثرة فكريا حول نشوء الحياة وتطورها بما فيها من تعقيدات ، فقد اختزلها الناس الى نص بسيط بقولهم : « الانسان من نسل القردة » . وللعالم النفساني (فرويد) نظريته النفسية التحليلية في نشوء الدوافع الانفعالية عند الانسان ، وهي نظرية في غاية التعقيد والصعوبة . ولكن هذه النظرية مع ذلك في ظن اكثر الناس يمكن التعبير عنها تعبيرا وافيا بعبارة موجزة كالعبارة التالية : « الجنس كل شيء » . وعلى هذا الغرار كان تلخيص الفيزياء الرياضية الصعبة في نظرية (اينشتاين)في النسبية الى مجرد العبارة : « كل شيء نسبي » . ولخصت ايضا على هذه الصورة نتائج الابحاث العلمية في التغذية حول القيمة الغذائية لمختلف اصناف الاكل بعبارات مثل : « الحليب مغذ » و « المربى يحوي سعرات حرارية » و « الخس مملوء بالفيتامينات » .

والميل الى حذف التعقيدات من الاقوال قد يفسر لنا السبب في انتشار الطريقة التي بها يستعيض المتكلمون عن « بعض » بكلمة « كل » (كما ذكرنا في الفصل الثاني هنا) ويغفلون احيانا الحد الاوسط غير المستغرق (كما ذكرنا في الفصل الرابع) ويكونون سريعي القبول لتوسيع مدعى من المدعيات يكون القصد منه تثبيت حجة صاحب المدعى (كما ورد في الفصل الثاني) . ففي جميع هذه الحالات تكون الدعوى المستعاض بها عن غيرها اقل تعقيدا وتكون بذلك اقرب الى أن يقبلها من تعود على التفكير المبسط تبسيطا مسرفا .

ومن ذلك مثلا ان شخصا قد يعارض بحججه تعاليم (فرويد) . ويبدأ أول ما يبدأ فعلا بمهاجمة الراي الذي يقول بأن « الجنس كل شيء » فميله الخاص الى التفكير تفكيرا مبسطا جدا قد قاده على غير وعي منه الى استدراج خصمه بقصد ايقاعه في شرك التوسيع . ولكن قد يكون هذا الخصم أعرف بالامر فيحاول أن يبين بالتفصيل النشاطات التي يظن (فرويد) انها متعلقة بالجنس والنشاطات الاخرى التي ليست لها هذه العلاقة في نظر (فرويد) . على أن هذا مما لا يهتم به المتكلم الاول ، ولهذا يحاول أن يتفلت منه بالاحتجاج بأن خصمه « متبحر في العلم » او انه « عميق » جدا بالنسبة له ، ويقول عن نفسه أنه رجل بسيط وانه لا يمكن ان يقنعه شيء بأن الفن والحب الرومانسي والدين مردها جميعها الجنس فحسب ، وهو ما يتفق عليه عامة الناس تقريبا بأنه مذهب (فرويد) . وهكذا يتوارى وراء تفكيره المبسط جدا ، ويحتمي به ، ولو كان الجدال يجري أمام مستمعين فانه يضمن لنفسه تعاطف هؤلاء المستمعين معه ، لان خصمه يظهر في نظرهم بأنه انما يحاول أن يدخل في روعهم انه حاذق ماهر جدا وانه بحذلقته يجعل الجدل الجدي عقيما ومتعذرا بما يلقيه من شك وشبهة على كل شيء يعلم كل انسان أنه صحيح .

والذين يدخلون في مناظرات شعبية لهم شكوى جدية من خصومهم الذين لا يقبلون منهم الاقوال والقوالب الكلامية الصادرة عن تفكيرهم المبسط مع انها سارية بين الناس ومقبولة منهم ، وسبب شكواهم ان هذه الاقوال والقوالب هي في رايهم الفرضيات المتعارف عليها في المناقشات والمناظرات الشعبية . ومن الامثلة على هذه الامور المتعارف عليها القول بان « الاسكتلنديين قوم اصحاء الاجسام لانهم يربون على طعام العصيدة المصنوعة من الشوفان » ، او بان « الالمان هم السبب في كلتا الحربين العالميتين » ، او بان «النقاد المتازين حاولوا ان يثبتوا عدم صحة الكتاب المقدس» ، الا ان النتائج التي توصلوا اليها قد عفى عليها الزمن الآن ، و بان

« صلاح كل امة مبني على حرمة الحياة البيتية او المنزلية » او بأن « الاشتراكيين همهم أن يضعوا الناس جميعا في قوالب متماثلة على نمط واحد ممل » ـ هذه نماذج من القوالب التفكير المبسط جدا التي نقع عليها في أكثر الاحيان في الجرائد الشعبية . ولا يتسنى للجرائد أن تواصل مجادلاتها دون هذه الافكار المبسطة جدا ، وهي مما لا يمكن الاقرار به أو جحده لانها عبارة عن أقوال بسيطة تدور حول أمور لا يمكن البدء باظهار الحقيقة فيها دون الاتيان بكلام تفسيري يحتاج في بسطه الى عدة صفحات على الاقل .

ومما تتميز به الاقوال الصادرة عن التفكير المبسط تبسيطا مسرفا ان لها مزية علمية عظيمة الفائدة وهي انها تكون سهلة الحفظ في الذاكرة وسهلة الانتقال من شخص الى اخر وذلك بسبب العبارات الموجزة التي توضع عادة فيها . ولذا فانه من السهل أن يتعزز الايمان بها بقوة الايحاء (كما هو مذكور في الفصل التاسع من الكتاب) . وليس من ايحاء أقوى من الاقتناع بأن « كل واحد يقول كذا وكذا ... » واذكر انني لما كنت ساكنا في احدى القرى في اثناء موجة عارمة من وباء الانفلونزا كنت اسمع الناس يتناقلون اقوالا من بيت الى بيت ، وسمعت منها قولهم بأن « الموز مغذ جدا » . ولم تكن هذه الاقوال في حاجة الى اثبات ولا الى ذكر مصدر يوثق بحكمه ، لانها كانت تقبل على الفور من غير سؤال . وكنت أرى أن كل من سمع بهذا القول كان يذهب في الحال ويشتري الموز لاطعام المصابين بالانفلونزا اعتقادا بأن الموز يشفيهم . وكان في الامكان ادراج مواد غذائية اخرى في هذا الباب كالخس والفطر وفتات الخبز فيكون لها أيضا مثل تأثير الموز . وهذا الميل لتصديق أي قول مبسط يستغله أصحاب الاعلانات في قولهم مثلا : « مستحضر (سنوك) يشفي من الزكام » .

ويمكن أن نسمي العبارة من عبارات التفكير المبسط تبسيطا مسرفا اذا وضعت في قالب معين وتنوقلت من شخص الى آخر باسم

« شعار » . والشعار الناجح يكون له مفعول شديد في سلوك عدد كبير من الناس وفي توجيه هذا السلوك وجهة معينة . ولم يكن اي قول معقد من مبادي (روسو) ليستطيع احداث التاثير الثوري في فرنسا وتوجيه الثورة الفرنسية وجهتها المعروفة كما استطاع الشعار المشهور : « الحرية الاخاء المساواة » . ومع ذلك فان هذا الشعار ايضا شعار مبسط جداكمالايخفي. فهوعبارة عن قول بسيط ويحتاج فيه الى شرح وتوسيع معقدين حتى يكون له معنى دقيق مضبوط . واذا اردناتوسيعمعنى «الحرية» نحتاجالىان نشرحمفهوم الحرية ونبين اي الامور كان بوسع الناس عملها بحرية واي الامور لم تكن لهم حرية في عملها . ، وكذلك الحال مع « الاخاء » فاننا نحتاج الى ان نبين من هم الذين كان ينبغي ان يتآخى الناس معهم (باستثناء الأستقراطيين واعداء الوطن) . وكذلك مع « المساواة » فان الامر يقتضي ذكر الاشياء التييجب انتكون المساواة اساسها . ولو اننا فعلنا ذلك بالشرح والتبيين على هذه الصورة المطولة لفقد الشعار قوته واصبح لا يخدم الغرض الذي وضع من اجله ولخرج عن طبيعته اللازمة : وهي آن يكون قابلا لان يؤمن به الناس بتمامه وان يكون سهل التذكر وصالحا لأن يثير عددا كبيرا من الناس للقيام بعمل مماثل .

وليس استعمال الشعار كوسيلة للتاثير في سلوك الناس شيئا منافيا للعقل بحكم الضرورة . فان الزعيم الحاذق ، مهما كانت عملياته الفكرية معقدة ، يحتاج في الاعراب عن مذاهبه الى صيغ مبسطة من العبارات ، لكي تكون هذه مقبولة على نطاق واسع .

كما يعمد هذا الزعيم من اجل دفع جماهير الشعب الى عمل جماعي الى اختراع الشعارات الملائمة . وهذا ما جرى في الثورة الروسية ، ذلك ان الشعب في ذلك الوقت لم يوجه التوجيه المطلوب بفعل التبشير للناس باقوال (ماركس) الفلسفية وتعاليمه الدقيقة ، وانما كان التوجيه بشعار مشهور وهو « كل السلطة للسوفيت »

اي للمجالس الشيوعية . واستعمال شعار من هذا النوع على تلك الصورة يعد استعمالا مشروعـا ، لان الشعار يجوز استعمالـه لتحريك عزائم الشعب وحضه على العمل ولكن لا يجوز استعماله لاقناع الناس بصحته وصدقه .

ومن المحتمل انه لا يوجد تفسير واحد لميل الناس الى قبول الافكار المبسطة والاستجابة لها . فمن الاسباب في هذا الميل ، كون القضية معقدة يصعب الالمام بها والتمكن منها في عبارات تفسيرية مطولة ، وانه لا بد للعقل البشري ، مهما كان مرهفا ، من حد يقف عنده ولا يستطيع تخطيه في ادراك العبارات والتفسيرات المعقدة . ويصل معظم الناس هذا الحد ويقفون عنده في وقت مبكر . ولكن قبل ان يصلوا هذا الحد بزمن طويل يعتريهـم الكســل العقلـي فيجعلهم يميلون الى قبول غذاء عقلي اقل بكثير من حدود قدرتهم . ويسهل على الناس أن يقبلوا زعما بأن ريتشارد الثالث أو هتلـر كان كل منهما رجلا ذميما بدلا مـن تقييم محايد لجميع جوانـب خلقيهما . ولذلك فان مثل هذه الافكار المبسطة تصبح مقبولة بسبب الكسل العقلي أو عدم المبالاة وحتى من اناس يسهل عليهم أن يفكروا تفكيرا أعمق من ذلك واكثر تعقيدا لو انهم قصدوا بذل المجهود العقلي اللازم . وقد رأينا كيف أن الافكار المبسطة تبسيطا مسرفا الممثلـة في شعارات يمكن مـلاءمتها لاغـراض اجتماعية مفيـدة واستعمالها في هذا السبيل ، كما انها بهذا الشكل سهلة الحفظ والتذكر .

ويوجد سبب آخر ، أهم مـن هـذه الاسباب ، لاستعداد الناس لقبول الافكار الجاهزة . وهذا السبب هو ان التفكير المبسط يعطينا نهجا عمليا ثابتا نتبعه في معالجة مشكلاتنا اليومية في الحياة . فمن العادة مثلا في أثناء الحرب أن نظن بأعدائنا انهم شريرون تماما وغدارون وفتاكون ومجردون من الرحمة . وقد أعرب عن هـذه الفكرة في أثناء الحرب العالمية الثانية مراسل لاحدى الجرائد وذلك

بقوله : « لا يوجد شعب الماني مسكين عزيز ... وانما توجد امة متوحشة » ولو ان احدا من الناس في اثناء الحرب تجرأ فقال ولو تلميحا من ان افرادالعدو من همشريرونومنهم من هم صالحوناوان بعض الروايات المنتشرة عن فظائع العدو الوحشية قد يكون مبالغا فيها او ان العدو ابدى في مناسبات معروفة كرم اخلاق وحسن سلوك يتصف بالانسانية لكان نصيبه الريبة في اخلاصه لوطنه واتهامه بالتعاطف في سريرة نفسه مع قضية العدو .

والشعور بالاهانة الشديدة الذي يثور من مثل هذه الاقوال ناجم عن الحقيقة الواقعية بأن هذه الاستثناءات عن العدو تميل الى زعزعة الصورة المبسطة الراسخة بأن العدو شرير وكفى ، فيجب اذن محاربتها محاربة عنيفة . وربما ان الانسان في الحرب يكون عادة منهكما في الاعمال الحربيةوالقتالية ضد العدو، فان اي اعتقاد يشدد من الجهد الحربي ومن العزم على القتال بقوة هوة اعتقاد يفيد الغرض ، وعلى هذا ايضا فأن اي اعتقاد يضعف من المجهود الحربي هو اعتقاد غير مرغوب فيه . ومع ان سلوك العدو ، كسلوكنا نحن ، يكون عادة خليطا من الحسن والقبيح . ولكن ايماننا بالقبيح في سلوك العدو يشدد من عزائمنا في القتال في حين ان الايمان بالجانب الحسن من اخلاق العدو يوهن عزائمنا على القتال ، ويقلل من جهودنا في ذلك السبيل ولذلك فأننا نقبل الصورة المبسطة تبسيطا شديدا عن خبث العدو وسوء سلوكه لان هذه الصورة هي انفع ما يكون في شحذ الهمم على العمل وليس لانها صادقة .

وفي الحقيقة ، ان الامر هذا لا يقتصر على الحروب والثورات والانقلابات حيث يعزو الانسان جميع الصفات الكاملة الى الجانب الذي ينتمي اليه وحده ويعزو الشر كله الى العدو وحده . ويلاحظ هذا بشكل واضح في الانتخابات ، فالمرشحون من جانب ما هم في نظر مناصريهم امثلة كاملة من الفضائل الاهلية الخاصة والمدنية ، في حين ان المرشحين من جانب الآخر هم في نظر خصومهم

اشخاص تعوزهم الكفاية في العمل ولا يوثق بهم أن عهد اليهم بحمل فيه مسئولية . وفي هذه الحالات ايضا يكون العمل مطلوبا ، ويجب ان يكون هذا العمل بسيطا ولو ان التفكير الذي يقتضيه العمل يكون معقدا . ولا مفر بالطبع من التصويت اما لهذا الحزب او ذاك ، ولذلك فأن الانسان ، حتى يتجنب أن يجد نفسه في حالة شلل فكري ممثل في عدم القدرة على اتخاذ قرار او القيام بعمل ، يميل الى تكديس الحقائق والاعتبارات على أبسط وجه تحبيذا للجانب الذي اختاره أو انتقاصا من الجانب الآخر ، ولا سيما تلك الحقائق والاعتبارات التي تمس أخلاق الاشخاص المتنافسين الخاصة ، سواء كان هؤلاء من هذا الجانب أو ذاك .

ويتضح هذا الميل حتى في الالعاب الرياضية . فقد روى الكاتب س.أي مونتاجيو عن احد المناصرين لمنتخب كيمبردج في لعبة الكريكت انه قال لما نظر الى صورة فريق أوكسفورد الخصم : « انظر اليهم ! علامات الاستخذاء على وجوههم ! — وعيونهم المغولية الضيقة في وضع قبيح ! والشفاه الرقيقة التي لا تنم عن رحمة ! وبدون تعصب هل ترضى أن تلتقي بتلك الزمرة في مكان هادي في ليلة مظلمة ؟ » ولا يطلب في هذه الحالة اتخاذ عمل معين سوى مناصرة الفريق المرغوب فيه بكل حماس على اساس التحيز . وحتى هذا يمكن ان يعمل بأفضل وسيلة عن طريق استعمال الاحكام المبسطة تبسيطا شديدا . ومن الاسهل على الانسان ان يميل كل الميل الى جانب ما او ضد جانب آخر اذا كان في رأيه أن جميع الفضائل في هذا الجانب وان جميع الرذائل في الجانب آخر .

وفي القضايا التاريخية ايضا نقع في خطأ اسلوب التفكير هذا : فنقسم الفضائل والرذائل ، مثلا ، بين الكاثوليك والبروتستانت عند النظر في تاريخ الحروب الدينية والاضطهاد الديني ، كما نقسمها ايضا بين البيض والحمر في الثورة الروسية أو حتى بين

قبائل الهورون وقبائل الموهيكان حينما نقرا روايات فنيمور كوبر Fenimore Cooper عن الهنود الحمر .

وكان نظام التربية والتعليم في الماضي يغذي عند المتعلمين الميل الى التفكير المبسط جدا . ولنرجع بذاكرتنا مثلا الى جوانب من التاريخ الانكليزي لا تزال عالقة في الاذهان من ايام المدرسة . فحسب ما درسنا في المدرسة كان الملك يوحنا والملك ريتشارد الثالث ملكين « رديئين » وليس فقط من وجهة عامةبل وايضا من كل وجهة — وكانا غاشمين وقاسيين ومتجبرين في الحياة العامة ولم يكن لهما في حياتهماالخاصة ما يشفع لهما . اما الملك أدوارد الثالث والملك هنري الخامس فكانا مثال الملك الصالح . ولكننا نعرف الآن أن المؤرخين الاكفاء لا يؤيدون هذه الاحكام الصارمة ، وان كتب التاريخ المدرسية الحديثة ليس فيها من هذه الاحكام شيء . وحينما يقع نظرنا على ما يقوله المؤخون الذين يقصدون تبييض صفحة الملك ريتشارد الثالث نشعر اول ما نشعر بغضب وانفة وامتعاض . ونشعر أيضا أن هؤلاء انما يسعون للشهرة عن طريق المخالفة في امر يعرف صحته جميع الناس اتباعا لقاعدة « خالف تعرف » .

وحدث مثل هذا في موضوعات اخرى غير التاريخ . فقد تعلمنا أن شكسبير شاعر عظيم ، وحتى لو لم نتعلم ذلك فعلا فان القول بايجاز مفرط ، بأن جميع ما كتبه شكسبير كان عملا كاملا من جميع الوجوه ، يكون قد اوحي به . ثم ان الناس اذا رأوا شخصا يبحث بتدقيق لتمييز الغث من السمين في كتابات شكسبير فانهم يقابلونه بالغضب والاستنكار وذلك لان شكسبير عندهم معروف جيدا بانه « صالح » كما كان الملك ادوارد الثالث والملك هنري الخامس « صالحين » . فالذين انتقدوا شكسبير سببوا في نفوس الناس ازعاجا لانهم سعوا لزعزعة عادات راسخة من التفكير المبسط تبسيطا مسرفا .

ومهما بلغ القول من القسوة ولو بحق ، ضد التفكير المبسط تبسيطا مسرفا فان نفعه في اثارة النفوس للعمل امر مهم لا يجوز اغفاله . وتحمسنا للتفكير المستقيم يجب ان لا يعمينا عن حقيقة واقعة وهي ان ما نفعله اهم بكثير مما نفكر فيه . ويجب عند العمل أن نعمل عملا مجديا يكون له نتيجة ، حتى ولو كنا فطنين ماهرين بدرجة كافية بحيث نتجنب الوقوع في شرك التفكير المبسط . فأذا كنا لا نريد هذا التفكير المبسط ولا نقبل به كحافز للعمل ونستطيع الاستغناء عنه ، فاول ما يجب علينا في هذه الحالة ان نتعلم هو أن نعمل بكفاءة بدونه . والعمل من الاهمية بحيث يمكننا شجب كل تفكير باعتبار أنه تفكير أعوج واستنكار وسائله اذا كانت هذه الوسائل تحملنا على التملص من القيام بالعمل النافع او الضروري .

ومن طرق التفكير الشائعة ما يتجلى في أقوال مثل : « لكل جانب من الجانبين ما يؤكد حجته ، ولذلك فاني احجم عن اي عمل في الامر . » وهي اقوال تصدر عادةعن اناس بلغوا من الذكاء والفطنة حدا بعيدا بحيث انهم يتحاشون الوقوع في مهاوي التفكير المبسط . واحجامهم عن العمل هو بنفسه هوة لا تقل خطرا . ولنطلق على هذا الأحجام عبارة « الانسلاخ النظري او الاكاديمي عن الحياة العملية » .

وفي السياسة أمور كثيرة تقال في صالح مباديء المحافظة وكذلك امور كثيرة تقال في صالح مباديء الاحرار ومثل ذلك في صالح مباديء الاشتراكية . واذا اخذنا هذه الامور جميعها بعين الاعتبار فأننا قد نحجم عن عمل أي شيء جازم فلا نعطي مثلا صوتنا في الانتخاب لجانب دون اخر ونكون بهذا التردد أقل نفعا من جارنا الذي يجزم بعمل ما ولو لم تتضح هذه الامور جميعها لديه كما تتضح لدينا . ولا بد ان تسفر الانتخابات عن شيء ، واحجامنا عن اعطاء صوتنا قد يكون له تأثير في النتيجة غير مرغوب فيه بمثل التأثير الناتج عن تصويتنا لو صوتنا لاحد هذه الاحزاب الثلاثة :

واحجامنا عن التصويت لا يعفينا من واجبنا المطلوب منا وهو القيام بدور ما في الانتخابات ، وانما يحول هـذا الاحجام دون ان يكـون لهذا الدور اي نفع على الاطلاق .

وليس لنا مناص من ضرورة العمل ، واعتقادنا بأن جانب ما يقال في صالحه لا يعفينا من ضرورة العمل بقوة وبصورة مجدية في مناصرة الجانب الذي نرى أن له حججا اصح واصـدق فـي تأييد قضيته . ومثل ذلك اننا لو كنا نسوق سيارة فوق ساحة مكشوفة ممتدة واعترض سبيلنا عارض فان في الامكان تجنب هذا العارض بالتعريج اما الى اليسار واما الى اليمين . والحجج للاتجاه يمينا او يسارا يمكن ان تكون متساوية . ولكن لا بد لنا من أن نعمل واحدا من هذين الاتجاهين دون ان نسمح لحجج الآخر المتازة ان تؤثر في قرارنا وعملنا . ولكن لو اكتفينا بالقول ان لكل من الاتجاهين حججا تؤيده واستمررنا في السوق الى الامام فأننا نعرض انفسنا الى خطر محقق قد يؤدي الى قصم رقابنا .

وسبيل الحكمة هو ان نعمل باسلوب فعال ومخلص في الاتجاه الذي نرى او يبدو لنا انه الافضل . وادراكنا لما للجانب الآخـر من حجج تؤيده ينبغي ان يؤدي بنا الى التسامح في معاملة المعارضين لنا والى الاستعداد لاعادة النظر في العمل الذي قد نتخذه اذا ظهرت لنا بينات جديدة ، ولكن لا ينبغي ان يؤدي هذا الادراك بنا الـى الحيلولة دون عمل نتخذه في الاتجاه الذي قر رأينا عليه بعـد نظر ثاقب وتفكير هادىء . ويجب أن نسير سيرا وسطا بين دوامة التفكير المبسط وبين صخرة الانسلاخ النظري الاكاديمي عن الحياة العلمية .

ومع ان التفكير المبسط يكون له بعض النفع من نواحي علمية ، غير انه في واضح الامر قد يكون عقبة في سبيل التفكير المستقيم . فاذا كان الغرض الذي نرمي اليه هو الحقيقة وليس الكسل او خدمة المصلحة الخاصة فالواجب علينا ان لا نعنى بالتفكير المبسط ولا ان نتسامح به وحتى وان كان هذا التفكير نافعا بعض الشيء في تهيئة الدوافع

للعمل النشيط الحازم ، الا ان هناك معنى أوسع في ان له مخاطر شديدة في مجالات واسعة بسبب النتائج التي يتمخض عنها . وقد يكون التفكير المبسط عن أعدائنا في زمن الحرب باعثا على الجد والنشاط في القتال ، غير ان امتداد هذا النوع من التفكير ليشمل شعوب امم الاخرى زمن السلم وفي اثناء فترات التوتر الدولي هو الذي يحمل بين طياته بذور الحروب في المستقبل ويمكن ان يؤدي الى نكبات تعدو حد التصور . ولذا يمكننا القول انه لو كان التفكير السديد الذي يرينا بوضوح المشكلات بكل تعقيداتها ، سيجعل منا مقاتلين اسوأ زمن الحرب ، ومواطنين اقدر على حفظ السلام ، فأن العالم بأسره يكون الرابح بفضل ذلك .

والرجل المسئول في الدولة الذي يعتمد في خطبه العامة على التفكير المبسط تبسيطا مسرفا بان يبالغ في تبسيط القضايا ويستعمل ذلك في الشؤون الدولية (كأن يشير مثلا الى حكومة دولة اخرى بأنها جماعة من القتلة) يجب ان يحرم من منصبه ويعطي منصبا يكون التفكير المبسط فيه أدعى الى الفائدة . فيمكنه ، مثلا ان يجد لنفسه عملا ملائما بأن يعمل منظما لهتافات الجمهور المشاهد لمباراة كرة القدم لاحدى الجامعات الامريكية. ذلك ان التفكير المبسط في شئون الامة الداخلية لا يفضل هذا بكثير . ولا يستطيع احد ان يعرف مدى ما يسفر عنه التفكير المبسط من مشاحنات ومن جهد ضائع في مجال العلاقات بين الجنسين وفي اضرابات العمال وعملية الربح واختلاف الناس اذا تباينت الوان جلودهم .



الفصل الثالث عشر

مزالق القياس ومهاويه (١)

اذا اردنا تفسير شيء فيه اي تجريد معنوي ، فمن المفيد خلال ذلك أن نستعمل شاهدا ماديا يكون من شأنه ايضاح المعنى الذي نرمي اليه . فالعالم النفساني مثلا اذا حاول تفسير نظرية (فرويد) الخاصة بنشوء الاضطرابات العصبية من الميول الغريزية التي لا تجد لها منفذا مفيدا في سلوك الانسان ، فانه قد يقيس هذا الحال بحال البخار المحصور الذي ينبعث من شقوق في مرجل الآلة البخارية . وهذا التمثيل وسيلة شائعة نافعة في الشرح والتفسير . فالصورة الذهنية لشيء مادي محسوس قد تكون اسهل على الفهم من شرح أو تفسير بالكلمات .

والعالم النفساني الذي يعطي مثل هذا الشاهد قد يعتبر بأنه انما يقصد بذلك أن يعطي صورة ناطقة لشيء مجرد لكي يتمكن سامعوه من تفهم النظرية التي يحاول تفسيرها لهم ، وهو لا يقصد من هذا التشبيه أن يخلق في نفوس السامعين اقتناعا بصحة تلك النظرية . ولكن من ناحية أخرى اذا كان الشاهد او المحسوس لخلق الاقتناع بصحة ما يراد ايضاحه بهذا الشاهد ، او كان الشاهد بنفسه يتضمن تلك الحقيقة لكي يستعمل من اجل استنباط نتائج جديدة فان الشاهد لا يبقى مجرد شاهد وانما يتحول الى حجة عن طريق القياس او طريق البرهان بالقياس .

---

١ ـ (في اللغة قوالب في التعبير مفيدة ، ومنها التشبيه والاستعارة والمجاز اذا كان الأمر متعلقا بالبيان والبلاغة ، اما في المنطق فهي القياس) المترجم

ومن الأمثلة على استعمال القياس في الحجة ما اقترحه احد الكتاب في صفحة بريد القراء في احدى الصحف بأن رخاء البلد وازدهاره يمكن استعادتهما عن طريق احياء التجارة الداخلية وانعاشها . وبعث احد خصوم هذه الفكرة برسالة رد بها على رسالة ذلك الكاتب وقال فيها ساخرا ان الكلب لا يمكنه أن يعيش اذا اكتفى بأكل ذنبه . فالقياس هنا هو بين أن يعيش البلد على تجارته الداخلية وبين الكلب الذي يتغذى بلحم ذيله . ولننظر الآن مليا في هذا القياس فاذا فرضنا أن ذنب الكلب ينمو كلما قطمه الكلب ليأكل منه (وهو أمر قد يصح في بعض الحيوانات ولكنه لا يصح في الكلب) فان حالة هذا الكلب في أكله ذنب نفسه تتصف بشيء من الشبه ببلد يعيش على التجارة الداخلية . فالعناصر ، التي تبني الجسم وتمده بالطاقة ، في طعام الكلب هذا هي نظير البضائع الاستهلاكية في ذلك البلد . والمرادبهذه الحجة الاثبات بأن ذلك البلد لا يستطيع البقاء على ما هو عليه ما لم يستورد البضائع من الخارج .

واذا امعنا بالنظر في هذه الحجة رأينا فروقا بالغة الأهمية بين الحالتين مما يؤدي الى ابطال القياس ويفسده . ففي جسم الكلب استهلاك ضروري للمواد الغذائية لأن هذا الاستهلاك هو الذي يزود الكلب بالطاقة ، ولا يمكن بوجه من الوجوه تعويض هذه المواد الغذائية المستهلكة الا بتناول طعام أو مواد غذائية من خارج الجسم . ومن المستحيل على الكلب أن يولد حاجته من البروتينات والكاربوهيدرات من لا شيء أو من العدم ، فهو مقضي عليه بالموت جوعا . ولا شك في النهاية اذا لم يكن لديه شيء آخر يأكله مهما استمر ذنبه في النمو نموا سخيا . ولكن البضائع الاستهلاكية في بلد ما تختلف اختلافا جوهريا من هذه الوجهة عن ذلك . لان الثروة في البلد يمكن توليدها من غير حاجة الى ادخال اي شيء من الخارج ، ويكون هذا ممكنا اذا استعملت الأيدي العاملة استعمالا نافعا . فكلما زرع الانسان حبة وجنى منها سنبلة او كلما ضم قطعة من

المادة الى اخرى او قطعا بعضها الى بعض لصنع اداة او آلة ذات فائدة عملية فانه بذلك يكون قد زاد من البضائع والسلع في بلده . فالمعنى من كل ذلك أن الحجة ، التي استعملت علـى اساس اكل الكلب ذنبه ، حجـة فاسدة ناقصة . وقـد يكون موضع الجـدل صحيحا ، ولكن لا يمكن أثبات صحته بهذه الحجة .

وسمعت أيضا هجوما على الانتخابات الديمقراطية لأعضـاء البرلمان في بريطانيا او الكونغرس في ألولايات المتحدة على أساس ان الناس عامة قاصرون عن انتخاب من ينوب عنهم كالتلاميذ الذين لا قدرة لديهم على انتخاب معلميهم . وهنا ايضا قياس فاسـد بواضح الأمر . لأن الناس من رجال او نساء متى كبروا ينتظـر منهم أن يعرفوا الصفات المطلوبة في حاكم كفء في أعماله اكثر من معرفـة التلاميذ بالصفات المطلوبة في المعلم الصالح . ثم ان تسيير دفة الحكم في بلد ما يختلف في جوهره عن التعليم اختلافا شديدا ، بحيث أن طريقة اختيار الاشخاص اختيارا نافعا في الحالة الاولى قد لا تصلح في الحالة الأخرى . اضف الى ذلك أن اختيار الحكام بالطريقـة الانتخابية الديمقراطية تخدم جزئيا ضمان ان لا يكون حكم هؤلاء الحكام المختارين مبنيا على أساس المنفعة الشخصية ، وهذه مسألة ليس لها ما يشابهها في قضية اختيـار المعلمين . بل ان القياس بين الحالتين (اختيار المعلمين والنواب في مجلس الأمـة) يكاد يكون معدوما بحيث انه لا يمكن استنباط اية نتائج سليمة مـن قياس الحالة الأولى بالحالة الأخرى ، مهما كانت بعض الاعتراضات القوية الأخرى على الديمقراطية وجيهة ومعقولة .

وهذا لا يعني أن استعمال القياس في التفكير او في المخاطبة يكون خطأ بحكم الضرورة ، ولو أن الحجة التي تقوم على القياس تكون في حاجة دوما الى الفحص الناقد . والمعروف أن القياس طريقة يجري على هديها كثير من تفكيرنا ، فاننا مثلا اذا عرض لنـا وضع غير مألوف فان اول ما نفكر فيه هو أن نستحضر الى الذهن

وضعا مألوفا عندنا ومشابها له ونستعمله كشاهد أو مثال للاهتداء به في تعرفنا الوضع الجديد العارض . فما يجري في الوضع المألوف هو ما نتوقع أن يجري في الوضع غير المألوف ، ويكون هذا التوقع هو ما يحدث فعلا على العموم . فالقياس في مثل هذه الحالات يكون دليلا صالحا للسلوك الى حد معقول ، ولكن القياس مع ذلك يكون منطويا على الخطر اذا قلنا ان النتائج التي يشير اليها هي نتائج محققة ولم نقل انها ليست الا نتائج محتملة .

والجدل باستعمال القياس اذا اختزلنا التعبير عنه الى أوجز وجه ، يكون على هذه الصورة اذا كان شيء أو حادث (ن) له صفتان (أ) و (ب) موجودتان في شيء أو حادث آخر (م) فان الصفة (ج) التي هي في (م) يجب أن تكون في (ن) أيضا . فاذا كانت الحجة على هذه الصورة فانها لا تكون حجة مقنعة حقا .

فالأشياء التي قد تتشابه من بعض الوجوه قد تختلف من بعض الوجوه الاخرى . وقد تكون الصفتان (أ) و (ب) مما يتشابه به (ن) و (م) ، وتكون الصفة (ج) مما يختلفان به . فالحوت مثلا شبيه بالسمكة في شكله العام وجسمه وفي انه يعيش في الماء . فلو كنا لا نعلم عن الحوت أكثر من ذلك فاننا قد ننساق عند القياس الى ان نظن أن الحوت يشبه السمكة أيضا من وجهة التنفس ، مع أن الحوت يتنفس بالرئتين في حين أن السمك يتنفس بالخياشيم . ونشير بهذه المناسبة الى مبدأ معروف يستعمل في القياس الجدلي وهو اننا قد نكون على صواب اذا قايسنا بين صفات معينة في شيء ما موجودة في شيء آخر اذا كان منشأ الصفات في الجهتين واحدا وكان اساسه العلاقة السببية ، كصفة التنفس عند السمكة . فان العلاقة السببية هنا هي العيش في الماء . ولكن هذا المبدأ ايضا حتى في هذه الحالة لا ينجينا من الوقوع في الخطأ . لأن العلاقة السببية بين الحوت والسمكة واحدة ، ومع ذلك فالحوت والسمكة مختلفان .

والحجة بطريق القياس لا تكون قابلة دوما للتوسيع الى صيغة واضحة تعرف عند النظر اليها. فاذا قال احد الكتاب عن «الحد الماضي لذهن شخص ما » أو عن « حشو ذهن الولد بالمعلومات » فان في قوله هذا قياسا متضمنا ، وهو في الحالة الاولى بين الذهن والشيء الماضي كالموسى أو السيف وفي الحالة الثانية بين الذهن والوعاء كالصندوق أو الكيس . فهذا القياس الذي تدل عليه ، ضمنا لا تصريحا ، كلمات مختارة يعرف في علم البيان بالمجاز . وقد يستعمل المجاز لغاية واحدة وهي الاستشهاد والايضاح لا غير . ولكن الذي يستعمل المجاز (عن قصد أو غير قصد) اذا عمد الى استنباط نتائج جديدة على أساس القياس المضمر في الكلام فانه يستعمل القياس هنا بمثابة حجة له ولو كان ذلك بصيغة مستترة . فاذا قال قائل مثلا « ان الحد الماضي للذهن يصبح كليلا من تكرار الاستعمال » فانه بقوله هذا يكون قد استعمل المجاز أساسا لحجة مبنية على القياس . والحجة هذه كما هو واضح ، حجة ضعيفة ، لان الحجة المناقضة لها يمكن استنباطها من القياس بين عضلات الجسم والذهن ، فان هذه العضلات تصبح أكثر كفاءة في العمل اذا تكرر استعمالها وتضمر مع قلة الاستعمال .

وشبيه بهذا المجاز تشبيه عقل الطفل بوعاء يمكن ملؤه بالمعلومات والأفكار كما يملأ ابريق الحليب ، وينطوي هذا التشبيه على اعتبار آخر وهو أن العقل له سعة محدودة لاستيعاب الحقائق والافكار بمثل ما للابريق من سعة محدودة في استيعاب الحليب لا يستطيع أن يتعداها متى ملىء . ولكن النتيجة من هذا القول تعتمد على حجة مبنية على قياس كان اختياره اعتباطيا . وكان الاولى بنا أن ننظر مثلا الى عقل الولد على أنه نوع من تنظيم عدد الحقائق والافكار التي يحويها ازداد عدد الارتباطات المتاحة فيه لادخال حقائق وافكار جديدة . فهذا قياس مختلف ، ويؤدي الى نتيجة مختلفة أو تحصل منه نتائج عملية مختلفة . وقد نتساءل عن هذين القياسين ايهما اقرب للسداد وأيهما افضل دليل لنا في نظم التعليم

والتربية ؟ ولكن هذا التساؤل لا يمكن أعطاء الجواب الشافي له اذا اقتصرنا على فحص القياسين أنفسهما فحسب ، لأن الجواب لا يكتشف الا عن طريق البحث العلمي في كيفية اكتساب الولد للمعلم والمعرفة وفي الحقائق الخاصة بذلك . ولعل القياس الأصلي يكون مفيدا كدليل يهدينا الى ما يجب أن نبحث عنه في بحثنا العلمي ذاك ، واختيار الأقيسة عموما لا يمكن أن نتخذه دليلا مؤكدا يهدينا الى ما سنجده فيها .

وكون القياس دليلا مفيدا للتفكير يتبين من الدور الكبير الذي لعبه القياس في تطور العلوم . فكثير من التصورات التي اهتدت بها النظريات العلمية كانت في الأصل أقيسة منتزعة من أشياء مألوفة . فالذرات والالكترونات كان ينظر اليها فكريا كما لو انها جزيئات دقيقة من المادة الصلبة ، وكان ينظر الى الأثير كما لو انه سائل مرن له صفات خاصة . ولكن النجاح الذي أحرزه علم الفيزياء في استعمال هذه التصورات والاستفادة بها في بناء جملة من العلوم متسق بعضها مع بعض وفي التنبؤ بأمور تبين عند البحث العلمي فيما بعد أنها صحيحة ، أدى الى الوثوق خطأ بالاقيسة التي كانت قد استعملت في ذلك . بل لقد أدى ذلك الى اغفال الحقيقة الواقعية بأن تلك المبادىء الميكانيكية لم تكن الا أقيسة لا غير وليست أوصافا مباشرة لحقائق طبيعية أو فيزيائية .

ومع هذا فقد تم الوصول الى نقطة فسدت الأقيسة عندها. فقد تبين أن للالكترونات خصائص تبعدها عن أن تكون عبارة عن كتل من المادة مهما كانت هذه الكتل صغيرة ودقيقة . ، وتبين أيضا ان كل الفضاء لو كان ممتلئا بالاثير لكان لهذه المادة خاصية التحرك والسكون معا بالنسبة الى الأرض وهي خاصية منافية للمعقول .

ولذلك فان النظريات العلمية الفيزيائية انصرفت عن استعمال مثل هذه الأقيسة المادية الملموسة وأخذت تعبر عن النظريات التي تضعها بمعادلات رياضية . ولكنها بعملها هذا ، اصبحت غير مفهومة

لدى معظم الناس . ، لأننا نشعر بأننا لا نفهم الشيء الا اذا فكرنا فيه على أساس ما نراه منه بأعيننا أو نتداوله بأيدينا ، أو بعبارة أخرى على القياس بما في العالم الخارج عن ذهننا من موجودات ذوات أحجام كبيرة بنسبة معقولة . غير ان مثل هذه الأقيسة لا تساعدنا على ادراك أو عقل نظام الفضاء الزمني ذى الأبعاد الأربعة (١) أو على الاحاطة بالأفكار الخاصة بميكانيكا الكم (٢) . وهكذا يتولد عندنا شعور بأنه لا مناص من أن نفكر بالذرات على انها قطع دقيقة من المادة او أن لا نفكر فيها على الاطلاق .

ان كون كثير من الأقيسة التي استعملت في أول عهد العلوم الفيزيائية قد أصبحت باطلة ، ليس معناه أن استعمال هذه الأقيسة كان خطأ أدى الى تأخير الأفكار الصحيحة في العلوم واعاقة نموها . بل ان استعمال تلك الأقيسة كمرشد للمشاهدة العلمية كان السبيل الى ايضاح المناحي التي كانت فيها تلك الأقيسة قاصرة وغير ملائمة . ولم يكن غير الذين ظلوا متشبثين بالأقيسة القديمة ، بعد أن تبين عدم صلاحيتها ، من أعاق نمو العلوم . ولم تكن الأقيسة في ذات حدها الا واسطة تقدم بها العلم ونما وتطور ، ولكنها على كل حال كانت واسطة وجب طرحها عندما ثبت أنها لم تعد نافعة .

ومن الأمثلة الجيدة على قياس علمي نافع النظرية الكالورية في الحرارة (٣) ، وهو قياس كان نافعا في أول الامر لتوجيه الأنظار والتوقعات ولكنه فيما بعد طرح جانبا بحكم الضرورة حالما ظهرت حقائق جديدة دلت على انه لم يعد صالحا . وكانت هذه النظرية تعلل ارتفاع حرارة الجسم بأنه ، في القياس ، مثل اضافة مادة الى مادة أخرى ، فكان يظن بحسب هذه النظرية أن مادة تسمى

---

١ — Four-dimensional Space-time System
٢ — Quantum Mechanics
٣ — The Caloric Theory Heat

(كالوريك) كانت تضاف الى جسم ما اذا سخن وتخرج منه اذا برد . والراي العلمي في الوقت الحاضر غير ذلك ، ولكنه يجب ان لا يحملنا هذا الراي على اعتبار تلك النظرية مجرد خطأ محض . ولا نكران أنها طريقة في التفسير اعانت على تقدم في فهم الحرارة ولو الى مدى معين . وادت كذلك الى التوقع بأن تسخين الجسم يؤدي الى ازدياد حجمه وازدياد حجم الجسم بالتسخين امر ثبت علميا (باستثناء بعض الحالات) ، ذلك أن الأجسام تزداد احجامها فعلا اذا سخنت . ولكن ازدياد وزن الجسم بالتسخين امر غير صحيح ، وعلى ذلك فانه اذا كانت السخونة أو الحرارة ناشئة بحسب تلك النظرية عن اضافة مادة (الكالوريك) ، فان هذه المادة ، حسب النظرية ، يجب ان تكون عديمة الوزن . وكان أول ظاهرة لفتت الأنظار وكانت مناقضة لتوقعات النظرية الكالورية في الحرارة هي ان المعادن اذا حولت الى برادة دقيقة كما يجري عند تشكيل (ماسورة) البندقية بتجويف قضيب فولاذي فان الذي يشاهد هو أن قدرا كبيرا جدا من الحرارة ينبعث عن ذلك . وقد يدعى في هذه الحالة بأن عملية تجويف (ماسورة) البندقية عملت على اعتصار الكالوريات من المعدن واخراجها منه ، غير ان لدينا عددا من الاعتبارات التي تجعل هذا المدعى لا يمكن الاخذ به لأنه غير صحيح . وكما يتضح هنا كان لا بد من ايجاد طريقة جديدة في التفكير حول المادة اذ أن ذلك تطلب ان يتخلى عن القياس بين الحرارة والمادة وان يستبدل بقياس جديد اعتبرت فيه الحرارة كحركة .

والنظرية الكالورية توضح المبدأ العام وهو ان الاقيسة قد تكون نافعة في توجيه الأنظار الى ما يجب البحث عنه من معلومات واقعية ، ولكنها لا تعتبر بينة قاطعة على حقيقة تلك المعلومات وماهيتها . واذا اعتبرنا ان القياس الذي ذكره كاتب في رسالته الى احدى الجرائد وشبه فيه اعتماد بلد من البلاد على التجارة الداخلية بالكلب الذي يأكل ذنبه لم يكن الا قياسا كدليل الى ما يحتمل ان

يصل اليه واقع الحال في ذلك البلد ، فانه يمكن أن يقبل به على أنه خطوة أولى نافعة في التفكير حول قضية تتضارب فيها الآراء . ولكن الخطوة التالية هي النظـر في هذا القياس هـل هو صالح ومناسب للاستعمال . وقد تبين في هذه الحالة أن القياس باطل وغير صالح ، ولذا يجب أن ينبذ كما نبذت النظرية الكالورية في الحرارة .. وادراك بطلان القياس وعدم صلاحه هو أيضا خطوة تقدمية نحو فهم المسألة المعروضة للبحث . وقد يخطر ببال أحدهم أن يأتي بقياس آخر أحسن من الاول ، وهذا القياس الجديد ايضا يجب أن يعامل المعاملة نفسها وان يفحص الفحص الكافي لمعرفة صلاحه أو عدمه . ويكون هذا الفحص كله جزءا من مناقشة مثمرة يمكن اجراؤها وقـد تؤدي الى احكام فهمنـا للمسألة المعروضة للبحث .

ويدلنا على أن استعمال القياس طريقة تؤدي الى تفكير مثمر ما جاء عنه في ثنايـا تاريخه . فقـد كان القياس يستعمل طريقة اساسية في المناقشات بين الحكماء في الصين القديمة . ومن ذلك ما قيل عن احد هؤلاء الحكماء واسمـه (هوى تزو) Hui Tzu ان الملك طلب اليه في احدى المناسبات أن يقول أقوالا بسيطة خالية من القياس . فرد الحكيم على ذلك بقوله ان هذا متعذر عليه لأن التفسير بالضرورة هـو عملية لجعل المجهـول مفهوما بمقايسته بالمعلوم .

ومن الأمثلة على استعمال القياس عند الصينيين قديما مًا ورد في جدال جرى بـين منشيوس (Mencius) (1) وكاوتزو (Kao Tzu) عن الطبيعة البشرية هل هي في أساسها حسنة أم هي لا حسنة ولا سيئة . وقال كاوتزو : « الطبيعة البشرية لا يظهر منها

---

1 ـ منشيوس (٣٧٢ ـ ٢٨٩ ق.م) فيلسوف صيني كان من اتباع كونفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق.م) الحكيم الصيني ومؤسس الحركة الدينية المنسوبـة اليه . (ص . ح .) .

تفضيل للصالح أو للطالح كالماء الذي لا يظهر تفضيلا للشرق أو للغرب » فأجاب منشيوس : « حقا أن الماء لا يظهر تفضيلا للشرق أو للغرب ولكن هل يظهر الماء مثل عدم المبالاة هذا للارتفاع أو للانخفاض ؟ فلا يوجد انسان لا يكون غير صالح ، كما أنه لا يوجد ماء لا يجري الى الأسفل . »

ويلاحظ من هذا أن نتيجة معينة تستنبط من قياس ما لا يجوز أن تقبل بنفسها على أنها سبب كاف لقبول تلك النتيجة على أنها صحيحة . فقد بين منشيوس بوضوح أن قياسا آخر يختلف قليلا عن القياس الأول يؤدي الى نتيجة مختلفة تماما . وهذا دليل على أن الضرورة تقضي بفحص القياس المستعمل لمعرفة صلاحه أو فساده .

هذه أمثلة يكون القياس فيها نافعا في أغراض سائغة . ولكن استعمال القياس مع ذلك يصبح وسيلة عوجاء في الجدال اذا لم يكن القياس مستعملا كدليل يهدي الى ما هو متوقع وانما كدليل لاثبات النتيجة ، أو اذا لم ينظر في القياس الى مبلغ التوافق بينه وبين الحقائق الواقعة بل كما لو كان بنفسه برهانا على صدق النتيجة . ونسمي هذه الطريقة في الجدل «الحجة بالقياس وحده» . فاذا كان المراسل الصحفي الذي كان يقول بأن الكلب لا يمكنه أن يعيش على ذنبه اذا أكله يرى أن هذا القول برهان كاف على أن بلدا ما لا يمكن أن يعيش على التجارة الداخلية ، فانه في حجته هذه يستعمل خطأ طريقة « الحجة بالقياس وحده » . وقد يجوز أن تكون النتيجة بهذه الحجة نتيجة صادقة بحكم المصادفة لأن المتوقع الذي أثاره القياس قد يحدث ويتم . ومع ذلك فان واقع الأمر هو أن القياس ليس برهانا كافيا لاثبات النتيجة .

ومع أن الحجة من القياس وحده لا تكون في ظاهر الأمر أساسا صحيحا من الوجهة المنطقية يبنى عليه معتقد ما ، الا أنها كما يظهر وسيلة فعالة جدا في التأثير على المرء للوصول الى ذلك المعتقد .

وهذه الخاصية في استجلاب الاعتقاد وتسهيله من الأمور التـي يعنى بها علم النفس أكثر مما يعنى بها علم المنطق . ويظهر من الواقع ان القياس (سواء كان من النوع الجيد أو الناقص أو المنافي للعقل بداهة) من شأنه أن يحدث في النفس اقتناعا بصدق كل زعم يراد توكيده بنفس الطريقة الفورية وغير المنطقية التي يؤديها تكرار توكيد الزعم او اعتماد شعار جيد الصيغة . فلو أن خطيبا أدلى بحجة على هذا الشكل مثلا : « (أ) هي (ب) ، بمثل ما تكون (ج) هي (د) (حيث تكون (أ) و (ب) من الأمور المجمدة أو الخلافية في حين أن (ج) و (د) من الامور المحسوسة والمألوفة فان المستمعين يميلون الى التصديق بأن (أ) هي في الحقيقة (ب) من غير الانتباه الى مقدار التقارب في الشبه بين (أ) و (ب) من جهة وبين (ج) و (د) من جهة أخرى . واذا كانت العلاقة الرابطة بين (ج) و (د) مما يمكن تصوره في ذهن السامع ، فان سهولة هذا التصور تسهل أمر الاقتناع ولو أن هذا قد لا يكون من الأمور الضرورية لذلك ، وكون الحجة على غرار القياس يكفي وحده في اغلب الأحيان لاحداث القبول والتصديق على الفور .

ولو فرضنا ان محاضرا يحاضر عن طرق العلاج العقلي قال ان التفكير الصحيح يطرد المرض من الجسم كما يطـرد الشرطي اللص من البيت ، فان المستمعين يكونون أميل الى تصديق زعمه مما لو انه اكتفى بالقول بأن التفكير الصحيح يزيل المرض من الجسم ولم يشفع ذلك بالقياس عن الشرطي واللص . والقياس هنا ناقص جدا ، لأن الشبه بين التفكير الصحيح بانه يبعد المرض وبين الشرطي بانه يبعد اللص من البيت ليس فيه تقارب يكفي لخلق توقع معقول فكيف يكفي ليكـون برهانا . وقد يرد الخصم علـى ذلك بقوله ان التفكير وحده لا يقوى على ازالة المرض باكثر من أن يقوى حلم في المنام عن شرطي على ازالة لص من البيت . ومع ان القياس قاصر ، غير انه قد يكون فعلا في احداث القناعة لا لشيء الا لانه قياس . والصورة الذهنية عن شرطي يقبض على اللص في البيت ويخرجه

منه قد تكفي لاحداث التصديق بالقياس بأن التفكير الصحيح يزيل المرض .

ولا شك أن قدرة القياس هذه على احداث الاقتناع والتصديق هي السبب في ان التفكير التجريدي في أيام الانتخابات يستعاض عنه في معظم الحالات بتشبيهات أو مجازات تصويرية خلابة . ومن ذلك مثلا ان عبارات مثل المد المتدفق ، وحيوانات «الفظ» (١) وقد اخترقت اجسامها الرماح، والخصوم الذين يضبطون قلوعهم بحسب اتجاه الريح المناسب او يلقون بمراسيهم في الماء ، هي عبارات يستعاض بها عن طرق التفكير التي هي عادية وغير مثيرة بدرجات كبيرة في الأحوال أو الأوقات المعتادة . . ولا شك أن كل هذا يساعد على تكوين القناعة الانفعالية ولو أن هذه المجازات مشكوك في قدرتها باسلوب التفكير الذي تعتمده على أن تعمل عملا كبيرا في سبيل حل المشكلات الحقيقية في البلاد .

ومن ذلك أن خطيبا من حزب المحافظين عاب على زعيم حزب الأحرار انه « يسير بمركبه قريبا الى اقصى ما يستطيع ، من اتجاه ريح الاشتراكيين محاذرا فقط من أن يؤدي ذلك الى انقلاب مركبه الضعيف » (٢) واشارة الخطيب من حزب المحافظين الى الأحرار وتقرب مركبهم من أتجاه ريح الاشتراكيين ليس فيها من اساس

---

١ ـ حيوان ثديي بحري يشبه الفقمة .

٢ ـ واذا اعترض معترض بان السير بالمراكب قريبا جدا من اتجاه الريح لا يؤدي الى انقلاب المركب وانما يؤدي بها الى التوقف فانه بهذا الاعتراض يعرض نفسه الى التهمة بانه يستعمل اعتراضه وسيلة من وسائل« الروغان عن طريق اعتراض لا صلة له بالموضوع » (الفصل الثالث) وهو على كل شاهد على جهل الخطيب وعدم كفايته لانه وقع في زلة من هذا النوع باستعمال قياس او مجاز خطا . وان لم يرد الاعتراض على ذلك القول صراحة ، فانه لا يمكن أن يخفي على اذهان كثير من السامعين وهذا وحده يحول دون ايجاد الايمان والقناعة . وكان يحدث أن كثيرا من المرشحين للبرلمان في الدوائر الانتخابية المشهورة بصيد الاسماك كانوا يثيرون الضحك حينما يستعملون صورا مجازية سخيفة عن صيد الاسماك وسير المراكب في البحر ، بدلا من ان يخلقوا القناعة في نفوس السامعين . ومن قبيل هذا الخطا استعمال « المجاز المركب» بصورة

سوى مجرد الزعم والتوكيد بأن سياسة الأحرار هي انهم يسعون الى ان يقتربوا في سياسة حزبهم ما أمكنهم من الاشتراكيين . ولكن هذا الزعم عند وضعه على شكل مجاز يتضمن قياسا يحتمل له أن يؤدي الى الاقتناع بصحته اكثر من كونه القول البسيط العاري عن التنميق ، ويعود الفضل في حدوث الاقتناع الى استعمال القياس أو المجاز في ذلك الزعم . وصورة زعيم الأحرار يزحزح مركبه شيئا فشيئا حتى يجعله في مهب ريح الاشتراكيين صورة من شأنها أن تعلق في الذهن باستمرار وأن يتقبلها السامع على الفور . ولو أن الخطيب قال قوله بصيغة جاهرة تصريحية بدلا من أن يقوله في قالب القياس أو المجاز القياسي غير التصريحي لكان السامعون اقل ميلا الى تصديقه .

ومن شأن المجاز او القياس التصويري الواضح ان يخلق الاقتناع حتى ولو لم يكن لهذا الاقتناع اسس عقلية منطقية يستند اليها ، وهذا يسهل أمر نوع من الحجة العوجاء المشتطة يمكن أن نسميه باسم « الحجة على أساس القياس المتكلف » . وتكون هذه الحجة المتطرفة موضوعة في قالب قياسي او مجازي حينما لا يوجد شبه بين الشيئين المشبهين يكفي ولو ليكون أساسا للتوقع بأن هذين الشيئين يشبه احدهما الآخر من حيث الوجهة التي يدور البحث حولها . ويشبه ذلك مثلا ما قاله اسقف في العهد الفكتوري(1) من أن الفضيلة تنمو اذا سقيت بمطر الحرب الأحمر . فاذا أردنا أن نحكم على هذا القول حكما عقليا فحكمنا عليه يكون بأنه من قبيل الهراء مهما كان أثره في اقناع المستمعين بأن الفضيلة تتدعم وتنتشر بالحرب . ولا فرق لو أن هذا الأسقف قال ان الرذيلة تنمو اذا

= تكون اجزاء الصورة فيه لا يستقيم بعضها مع بعض ، كما جرى تقرير ورد في احدى الجرائد في الحرب العالمية الاولى ، فقد اشار هذا التقرير الى الفرق بين الجنود البريطانيين والجيش الالماني بقوله : « يقف الجنود البريطانيون ضد اعداد تفوقهم كثيرا من زبدة الجيش الالمانه على اتم اهبة واستعداد » .

١ ــ نسبة الى الملكة فيكتوريا التي حكمت بريطانيا من عام ١٨٣٧ الى عام ١٩٠١ (ص . ح) .

سقيت بمطر الحرب الأحمر أو ان الفضيلة تذوي اذا رشت بمحلول الحرب الاحمر الذي يجرد النبات من الاوراق . فهـذه الحجـة لايكاد يكون لها ما يبررها منطقيا ولذلك فان استعمالها وهي على هذا الحال انما هو لأن القائل يدرك (ولو عن غير قصد) بأن لهـا تأثيرا كغيرها من الأقيسة والمجازات في بعث القناعة أو التصديق في النفوس .

والحجة على أساس القياس المتكلف لا تختلف الا من حيث الدرجة عن الحجة على اساس القياس المحض ، ولكن من المناسب ان نعتبرهما على انهما نوعان من التفكير الأعوج لانهما يردان عادة في مناسبات مختلفة وتقضي الحاجة عند تفنيدهما الى طرق مختلفة . والحجج القائمة على القياس المحض ترد عادة في خـلال المباحثات الجدية ، وافضل طريقة لمعالجتها هي الطريقة التي استعملت من قبل للنظر في القياس متى يبطل واين يبطـل . والاقيسة المتكلفة توجد عادة في الخطب الشعبية العامة . وتكون هذه الأقيسة من عدم الاحكام الى حد واضح جدا ، فهي لا تثبت على المحك حينما تتعرض للانتقاد في مناقشة حرة . وتعتمد هذه الأقيسة في احداث تأثيرها على استعداد الذهن وتهيئته للقبول الفوري بالصورة المجازية الحية الواضحة أو العرض القياسي للموضوع المطروح للبحث . وعندما يجد الانسان نفسه مدفوعا الى التصديق أو الاعتقاد بتأثير قياس حسن السبك في التعبير كالقياس في موضوع الفضيلة اذا سقيت بمطر الحرب الأحمر فان أول ما يجب عليه أن يفعله هو ان يبـدأ بالنظر في هذا القياس من حيث قرب المطابقة فيه ومقدار ذلك . فاذا وجد الانسان أن المطابقة ليست بالقدر المطلوب فبامكانه ان يتحول الى اقيسة أخرى كالقياس أو المجاز في موضوع الرذيلة اذا سقيت بمطر الحرب الاحمر . واذا وجد ان قوة هـذه الاقيسة الأخرى تماثـل قوة القياس الأصلي ، فان طبيعة هـذه الوسيلة المستعملة تصبح مكشوفة لا ينخدع بها أحد ، وهنا يتلاشى مفعولها في حمل السامعين على الاعتقاد بما يراد لهم ان يعتقدوا به .

الفصل الرابع عشر

التفكير المستقيم

كنا الى الآن ننظر في التفكير الأعوج والجدل القائم على الغش. وهذا يؤدي بنا الى النظر في مسألة : ما هو نوع التفكير السليم والمنتج للمعرفة الحقيقية والى النظر ايضا في تناقل الافكار اذا استعمل لتنوير العقل وليس لمجرد الاقناع في الجدل . ان وقوفنا على الغش وطرق الاحتيال في الجدل ينبغي ان لا يؤدي بنا الى الظن بأن جميع طرق النقاش لا فائدة منها وبأنه لا يوجد للنقاش طريق ينتفع بها في الوقوف على الحقيقة بالتفكير السليم . وهذا شبيه بما يجري حينما نرسم الخرائط الملاحية للصخور الموجودة قرب سطح البحار التي تمخر عبابها السفن ، فان هذه الخرائط بتعيينها مواقع الصخور تدلنا في الوقت نفسه على المواقع التي يكون البحر فيها عميقا اي التي يمكن للسفن ان تمخرها آمنة ، وعلى هذا فان معرفة طرق الغش في الجدل ينبغي ان تساعدنا على أن يكون اشتراكنا في الجدل مفيدا وبالأساليب الصحيحة المفيدة .

ولا شيء يساعدنا أكثر ، في تقويم آرائنا وتصحيحها ، من الدخول في نقاش مع الغير ، ولكن هذا النقاش يجب ان يكون بطرق تختلف غاية الاختلاف عن طرق أصحاب الدعايات الذين همهم اقناع الخصوم بأية وسيلة مشروعة كانت أو غير مشروعة ، وعن طرق أهل الحوار والمساجلات الخطابية الذين يرون في النقاش انه كنوع من انواع الحرب لا هدف له الا النصر على العدو وليس التوصل الى توضيح الأمور في افكارهم وافكار الآخرين معا .

وقبل الشروع في اي نقاش حقيقي يجب استيفاء شرط واحد واضح وهو ان طرفي النقاش يجب ان يكون لديهما تواضع كاف بحيث انهما يعتبران آراءهما على انها احكام غير قطعية ، وأن يكون لديهما استعداد لتقبل التغيير في آرائهما بتأثير اقوال الغير . وهذا شرط يصعب على الكثيرين الوفاء به ، ولكن الذين يوفون به يجدون ان النقاش مع شخص آخر جدير بأن يؤدي في النتيجة الى تغيير معقول في الراي باحدى طريقتين : الأولى تكون بأن يعطي الخصم خصمه معلومات لم يكن يعرفها من قبل ، والثانية تكون بأن يبين الخصم لخصمه التناقضات الموجودة في آرائه التي يتمسك بها في ذلك الوقت .

ومن الامثلة الجيدة على الكيفية التي يجري فيها تبدل في الآراء بفضل نقاش يجد المتخاصمان فيه انفسهما امام تناقضات في آرائهما هو محاورات سقراط كما رواها أفلاطون . فطريقة سقراط في هذه المحاورات هي انه كان يسأل الشخص الآخر اسئلة عن الموضوع ، بصورة تجعله في اغلب الحالات ينطق في اول الأمر براي عام ، ثم يحمله على أن يقول أقوالا عن نقط معينة تفرعت من ذلك الرأي العام . وهناك يتضح أن الشخص المسئول لا يوافق على بعض تلك التفرعات الناجمة عن الراي العام الذي نطق به هو في اول الأمر ، ويجد نفسه مدعوا الى اعادة النظر في ذلك الراي العام الى ان يتوصل فيه الى صيغة لا تؤدي الا الى نتائج يقبلها ويوافق عليها . ومثال ذلك استنادا الى ما جاء في الصفحات الأولى من كتاب « الجمهورية » لافلاطون ، ان احد اصحاب سقراط ادلى برأي عن ماهية العدالة وقال انها « اعطاء كل انسان حقه » . وهنا اخذ سقراط يسأله عن ذلك وتمكن بالسؤال ان يقنع صاحبه ذاك بأن النظر الى العدالة بهذا الشكل يشتمل على امور اخرى ما كان صاحبه يعتقد بصحتها ، ومنها مثلا ان العدالة مفيدة فقط للمتحاربين ، أو تنفع فقط في الأشياء التي لا تستعمل ، وايضا أن

الرجل العادل ليس الا لصا بشكل ما . وبما أن هذه الأمور كانت متضمنة في القول بأن العدالة هي اعطاء كل انسان حقــه وبما أن صاحبه الذي قال هذا القول لم يكن يؤمن بصحة هذه الأمور التي تضمنها رأيه عن العدالة فان النتيجة التي دفع الى استنتاجها هي انه أصبح لا يؤمن حقيقة بالقول بأن العدالة هي اعطاء كل انسان حقــه .

فسقراط اذن يكون قد حمل صاحبه على تبديل رأيه بنتيجة النقاش ، وبفضل ما تبين له من أن رأيه كان يشتمل على شيء لم يكن هو يعتقد بصحته . فعدم الاعتقاد بصحة هذا الشيء المتضمن في الراي افســد الراي من أساســه واوجب تبديلــه او تعديله . فالنقاش في هذه الحالة كانت له قيمة في انه ادى الى تصويب الراي وتقويمه ، وذلك بالكشف عن تناقضات لم تكن في الحسبان . وهذا مثال على الكيفية التي يكون فيها النقاش عونا على التفكير المستقيم اذا كان النقاش بأمانــة واخلاص وكان المتناقشون قابلــين بتغيير افكارهم اذا اقتضى الأمــر . وقد يعترض معترض علــى طريقة سقراط هذه التي يؤتى بها مثالا على النقاش الحر السليم بقوله ان افلاطون جعل جميع المشتركين في النقاش يظهرون دوما بمظهــر المضلل المخطيء المستعد لتبديل الراي وتغييره وجعل سقراط يظهر في كل مرة بأنه على العكس من ذلك هو الراشد المصيب دوما الذي لا يغير رأيه ولا يبدله .

وقد يظن بأن جميع ما كان يعمله سقراط في ذلك النقاش كان يمكن أن يعمله أصحابه أنفسهم . والذي كان يعمله على ما يظهر هو الكشف عن التناقضات في افكارهــم ، اي انه بعبارة أخــرى كان يكشف لهم عن حقيقة افكارهم . ولو كان هذا كل ما كان يعمله سقراط لظهر أن بامكانهم هم ايضا أن يعملوه . وقد يكون هذا فعلا في مقدورهم ، الا انهم على الأغلب لا يفعلونه . وكم منا من يكون في ذهنه افكار متناقضة ، ومع ذلك لا يفطن الى المتناقضات فيها الا

بعد أن ينبهه اليها شخص آخر . وأذكر بهذه المناسبة انني كنت اقوم بتجربة على فريق من الناس لمعرفة درجة التناقض فيما لديهم من الأفكار . ووجهت اليهم أسئلة اجابوا عنها ، وتبين لي من الأجوبة تناقضا يبعث على الغرابة بل والدهشة . من ذلك مثلا أن عددا كبيرا منهم جزم بأن كل قول ورد في الكتاب المقدس كان صحيحا بحذافيره حرفيا ولكنهم في الوقت نفسه أنكروا صحة ما يقال في هذا الكتاب عن أن يونس خرج من بطن سمكة كبيرة حيا بعد ان ابتلعته . والسبب في هذا التناقض بين الموقفين لا يرجع الى انهم لم يكونوا يعرفون أن سمكة كبيرة ابتلعت يونس وخرج من جوفها حيا كما جاء في الكتاب المقدس ، بل لمجرد انهم كانوا قد كونوا موقفهم الاول منفصلا تماما عن موقفهم الثاني . وتمسكوا بالموقفين دون أن يربطوا احدهما بالآخر . فالمناقشة التي تجري بين شخصين قد تؤدي من خلال اعتراضات الشخص الآخر الى الربط بين الموقفين فيتضح التناقض بينهما ، ولا ينتظر من غير ذلك أن يتضح هذا التناقض لو ترك الأمر لتفكير الشخص وحده ، لأن الشخص نفسه لا يحب أن يظهر هذا التناقض في أفكاره فيصغر في عين نفسه ، فهو لذلك يتجنب اظهاره وذلك بحكم هذه الدوافع النفسانية .

فتناقل الافكار على هذه الصورة أو التفكير بهذا الاتجاه ، واحداث تغيير في الراي على اساس معقول نتيجة ذلك نسميه بالعملية الفكرية « المجدية » . ووضع الحجة في قالب حجة منطقية بحيث تكون حقا مجدية أمر ممكن ، ولكنه كثيرا ما يخفي على طلاب علم المنطق بسبب المثال التافه السخيف للحجة المنطقية المثالية الذي تورده كتب علم المنطق وقد ورثته عن أرسطو وهذا المثال المشهور هو :

كل الناس فانون
وسقراط انسان
اذن ، فسقراط فان .

ولا ننكر ان ارسطو كان مفكرا عظيما ، ولذلك فان وضعه لهذه الحجة بهذا القالب ، اذا أردنا أن نحسن الظن به ، لم يكن الا عملا متعجلا من وحي ساعته ، ولعله كان ينوي ان يضع الحجة في اليوم التالي في قالب افضل ، ولم يخطر بباله انه سينسى وان هذا القالب التافه السخيف ستحتفظ به الأيام مدة ألفي سنة ويكون عاملا على تحيير اذهان الطلاب وتشويشها . وهذا القالب في واضح الحال من النوع « غير المجدي » او « المنتج » لأن السامع اذا سمعه لا يشعر بانه اكتسب شيئا جديدا وهو لذلك لا يقول : « اذن سقراط فان ايضا . ما كنت اعرف ذلك من قبل » . ولم ينتج من هذه الحجة المنطقية الكاذبة معلومات جديدة ، لأنه لا يمكن لانسان أن يعرف ان جميع الناس فانون ولا يعرف في الوقت نفسه أن سقراط فان .

ويمكن ان يكون هناك تفكير مبني على نفس الطراز العام ولكنه ينتج فعلا معلومات جديدة . واشار فرتايمز (١) Wertheimer في هذا الصدد الى مثال على ذلك . لنفرض انني اريد اعطاء صوتي في الانتخابات ، وان في مكان اعطاء الأصوات اربع غرف لا ادري انا اي غرفة يفترض ان استعمل لاعطاء صوتي . وسالت شرطيا فسالني عن اسمي . فقلت له الاسم فقال : « جميع من يبدأ اسمهم بحرف (التاء) يصوتون في الغرفة (ج) » .

فهذه الحكاية يمكن وضعها في قالب حجة منطقية ، هكذا ..

جميع الذين تبدأ اسماؤهم بحرف (التاء) يصوتون في الغرفة (ج) اسمي يبدأ بحرف (التاء)

---

١ ـ فرتايمر فيلسوف وعالم نفساني ولد في براغ عام ١٨٨٠ وتوفي في نيويورك عام ١٩٤٣ وهو الذي وضع مفهوم سيكولوجية الجشطالط التي تحاول فحص الاشكال الكاملة المبنية للتجربة العقلية . كما لعب دورا نقديا في انشاء وتطوير هذه المدرسة التي اثرت كثيرا في الفكر السايكولوجي الحديث (ص . ح .)

لذلك أصوت في الغرفة (ج)

وهذه الصورة المنطقية تخالف صورة أرسطو بأنها تسفر فعلا عن معرفة جديدة . لأن النتيجة لم تكن معروفة من قبل ، لا للشرطي ولا للناخب . فالشرطي كان يعرف الحد الأول من القضية (وهو أن جميع الذين تبدأ اسماؤهم بحرف (التاء) ، يصوتون في الغرفة (ج) وكان صاحب الصوت يعرف الحد الثاني (وهو أن اسمه يبدأ بحرف (التاء)) ، ولكن نتج عن اجتماع الحدين ظهور النتيجة (وهي أنني أصوت في الغرفة (ج)) . وهذه الصورة مثال بسيط على التفكير المجدي . والمثال الذي يحتذى به أكثر من غيره في هذا الباب على التفكير المجدي يكون عند استعمال مبدأ عام في مقام الحد الأول من الحجة ، وقد يكون هذا المبدأ متفقا عليه بين الطرفين في النزاع . ثم يدلي أحد المتنازعين بحالة معينة من ذلك المبدأ تؤدي الى نتيجة لا يوافق عليها الآخر .

لنفرض مثلا أن (س) من الناس يدافع عن موقف المسالمة الذي لا يقبل به (ع) من الناس . ولكن لا (س) ولا (ع) يوافق على القتل ، ولا يجد (س) صعوبة في حمل (ع) على قبول مبدأ عام مفاده أن من الخطأ القضاء على حياة الانسان ، ويجعل (س) هذا المبدأ في مقام الحد الأول من الحجة . والفرق بين هذا الحد والحد في قضية سقراط اننا جميعا نقر بالمبادىء الاخلاقية العامة دون النظر في جميع الحالات الخاصة التي ينطبق عليها هذا المبدأ . وقد يوافق (ع) على المبدأ بأن القضاء على حياة الانسان خطيئة لانه يستفظع ذلك وينفر منه أو لانه يؤمن بالوصية الخامسة من الوصايا العشر وهي « لا تقتل » . ويقوم (س) بتطبيق هذا المبدأ العام المتفق عليه على حالة خاصة حينما يبين للخصم (ع) أن شن الحرب يقضي على حياة الإنسان ، وهذا لا اختلاف فيه ولا ينكره (ع) . ثم يستنتج (س) من هذين الحدين أن شن الحرب خطيئة ، وهذا حكم كان أنكره (ع) من قبل ، والآن لم يعد له مناص من قبوله لانه مستنبط من حدين كان قد وافق عليهما .

فقضية (س) يمكن وضعها في الصورة التالية :

القضاء على حياة الانسان خطيئة

الحرب تقضي على حياة الانسان

فالحرب خطيئة .

وهذه حجة مجدية على صورة منطقية سليمة ومحصلها بالنسبة الى (ع) قد يؤثر فيه على وجه من وجهين : فهو أولا قد يغير فكره من النتيجة ، ويوافق الآن على ان الحرب خطيئة متعللا بانه لم يفكر في الأمر قط على هذه الصورة من قبل ، واما ان يعدل (وهو الأرجح) في صيغة الموافقة على الحد الأول ويقول انه في الحقيقة لا يقبل بان كل قضاء على حياة الانسان خطيئة وانما يقبل بذلك اذا كان القضاء في ظروف وشروط معينة على الخصوص ، كأن يكون من هذه الظروف والشروط مثلا المنفعة الخاصة أو الأخذ بالثار ، ولكن القضاء يكون حقا اذا امرت به سلطة مشروعة ، كالقضاء ، عند الحكم بالاعدام ، أو في اثناء الحرب . وفي الحالتين يكون الجدل قد حقق شيئا وتغير راي (ع) بفضل ذلك .

وسواء كان الوصول الى التفكير المستقيم عن طريق النقاش مع اناس آخرين او من طريق التامل الشخصي الخاص فان الغرض على كل حال هو أن يكون هذا التفكير عاملا على اكثار العمل المتصف بالعقلانية والحس السليم . ونحن نحاول أن يكون تفكيرنا مستقيما لكي يكون عملنا صحيحا وتكون الأشياء التي نعملها هي الصواب . فالرقابة العلمية على التفكير التي تم الوصول اليها في ميادين الطب والهندسة والتي طبقت في كل شئون الحياة العملية هي مثال رائع على العمل المجدي الفعال حينما يكون وراءه والحافز اليه تفكير سليم .

والطريقة العلمية في دراسة الحقائق الواقعية وفي استعمال الكلمات مجردة من الانفعال وممحصة بالنقد لتكون أداة صالحة

للتعبير عن هذه الحقائق الواقعية وفهمها انما تبرهن على فائدتها وقيمتها لنا باعطائنا المعرفة المحققة والأساليب التي يعتمد عليها في التحكم بالبيئة التي نعيش فيها والسيطرة عليها . والغاية المثلى من التفكير المستقيم يجب ان تكون في تطبيق عادة التفكير العلمي في معالجة جميع القضايا والمشكلات العملية التي نواجهها وفي استبدال القوى العمياء التي تتحكم في مصائرنا بتحكمنا الواعي والذكي . وقد بدانا الآن باستخدام هذا التحكم الواعي في بعض الميادين . فالأمراض التي كانت في الزمان الماضي عبارة عن قوى غاشمة عمياء وكنا نحني الرؤوس اذعانـا لها (كما نذعـن الآن الزلازل والعواصف الرعدية والركود التجاري) ، بدىء الآن باخضاعها لتحكمنا الواعي بفضل ما جرى من تقدم في علم الطب .

وفي الميادين الأخرى ، وهي لا تقل اهمية عن صحة الجسم ، لا نزال على ما يظهر راضين بالبقاء تحت رحمة قوى غاشمة عمياء . فقد كنا ، مثلا ، حتى الحرب العالمية الأولى ، ندع الحروب تحدث كما تحدث الرعود والعواصف ، وكما لو أنها قوى في الطبيعة ليس للانسان عليها سيطرة او سلطان . ولم يكن ، الا بعد تأسيس عصبة الأمم ، بعد الحرب العالمية الأولى ، أن بدانا محاولة السيطرة علـى الحروب . وكانت هذه البداية قائمة على القليل من المعرفة الدقيقة بأسباب الحرب أو بالظروف الاجتماعية والنفسانية التي يمكن في ظلها للناس من امم مختلفة وبأهداف متباينة ان يصلوا الى اتفاق ، ولذلك فان هذه البداية اخفقت في منع الحرب العالمية الثانية . والمحاولة التي نجريها الآن في هذا السبيل عن طريق منظمة الأمـم المتحدة لا يظهر عليها في الوقت الحاضر انها ستؤدي الى نصيب اكبر من النجاح . وقد تكون النيات سليمة ، ولكن المشكل هو عدم وجود الفهم العلمي الضروري لعمليات التنافس الدولي وعدم وجود الرغبة الضرورية عند الأمم المعنية في التنازل عن شيء من سيادتها وهو أمر ضروري لجعل التعاون الدولي ممكنا . وقبل التمكن من اخضاع

الحروب للرقابة والسيطرة العلميين فانه لا بد لنا من الحصول ، اولا ، على معرفة ادق واحكم لمسببات هذه الحروب وللسبل التي تتمكن بها الجماعات من ثقافات مختلفة وبمصالح متغايرة من العمل معا بتعاون . كما انه لا بد لنا من ان نكون مستعدين كل الاستعداد لان نتخلى في أمور كثيرة عن مشاعرنا الوطنية وهو امر ضروري للتمكن من استعمال تلك المعرفة على وجه مجد مفيد .

ومعظم الناس الآن متفقون على انه من الخير لنا ان نطبق الفهم العلمي والرقابة العامية على مشكلات التنافس بين الدول ، ولكن قليلين هم الذين يؤمنون بتطبيق هذه المبادىء والطرق العلمية على عمليات الانتاج والتوزيع في بلادهم . ولا يعقل أن يكون الانسان راضيا عن الوضع الذي تكون فيه المنتجات والبضائع في بلد مامتوافرة توافرا مفرطا لدى عدد محدود من الناس ، بينما هي في الوقت نفسه شحيحة لدى اناس كثيرين آخرين لدرجة انهم لا يتلقون الا نصيبا ضئيلا من ثروة البلد ولا ينالهم في معيشتهم الا القوت الضروري لبقائهم على قيد الحياة والمأوى البسيط الذي يقيهم من عاديات الطبيعة ويحفظهم من الموت بفعل التعرض لها . وكانت عمليات الانتاج والتوزيع قبل قرن مضى متروكة تعبث بها القوى الغاشمة العمياء المتسببة عن التفاعل بين التاجر والمشتري وبين صاحب العمل والعامل . ولم يكد يوجد في ذلك الزمن الا القليل الاقل من محاولة التحكم الواعي بهذه القوى عن طريق الفهم العلمي. اما الآن فقد شرعنا في اعتبار هذه القوى بانها من الأمور التي يمكن فهمها ووضعها تحت السيطرة والرقابة ؛ ولو ان محاولة الفهم والسيطرة هذه تجد من يقاومها من اولئك الذين لا يزالون يفضلون اعتبار الفقر بانه شر من نفس نوع الشر الذي ينتمي اليه اعصار موجة مدية لا قبل لنا بها ولا نقوى على التصدي لها ، بدلا من اعتبار الفقر بانه شر مثل شر الوباء الذي يمكن التحكم به والسيطرة عليه بالوسائل العلمية .

ولا نزال بعيدين حتى الآن عن اعتماد الاتجاه العلمي في التفكير ، مع العزم والاصرار ، لمحاولة حل مشكلة الحرب او مشكلة الفقر . والرجل منا الذي يسعى الى اتخاذ موقف فكري علمي في تحليل نزاع ينشأ بين وطنه ووطن آخر قد يوصم بأنه « خائن » . ونحن اذا المعنا الى الفقر بقولنا انه شر يمكن الكشف عن أسبابه وازالتها مهما كلف الأمر ، فان الرد على قولنا هذا يكون احيانا ، حتى في هذه الايام ، بأن حياة المجتمعات البشرية تسير وفق قوانين اقتصادية ثابتة لا تتغير وبأنه من الخطر العبث بها .

وصحيح ولا شك القول بأن حياة المجتمعات البشرية تسير وفق قوانين اقتصادية بمثل المعنى الذي يقصد اذا قيل ان السيارة تسير طوع قوانين ميكانيكية أو اذا قيل ان جسم الانسان يخضع لقوانين فسيولوجية . ولكننا لا نكتفي بالقول ان السيارة يجب ان تسير طوع قوانين ميكانيكية ثم نتركها تسير كما تشاء . بل اننا على العكس من ذلك نسيرها بدولاب القيادة ونستعمل الصمام الحابس لكي نتمكن من جعل القوانين الميكانيكية المسيطرة عليها تسيرها بالطريقة التي نريد لها أن تسير بها. فنحن لا نرى خطرا في ان نتدخل على هذه الصورة في هذه القوانين ، وانما نتفادى الخطر ، في الحقيقة ، بفهمنا لهذه القوانين . ولكن اذا وجدنا داعيا يدفعنا للشعور بالخوف من التدخل في الأوضاع التي تعمل فيها القوانين الاقتصادية فانه ينبغي علينا أن نسأل أنفسنا : الا يكون الأمر أخطر كثيرا لو اننا تركنا هذه الأوضاع دون سيطرة رقابة مع ما نراه من آثار هذه الأوضاع الرهيبة ومن شقاء وبؤس في المجتمع البشري بسبب كون هذه الأوضاع قد أفلت زمامها .

ولا يبدو أن هناك سببا كافيا يدعو بأن نتخذ في مواجهة هذه المشكلات موقفا يختلف تمام الاختلاف عن الموقف الذي نتخذه في مواجهة الأمراض . فالطرق العلمية في معالجة الأمراض اخذت تدريجيا تصبح اسلوبا بديلا عن الطرق القديمة الأخرى ، وكان

من نتيجة هذا التجديد في التطبيق العلمي ان اصبح المرض في اكثر حالاته تحت سيطرتنا واصبحت هذه السيطرة يتسع ميدانها وتزداد يوما عن يـوم . واذا مرضنا وزارنا الطبيب فان هـذا الطبيب لا يشجعنا على ان نأمل بالشفاء نتيجة علاج عشوائي ، بل انه ينظـر أولا في سبب الحالة المرضية التي نحن فيها ـ هل هي بسبب التهاب أو اصابة جسمية أو افكار سوداوية ـ ثم يحاول ازالة هذا السبب. وهذا الطبيب لا يشك بأن اجسامنا في المرض وفي الصحة تخضع لقوانين فسيولوجية ، ولكن الطبيب لا يقنع فقط بقول ذلك دون ان يعمل شيئا حيال ذلك المرض . وانما يستخدم علمه في الطب أو في الجراحة أو في طرق علاجية أخرى حتى يعيد اجسامنا الى حالـة تعمل فيها القوانين الفسيولوجية من أجل صحتنا وتمامها لا ضدها.

ومن وراء الطريقة التي عالجنا بها الطبيب حشد كبير مـن الباحثين العلميين الذين كان لهم الفضل في جعل هذه الطريقة في العلاج ممكنة . وهؤلاء الباحثون لم يهاجموا الجراثيم ومفاسدها بعبارات انفعالية منمقة ، وانما عكفوا بدلا من ذلك علـى دراسة عادات هذه الجراثيم واطوار حياتها دراسة موضوعية . ولم يظهروا أي احترام او تفضيل لأي اسلوب من العلاج . فلم يشفع لعلاج (كالفصد مثلا) أنه قديم في الاستعمال . بل انهم تحدوا صحـة العادات الفكرية القديمة في علاج الأمراض تحديا جريئا ، ولم يقبلوا منها الا ما ثبت لهم انها صحيحة ذات قيمة ومنفعة .

وأمراضنا الخاصة بكل منا يمكن شفاؤها بالطرق العلمية . أما علل المجتمع البشري الكبير الذي ننتمي اليه فانها لا تشفى على هذا السبيل الا بعد ان نقبل في الشئون الدولية والشئون الوطنية بنفس المبدأ العلمي الأساسي الذي ذكرناه وهو ان السبيل الـى التخلص من الشر هو الكشف عن اسبابه بأساليب البحث العلمي ثم القضاء عليه بازالة تلك الاسباب .

ولعل المنظمات الدولية مثل منظمة الامم المتحدة ومثل مؤتمرات السلام لانهاء حروب معينةلا تمتلك الصفات الضرورية المطلوبة لمحاولة علمية لمنع الحروب او علاجها . فمناقشات الامم المتحدة أو مناقشات مؤتمر للسلام تعرض خطبا انفعالية طنانة يلقيها سياسيون برعوا في فن الخطابة الانفعالية . وقد تستعمل هذه البراعة بشكل مؤثر في التشهير بعدو فعلي أو عدو محتمل ، كما ان ممثلي هذا العدو يستعملون نفس الأسلوب في الرد . وهذه الطريقة في التشهير والرد على التشهير كفيلة بأن تزيد التوتر الدولي حدة لا أن تفرجه . والعمل على تفريج التوتر الدولي يعتبر نوعا من العلاج النفساني الاجتماعي (للمجتمع) . ذلك ان الطبيب النفساني يسعى لمساعدة مريضه على فهم نوع المرض الذي يعانيه وان يعينه على التحكم بمنابع الصراع في نفسه . وبنفس الأسلوب يجب ان يكون لمنظمات السلام نفس هذا الهدف وهو الكشف عن أسباب التوتر بين الأمم ومساعدة الجانبين على المضي قدما في سبيل التفاهم واصفاء النية فيما بينهما . وأعضاء هذه المنظمة في حاجة بالطبع الى تدريب يختلف تمام الاختلاف عن التدريب الذي يتلقاه الآن هؤلاء الأعضاء . فان هؤلاء الممثلين يحتاجون الى التدريب كباحثين علميين في العلاج النفسي الاجتماعي لا كسياسيين وخطباء مفوهين . على أن تكون غايتهم تفريج التوتر بين الأمم وليس الترويج لغايات الأمة أو الدولة التي ينتمون لها .

وهذا حلم يرجى تحقيقه في المستقبل ، والى ان يتم ذلك ، تبقى شئوننا الدولية شبيهة بحالة مسافرين في سيارة تسير بسرعة على سهل غير مخطط ومجهول المعالم والرسوم ، وفوق ذلك فان السائق رافع يده عن دولاب القيادة ، لأنه لا يعلم الى أين يتجه ولا كيف يكون الوصول الى المكان المطلوب ، لو عرفه . ولو اشرنا عليه بأن يضع يده على الدولاب وان يعمل الذكاء والفكر ليعرف أين يتجه في سيره وكيف يصل الى غايته فانه قد يلتفت الينا مبتسما ابتسامة

الأبله ويقول أن السيارة يجب أن تطيع القوانين الميكانيكية ويجب علينا نحن أن نضع ثقتنا بغرائزنا ولو كنا نتخبط في سيرنا . ونحن نعرف أن الأرض التي نسير فيها تتخللها الوديان والأراضي السبخة ، التي تنتشر فيها وعلى أسطحها بقايا سيارات عطبت وخربت في الزمن الماضي بسبب سيرها العشوائي . ونعرف أيضا أن التقدم التكنولوجي في أعمال التخريب والتدمير قد وصل حدا بحيث جعل اية حوادث تقع في المستقبل اشد اذى وامعانا في الدمار من الحوادث التي كانت تقع في الماضي . وفي بعض الأحيان تحدث اصطدامات بين السيارات ، ولكن مثل هذه الاصطدامات تملأ نفوس الناجين بعواطف سامية كما يعتقد أنها تساعد على انتاج فضائل غير عادية لدرجة أن احدا لا يلوم السائق على موت عدد من المسافرين والأضرار الجسيمة التي حاقت بالسيارة .

وفي بعض الأحيان يسمح للركاب بأن يقرروا من الذي سيحظى بتبوء مكان القيادة في السيارة ، ولكن لما كان الركاب لا يؤمنون بالذكاء والفطنة وسيلة لاختيار الطريق ولما كانت معرفتهم هم بالطريق المؤدية الى المكان المطلوب اقل من معرفة السائق ، ولما كان من المنتظر أن يتبوأ السائق الجديد مقعد القيادة دون أن يضع يده على الدولاب فان اللجوء في بعض الأحيان ، الى مثل هذا الشكل الظاهري من اشكال الديمقراطية في قيادة السيارة ليس له الا القليل الأقل من الأهمية من ناحية علمية .

ولكننا الآن بدأنا ندرك أن السيارة لا يمكن أن تساق بسلام وأمان الا اذا كانت تقاد بسيطرة واعية ذكية وأن الخبرة في سياقة السيارات قد برهنت على انه لا وجود لشيء نسميه غريزة تهدي المرء وهو يتعسف في سيره وأن التراخي في استعمال السيطرة الذكية لا يؤدي الا الى الكوارث التي لا مفر منها وأن السيارة التي تقرر مسارها القوانين الميكانيكية وحدها لا بد وأن تكون على طريق الهاوية .

ولا أحد يستطيع أن يعلم ما الذي سيحدث لتلك السيارة التي نسافر بها نحن . وأحسن حظ لنا في البقاء على قيد الحياة هو أن نطبق الفكر الذكي والرقابة الواعية على شئوننا القومية والشئون الدولية . وأحسن حظ لنا في حل مشكلات الحرب والفقر وزيادة السكان وتلويث البيئة هو أن نبحث في هذه المشكلات بروح علمية كالروح العلمية التي تعلمنا حديثا أن نحل بها مشكلات المرض ، مع اليقين بأن لكل معلول علة ولكل نتيجة سببا وبأن الاستقصاء أو البحث العلمي النزيه كفيل بأن يكشف النقاب عن هذه العلل والأسباب وبأن المجهود الذي يحدوه ويهديه الذكاء كفيل بازالة هذه العلل والأسباب .

ولا جرم أن القوى البعيدة عن العقل ما زالت قوية عاتية في هذا العالم ، وأن هناك قدرا كبيرا من القوة خلف التفكير الأعوج الذي يؤدي الى الاستعداد للحرب وفي خلق العداوات بين الشعوب اذا اختلفت الوان بشرتها او اديانها . ولكن كيف نستطيع مقاومة هذه القوى ؟ فهي ولا شك قوى شديدة عارمة ، والمحاولات التي ترمي الى تنمية روح التعقل والنزاهة غير العاطفية لا تزال كما يظهر ضعيفة لا تقوى على هذه القوى . وهذا صحيح ، ولكن الاستمرار باصرار كاف في اتخاذ موقف معقول نزيه غير عاطفي يتخذه عدد كاف من الناس من جميع البلاد ومن جميع الألوان والأديان في العالم يرجى منه أن يؤدي في النهاية الى هدم قوى الجهالة وعدم التعقل ولو بعد حين . ومما يدعو الى الامل في هذا الباب ان الحكام الدكتاتوريين أمثال هتلر ، وان بنوا سلطانهم على اللاعقلانية ، كانوا يخشون سطوة العقل والتعقل . فمع أن هتلر كان شديد النقمة على اليهود والشيوعيين الذين اعتبرهم أعداء نشطين أو فعالين ، فانه كان في الوقت نفسه شديد النقمة بما لا يقل عن ذلك على الألمان الذين كانوا يحاولون التفكير بموضوعية وواقعية في القضايا الاجتماعية والدولية ، والذين كان هو يسميهم بالأحرار . وقد

يكون هتلر محقا في أن يرى في نمو التعقل النزيه غير العاطفي تهديدا لسلطته القائمة على عدم التعقل لا يقل في مقداره عن التهديد الذي يكون مصدره المقاومة المسلحة العنيفة لهذه السلطة .

والديمقراطية المنتجة الفعالة لا تقوم الا على تعقل نزيه خال من الهوى . ويجب أن يتربى القائمون بهذه الديمقراطية على عدم الثقة بالكلام الانفعالي والارتياب في بقية بضاعة المستغلين للتفكير الأعوج ، ويجب أن لا يكون في نفوسهم أي احترام أو تقدير للنظم العتيقة أو عادات التفكير القديمة متى تبين أن هذه قد فات عليها الأوان ولم تعد صالحة لهذا الزمان . فاذا تحققت هذه الديمقراطية المستنيرة يقودها ويهديها التفكير العلمي والمعرفة العلمية فانها عندئذ تستطيع أن تأخذ بزمام الأمور وتضبطها بوعي وحكمة وتدبير وتشرف عن طريق ذلك على التطورات الاجتماعية ، فيكون لها أمل معقول كبير في التمكن من القضاء على الشرور التي تعد الآن في نظر الكثيرين بأنها مستعصية على الحل لا يقوى عليها شيء . وفي هذا ثورة تعود بالخير على الجميع ، ويمكن تحقيقها اذا عقد العزم على ذلك عدد كاف من المؤمنين به والراغبين فيه بشدة والحاف . ولكن هذه الثورة يجب أن يمهد لها بتغيير في تفكيرنا .



ملحق

قام المؤلف لايضاح ما ذهب اليه من اساليب التفكير الأعوج بتخيل محادثة خيالية بين ثلاثة رجال وضمن هذه المحادثة اكبر عدد ممكن من أساليب الغش في الحديث والمجادلة . وقد افترض أن المتجادلين الثلاثة يتمتعون بقدر جيد معقول من الذكاء والأمانة الفكرية وأنهم عندما يستخدمون أساليب التفكير الأعوج انما يفعلون ذلك عن غير قصد لا بهدف تسجيل نصر في الجدال .

وقد اختيرت الحجج لايضاح التفكير الأعوج ، حتى أن الحديث بمجموعه أسوأ كثيرا من نموذج عادي متوسط لنقاش يجري بعد العشاء . غير أن معظم الحجج تماثل تماما أو تشبه شكلا حججا يسمعها المرء من أناس اذكياء . غير أن المرء يلحظ ان المحادثة برمتها مليئة بالتفكير الأعوج . وقلما يسمع المرء جدلا او محادثة يخلوان تماما من اي تفكير مستقيم .. ولذا فان ما اورده المؤلف هنا يجعل من هذه المحادثة صورة رمزية (كاريكاتور) لابراز الأفكار التي أراد المؤلف ابرازها .. غير أن هذه الصورة الرمزية مؤلفة من أجزاء طبيعية وواقعية .

وقد اشار المؤلف عند كل تفكير اعوج وحجة فاسدة الى الخطل في التفكير وطبيعة الفساد في الحجة . ولكني آثرت أن اسقط هذه الاشارات لأترك للقارىء فرصة أن يكتشفها بنفسه ويكون ذلك بحد ذاته تطبيقا لما قراه القارىء في الكتاب .. وقد يضطر بعض القراء الى اعادة قراءة بعض فصول الكتاب وبذا تتضاعف الفائدة . كما قد يضطر هذا بعض القراء الى المشاركة في البحث عن الاعوجاج والخطل بنقاش مشترك وبذا تزداد بلورة فهم افكار المؤلف في الكتاب .

وقد يشجع هذا كله بعض القراء الآخرين على التمعن فيما

يقراون في الصحف او يستمعون من خطب وتسجيل نقاط الاعوجاج والخطل ومناقشتها .

المترجم

يشترك في المحادثة السيد ر . أ **(وهو رجل اعمال)** والسيد ا . ج **(وهو استاذ جامعي)** والسيد ر . د **(وهو رجل دين)** ، وكانوا قد اتموا العشاء في بيت السيد ر . أ .

ا . ج ــ ترى كيف ستكون نتيجة الانتخابات ؟

ر . ا ــ اني واثق ان الأمة عندها من العقل ما يجعلها تنجح وتنتخب حكومة رجال اعمال عاقلة رشيدة . فالذي تحتاجه البلاد هو فترة من الهدوء لتتمكن من استعادة ثرائها وازدهارها . هل تريد فنجانا آخر من القهوة يا أستاذ ؟ . . . . ان السيد ر . د ، كما تعلم ، يصف نفسه بأنه اشتراكي ، ولكني واثق من أنك ستصوت مع المحافظين .

ا . ج ــ كرجل علم اجد نفسي على خلاف مع جميع الاحزاب السياسية . فكلها تبدو لي غير علمية بدرجة واحدة . ان المشكلات الحيوية كايجاد منافذ لاعداد السكان المتزايدة والتخلص من الضعيف غير المتوائم مع البيئة لا يمكن حلها الا بتطبيق الاسلوب العلمي في حل المشكلات السياسية . وفي الوقت الحاضر لا أجد دلالات على أن اي حزب من أحزابنا السياسية يدرك هذا ، ولذا فاني سأمتنع عن الادلاء بصوتي .

ر . د ــ يبدو لي كرجل دين ان المشكلة الكبرى امامنا هي رفع مستوى الشعب العامل . واستطيع أن أولي ثقتي لحزب يؤمن بالاشتراكية الدينية . ومع ادراكي بأن حزب العمال عندنا ليس مثاليا الا انه اذا تطهر من المادية . . . .

ر . ا ــ (مقاطعا) ولكن ما لا تدركه ، يا زميلي العزيز ، هو ان اهداف حزب العمال تتركز وتنحصر في الأهداف المادية .

املأ معدة العامل ولا عليك من روحه بعد ذلك . ان هـذا ليس دينا ولا تدينا .. ولن يكون هناك مكان لرجال الدين في دولة اشتراكية .

ج ـ ليس لدي اعتراض على ملء معدة الانسان .. ان معدنا مليئة ولم يضرنا ذلك في شيء .. بل لعل العكس صحيح . ولو كنت مسئولا فسأملأ معدة كل عامل .. ولكني سأوقف ما تقوم الاشتراكية بعمله من حرمان المجتهد من ثمار جهده لكي يعال الكسول وغير الكفء . ان مثل هذا العمل شيء غير حيوي ويتعارض مع نظام الحياة .

ر . ا ـ وسيكون العمال انفسهم هم أول من يتضرر ويقاسي عندما تتدمر البلاد ، انظر الى مستوى ضريبة الدخل الآن . ولا ننسى أن المبادرات الفردية والخاصة في اطار اقتصاد حر هي التي بنت نظامنا الصناعي الذي أعطانا الثراء والازدهار .. وهذا النظام الاقتصادي هو ما يجب أن تعيده الانتخابات اذا اردنا للبلاد أن تزدهر مرة أخرى .

ر . د ـ لا يجوز لانسان ان يقنع بنظامنا الصناعي اذا كان هناك طفل واحد يعاني من نقص في الغذاء في ظل هـذا النظام .

ر . ا ـ يا عزيزي المحترم ، لا احد يريد للأطفال أن يموتوا جوعا ، ان النظام الصناعي يعمل في سبيل تغذية الأطفال اكثر من كل النظريات الاشتراكية في العالم . واريد ان اسالك : كم طفلا يطعمهم حزب العمال ؟.

ر . د ـ أنا لا انتمي لأي حزب سياسي خاص . ولكني اتوقع ان يقوم حزب العمال بعمل مساو لأي حزب آخر في مجال تخفيف ويلات الفقر .

أ . ج ــ دعونا من هذا ولنعد الى نقطة في الجدال تهمني شخصيا اكثر من ميزات حزب العمال وسيئاته . انكما كلاكما تبدوان متفقين انه لا يجوز أن يتضور الاطفال جوعا .. وأنا لا استطيع الموافقة على هذا الراي .. فالطبيعة تنجز كل التحسينات في الأجناس الحية بعملية استبعاد غير الصالح وهي التي تعرف باسم الاختيار الطبيعي . ومن خلال الاختيار الطبيعي تطور الحصان الى حيوان قوي والكلب الى حيوان سريع العدو . والموت جوعا هو أحد أسلحة الطبيعة في استبعاد غير الصالح . ان رؤية أساليب الطبيعة قد يؤذي مشاعرنا الانسانية الرحيمة ، ولكن أن يحاول المرء عن طريق عمل الخير العاطفي التدخل في هذه الأساليب أمر لا يؤدي الا الى انحطاط الجنس البشري . ونظام التأمين الصحي الذي تدفع تكاليفه الدولة ، ويعمل على ابقاء اطفال غير الصالحين أحياء ويقدم اللبن الحليب لطلاب المدارس ما هو الا جريمة حيوية (أو بيولوجية) .

ر . د ــ أرجو أن أسأل الاستاذ هل سرعة كلب الصيد (كلب السباق) ناجمة عن الاختيار الطبيعي ؟ انك تدهشني يا استاذ ، فقد كنت أظن انها كانت بسبب أو عن طريق التزاوج والتهجين .

أ . ج ــ بدلا من كلب السباق خذ مثلا الذئب . فالحجة تبقى كما هي . اني أريد أن ارى جنسا يمتلك الفضائل الحيوية (أو البيولوجية) وهي : القوة ، حسن الاستعداد والمواءمة ، والاستقلالية .

ر . د ــ هل أستطيع الافتراض بأن الدودة الشريطية او الدودة الكبدية أصبحتا متطفلتين بعملية الاختيار الطبيعي ؟

ا • ج ــ نعم اذا اردت . ذلك ان الانسان ليس دودة شريطية ولا دودة كبدية .

ر • د ــ بأي حق تسمي أو تصف أطفـــال الفقراء « بغـير الصالحين » . اني كرجـل دين احتج على اية عبـارة مثل هذه العبارة . اني اجد في بيوت الفقراء في منطقتي مستوى من التحصيل الروحي أعلى بكثير مما يوجد بين الأغنياء .

ا • ج ــ انا لست رجـل دين ولكني مجـرد عالم . ويجب ان أعترف بأنه ليس لدي فكرة واضحة تماما عما تعنيـه العبارة « مستوى من التحصيل الروحي » . وبحسب ملاحظاتي ومشاهداتي المبنية على خبرة ومهارة لـم الحظ التفوق الذي تشير اليه .

اما عن العلاقة بين الفقر وعدم الصلاح ، فاني اعتبـر الفقر نفسه دلالة على عدم الصلاح الحيوي . انه فشل في التكيف الاجتماعي .. والذين يفشلون في ان يتكيفوا مع مجتمعهم غير صالحين . والفقراء هم اولئك الذين لم يتمكنوا من تكييف انفسهم مع ظروف المجتمع الذي يعيشون فيه . انهم غير صالحين حيويـا أو بيولوجيا لانهم سيئو التكيف اجتماعيا .

ر • د ــ لقد كانت دراستي في الفلسفة لا العلوم . ولذا اخشى ان اكون غير قادر على الاستمرار في محادثة بلغة العالم الحديث « البربرية وغير المفهومة » . ارجو أن تتكرم بتعريف الاصطلاح « سوء التكيف الاجتماعي » .

ر • ا ــ ولكن ، جديا ، يا استاذ ، هل تعني أن علم الأحيـاء (البيولوجيا) يريد منا ان ندع الفقراء وعائلاتهم يموتون جوعـا ؟

ا • ج ــ انا لا اقول ان العدد الفائض مـن السكان يجب ان

يموت جوعا . ان العلاج الذي يقترحه علم الاحياء هو انه يجب أن لا يسمح لهم اصلا بأن يولدوا .

ر . ا ــ ولكنهم موجودون الآن . . فقد ولدوا وانتهى الأمر . علينا أن نعمل بشأن ذلك اذا لم نطعمهم ؟ ما هو الحل في رأيك ؟

أ . ج ــ تحديد النسل تحديدا فعالا عند طبقات المجتمع الدنيا هو الحل الوحيد الممكن . عند ذلك لا يحدث فائض في عدد السكان يزعجنا ، أما في الوقت الحاضر فاننا نتكاثر من حثالة الأمة . فالعناصر المنحطة والمجرمة من سكاننا تتزايد بمعدل هائل ، بينما معدل المواليد عند الأذكياء والمجدين في تناقص . ولست أرى غير الكارثة تطل بقرنها امام عرقنا البشري اذا سمح لهذه العماية بالاستمرار دون ضبط أو ردع .

ر . د ــ وتقترح أن توقف هذه العملية بالتدخل في معدل التناسل الطبيعي ؟

ا . ج ــ وهل هناك سبيل آخر ؟

ر . د ــ وستكون اساءة بالغة عنيفة للكرامة الانسانية ان تطبق أساليب التكاثر في مزرعة للخيول على الوظيفة المقدسة واعني بها الأبوة الانسانية . وأنا شخصيا لا أستطيع بحث مثل هذا الموضوع . انه اقتراح يثير الاشمئزاز في كل ضمير مستنير .

أ . ج ــ لماذا ؟

ر . د ــ لأنها ضد الأخلاق الطبيعية . لأنها تدخل في عمل الطبيعة . وما كان الله ليعطي الانسان غريزة التكاثر لحفظ نوعه اذا كان قد قصد له أن يتدخل في نتائج تلك الغريزة .

ا . ج ــ أليس عزق الأرض ومداواة المريض تدخلا في عمل

الطبيعة ؟ انك تعطي الحليب مجانا لطفل غير شرعي من أبوين مجرمين ، ثم عندما يسلك السلوك الوحيد الممكن لأي انسان له حصيلة وراثته تتدخل في عمل الطبيعة بسجنه . الا يكون من الافضل لو انك تدخلت في عمل الطبيعة قبل ذلك وعقمت أباه وضمنت بذلك عدم ولادته ؟ وأرجو أن تذكر انه لو كانت لديك نفس حصيلته من الكروموسومات الوراثية لكنت مجرما بنفس درجته.

ر • د ــ لا أستطيع قبول هذا الوصف للطبيعة الانسانية . فهو يزعزع أسس الأخلاق . ذلك ان الانسان اما ان يكون حر الارادة والاختيار وبذا يحاسب على اعماله أمام الله خالقه أو ان يكون ضحية لا حول لها لوراثته . وفي هذه الحالة لا يكون في العالم طيبة أو خير أو بطولة. وكفيلسوف ديني أنا اقبل الراي الأول وارفض الثاني.

ا • ج ــ حسنا ، ارجو ان تخبرني ماذا ستفعل بطفل له حصيلة وراثية اجرامية ؟ هل توافق على تربيته على حساب المجتمع حتى اذا بلغ اشده سجنته على حساب المجتمع أيضا ؟

ر • د ــ ان ما أفعله هو أن انقذه من الفقر وان اربيه في بيت مريح وفي جو ديني . وفي مثل هذه الحالة لا أعتقد أن طفلا له ما تسميه « بالوراثة الاجرامية » يمكن أن يصبح مجرما باكثر من اي طفل آخر . ان الاسباب التي تجعل المرء مجرما هي الفقر وظروف البيئة السيئة وليست الوراثة سببا في ذلك .. ازل الفقر ومن ثم لا تقلق بالميول الاجرامية في الكروموسومات الوراثية .

ا • ج ــ اذا انت ازلت الفقر فان المشكلة ستظل كما هي تماما. اليس هناك مجرمون اغنياء ؟. ان كل البحث العلمي الحديث في الوراثة يبرهن على أهمية عوامل الوراثة في تقرير سلوك الفرد .

ر • د ـ وبالمقابل كل الفلسفة الحديثة ، وخير ما فيها ؛ متفقة على توكيد أهمية حرية ارادة الفرد .

أ • ج ـ ان الفلسفة ، كما يقال عنها ، هي وصيفة (خادمة) الدين . ولست أشك في أن الفلاسفة قادرون على ايجاد أسباب ممتازة لمفهوم مفيد للدين بدرجة كبيرة كمفهوم حرية ارادة الفرد .

اما بالنسبة لي شخصيا فأنا أكثــــر اقتناعا بالحقيقة الواقعية التي مؤداها أن العلم يرفض هذا المفهوم .

وبودي لو أعلم كيف استطاع الفلاسفــة أن يدحضوا نتيجة أثبتت بشكــل سليم جدا عــن طريق التجربة كنتيجة أهمية عامل الوراثة .

ر • د ـ ليس بوسعي أن آمل في اعطائك تقريرا عن الوضـــع الحالــي لفكرة الارادة الحـــرة في الفلسفــة دون أن يستغرقني ذلك بعض الوقت . ثم اخشى ان لا يكون هذا مثيرا لاهتمامك .

ر • ا ـ ان ما ذكرتماه أعمق من قدرتي على تتبعه .. وقـــد جاءتني فكرة بأن الحقيقة تقع وسطا بين آرائكما .. فلربما كان للوراثة دور مساو لدور البيت الصالح في تقرير ما اذا كان الحدث الصغــير سيصبح مجرما . ولكنني مهتم جدا بأن اسمع ما تقولانه عن الارادة الحرة .. غير أننا تأخرنا كثيرا وارجو ان لا تمانعا في تأجيل بقية الحديث لأمسية اخرى .

ر • د ـ لا أمانع البتة .. وفي الحقيقة انك ارحتني من مهمــة صعبة . ومع أن الامسية كانت مثيرة الا أنني اخشى ان لا تكون قد وصلنا الى قرار بشأن اي من المشكلات التي بحثناها .

(ولعل الجملة الأخيرة هي أصدق ما قيل في النقاش كله)

المحتوى

صفحة

المسهمون في سطور

المؤلف : د. روبرت هنري ثاولس

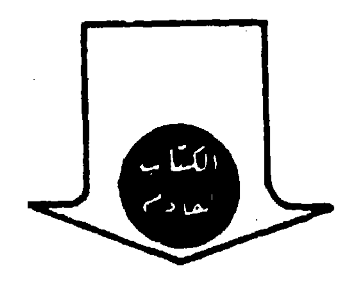
- يعمل استاذا بجامعة كمبردج ، وشغل منصب محاضر في علم النفس بجامعتي مانشستر وجلاسجو ، وله عدة كتب في علم النفس منها : « سيطرة العقل » و « علم النفس العام والاجتماعي » .

المترجم : حسن سعيد الكرمي

- تخرج في الكلية الانجليزية بالقدس ، والتحق بادارة المعارف في فلسطين معلما للغة الانجليزية ثم انتقل الى الادارة العامة مفتشا . وعند انتهاء الانتداب البريطاني التحق بالاذاعة البريطانية في لندن مراقبا حتى عام ١٩٦٨ .
- الف سلسلة من الكتب في الادب والشعر باسم « قول على قول » ، وصدر منها حتى الان خمسة اجزاء . والف قاموس المنـــار بالانجليزية والعربية .
- الف باللغة الانجليزية كتابا عن فلسطين وموقع القداسة منها في نفوس المسلمين ، وكتابا عن معنى الصلاة في الاسلام .

المراجع : صـــدقي عبد الله حطاب

- ولد في فلسطين عام ١٩٣٢ . درس الادب الانجليزي في جامعتي القاهـــرة ولندن .
- يعمل حاليا مديرا للشئون الثقافية بالمجلس الوطنـــي للثقـــافة والفنـــون والاداب .
- ترجم عددا من الكتب منها : « فن المسرحية » ، « فن السيرة الادبية » ، « دراما اللامعقـــول » ، « تقنيات واساليب جديدة في التربية » .



الكويت	٢٥٠	فلسا	ليبيـا	٢٥	قرشا	عمان	٤	ريال
السعودية	٥	ريال	المغرب	٥	دراهم	اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
العراق	٣٠٠	فلسا	تونس	٥٠٠	مليم	اليمن الشمالية	٤ر٥	ريال
الاردن	٢٥٠	فلسا	الجزائر	٥	دنانير	البحرين	٤٠٠	فلس
سوريا	٢	ليرات	مصر	٢٥٠	مليما	قطر	٥	ريال
لبنـان	٢ر٥	ليرة	السودان	٢٥٠	مليما	الامارات العربية	٥	درهم

الاشتراكات : يكتب بشأنها الى المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ،
ص.ب ٢٣٩٩٦ — الكويت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


٢٥٠
فلسًا